



دراسات أدبية

دُور كِشَوْت

بين الوهم والحقيقة

الدكتور غبريال وهبة



دراسات أدبية



الاخراج الفنى

سعد الدين الشريف

دون كيشوت بين الوهم والحقيقة

الدكتور غبريال وهبة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

مقدمة

نسخ ميغل دي ثريانتس سابدرا شخصية بطله « دون كيخوتي » بعبرية فذة ، فإذا الأنسيح درة نادرة لها ، رغم غموضها الملعن ، مألأحجار الكريمة من سحر وبهجة ورواء ، تلملم أشعة كل ماهو عفيف ونيل وخبوط كل معنى سام جليل ، وتجمعها في بؤرة ، لتعكس لنا أروع رمز للانسانية تجمع عليه الاعجاب ، وهفت اليه القلوب ، لا في حدود وطنه اسبانيا ذات الحضارة المجيدة فحسب ، بل أصبحت حدود الرواية حيث لا تتسع لها حدود ، عبر الممالك والامصار ، وأضحت دوحة يتفيا بها في هجير هذا الزمان

وهكذا فاق قلم ثريانتس سيف اسبانيا ، اذ سرعان ما أصبح اسما دون كيخوتي وسانتشو بانثا مألوفين على كل لسان في جميع البلدان والمجتمعات المتحضرة ، وأصبح العالم كله يضحك معا حول « دون كيخوتي » .

لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتي التي أبدعها ميغل دي ثريانتس وهو روائي وكاتب مسرحي وشاعر ذائع الصيت ، وبعد كتابه هذا عن دون كيخوتي أعظم عمل فني في تاريخ الأدب الاسباني ، ومن أحب وأوسع الكتب انتشارا في العالم ، وهو يلي الانجيل في كثرة اللغات التي ترجم اليها .

وشخصية دون كيخوتي تعد من النماذج الانسانية العليا ، الى جانب بروميثيوس ، وفارست ، وهاملت ، فدون كيخوتي يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سانتشو بانثا فيمثل بدن الانسان . ذلك الرفيق الاصيل للروح .

ومنذ القرن السابع عشر حتى الآن لم يفرغ البشر من فهم دون كيخوتي ، ومازال المعلقون والشراح والنقاد يجدون في أفعاله وأقواله كل أنواع المعانى والرموز ذات المغزى والدلالة والأهمية ، رغم أن ثريانتس نفسه يعترف بأنه لا يود شيئا سوى شجب قصص الفروسية ، وتعزية ما فيها من زيف وعبث ، ولا تزدحم المكتبة القومية بإسبانيا بطبعات رواية دون كيخوتي ومجلداته فحسب ، بل بأطنان من الكتب تشرح وتفسر ماخفى وغمض من الرواية ، تلك التى وصفها الناقد الفرنسى الكبير سانت بييف بأنها « انجيل الانسانية » .

ولا غرابة اننى أحببت هذه الرواية لنزعتها الانسانية التى جعلتها تتجاوز حدود إسبانيا لتصبح رواية البشر جميعا في كل الأوطان على مر العصور ، وأعجبت بمؤلفها العبقري وبحياته الأسطورية التى تعمق بالوطنية والبطولة ، فكان اختياري لموضوع هذا الكتاب .

وقد آن الاوان لكى ننطق دون كيخوتي كما ابتدعه مؤلفه الأسباني ، بدلا من نطقه دون كيشوت كالذين يقرأونه بالفرنسية .

وكان تأثير الرواية في الأدب والموسيقى والفنون التشكيلية تأثيرا عميقا ، واستلهم المصورون الرواية مرارا فنقلوا الى لوحاتهم الفارس ومن حوله ، محاولين أن يعكسوا بفرشاتهم روحانية دون كيخوتي .

ويستحق كل هذا منا وقفة لنتساءل عن سر انتشار وذيع الرواية بهذا الشكل الذى لم يسبق له مثيل . واقتضى هذا منا لكى نصل الى الاجابة أن نتناول في بحثنا مؤلف هذا العمل الفريد وحياته وعصره وظروفه ، وخاصة أن الرواية على صلة بعصر ميغل دي ثريانتس مؤلفها وبشخصيته وحياته ، شأنه في ذلك شأن الآثار الانسانية الكبرى في الماضي والحاضر ، ومن هنا جاز لنا أن نتعرض لعصر ثريانتس وحياته حتى نضع الرواية في موضعها منهما .

بيد أنه لم يكتب في عصر عن حياة ميغل دي ثريانتس ، مبتدع دون كيخوتي ، الا النذر اليسير . بضع صفحات هنا وهناك في مقالات قصار أو مقدمات يستهلون بها رواية « دون كيخوتي » المترجمة الى العربية . مع أننا ندين لميغل دي ثريانتس بأمتع روايتين أتحفنا بهما في تاريخ الأدب . أولاها . حياة دون كيخوتي الغريبة العجيبة ، وثانيتهما . حياة مؤلفها التى تضارع حياة بطله دون كيخوتي ان لم تكن قد فاقتة في غرابتها .

وقد رأينا أن نبدأ عملنا بتصحيح اسم المؤلف الذى ينطق بالإسبانية ثريانتس وليس سرفنتيس أو سرفنتيس وفق نطقه بالانجليزية أو الفرنسية . وهناك اتجاه بين كتاب السير نحو اغفال ما لم يستعذبونه من مشوار حياة

ميجل دى ثريانتس فيظهورونه كراهب ، ولكننا فى الباب الأول الذى أفردناه لحياة المؤلف، رأينا أنه ليس هناك ما يمنع من أن نستمتع بروايته ونعجب بها ، وفى نفس الوقت نقص الحقائق عن حياته . وإذا كان هنرى توماس ودانا أى توماس قد قالوا عن ثريانتس أن شجيرة الورد لن يضرها أنها نبتت فى الوحل ، واستمدت غذاء جمالها من الطين ، فأننا نقول عن ثريانتس ما ذكره سسانتشو بانثا لدون كيخوتى من أن الأراضى الجافة العقيمة تنتج ثمارا طيبة حين تسمد وتزرع . ونحن نرى أن العديد من تجارب الأيام والخبرات والمعاناة والآلام التى ذاقها ميجل دى ثريانتس هى السمد الذى أثرى نغم حياته الأدبية وأنتج لنا درة أعماله وزهرتها الياضعة « دون كيخوتى » . كما أن تغلفنا فى حياة ميجل دى ثريانتس ، لكى نفهم روايته فهما عميقا ، ايس ببذعة ، فقد ظهر هذا الاتجاه فى مدارس النقد الفرنسى الحديث التى يتزعمها سانت بييف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) الذى كان يتتبع الحياة الشخصية لكل كاتب ، وتلاميذه وأصدقائه ، بل وأعداءه . ونحن بالتالى سنفعل ذلك دون أن نخش الطرف عن أعدائه . ونحن لم نؤثر سلوك هذا الطريق لننشوه صفاء السماء شأن الغربان ، ولكننا سرنا فيه وفقا لما تقتضيه موضوعية البحث العلمى وأمانته حتى نصل الى مدى العلاقة بين حياة المؤلف وشخصية بطله دون كيخوتى .

وقد أفردنا الباب الثانى للدراسة التحليلية لنص الرواية متناولين العناصر الرئيسية لها وشخصياتها مع عرض لآراء الكتاب والنقاد فى العمل حتى نعيد تنظيم الجور النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى لتكتسب أبعادا واضحة ، ويصبح فى الامكان تقدير الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

د . فبريال وهبة

الباب الأول

شخصية دون كيخوتي من خلال حياة مؤلفها

الفصل الأول :

ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية

الفصل الثاني :

حياة ميغل دي ثربانتس المغامر كنموذج لبطل روايته دون كيخوتي

الفصل الثالث :

سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ في حياة ثربانتس

الباب الأول

في رواية « ضباب » للكاتب الأسباني الكبير ميغل دي أونامونو يدور صراع بين الحياة والموت ، والوهم والحقيقة ، وهما هو ذابطلها أوجوستو بيريث يبلغ به اليأس ذروته إذ أوشك على الانتحار بعد هرب حبيبته قبل أن يزف إليها بيوم مع عشيقها السابق ماوريثيو ، فيواجه مؤلفه ٠٠ أونامونو الذي يقول لبطله أنه أصبح لا يعرف ماذا يفعل به ، وأنه سيقضيه ٠٠ وفي أثناء الحوار يخبر المؤلف بطله في حزم بأنه لا وجود له ، وأنه جزء من أحلام أو خيال المؤلف والقراء ٠ غير أن أوجوستو عندئذ يتشبث بالحياة فيتمرد على مؤلفه طالبا الخروج من الضباب ، وأن يعيش قائلاً للمؤلف أنه قد يكون هو نفسه لا وجود له ، فهو ليس حيا ولا ميتا ، وأن دون كيخوتي (أو دون كيشوت كما ينطق بالفرنسية) وتابعه سانتشو أكثر حقيقة من ثريانتس نفسه ٠

استوقفتني هذه العبارة الأخيرة ، إذ لم ينطق بطل رواية « ضباب » بغير الحقيقة في قوله عن ثريانتس ٠ وقد دفعني هذا إلى البحث عن حياة ميغيل دي ثريانتس مؤلف رواية « دون كيخوتي » ٠ ولماذا طغت عليه شخصية بطله الذي ابتدعه ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ وهل كان المؤلف هو نفسه دون كيخوتي كما يذهب البعض مثل رفايللو بوسوني ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل لحياة ميغل أثرها في هذه الشخصية الخالدة ؟

إن الإجابة عن كل هذه التساؤلات تحفزنا إلى قراءة الرواية قراءة متأنية ، وتستدعي تمهلا وروية بالغة في دراسة حياة المؤلف بالتفصيل ٠٠ هذا فضلا عن أنه لكي نلم بمنابع شخصية دون كيخوتي وجذورها السياسية والتاريخية والفلسفية فإن ذلك يقتضي أن نعرض لحياة المؤلف وظروف عصره التي عاشها حتى ندرك مدى ارتباط ذلك وقوة تأثيره على تلك الشخصية التي ابتدعها ٠

الفصل الأول

ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية والدينية

- ١ -

أسبانيا في القرن الذهبي

كانت أسبانيا امبراطورية شاسعة الأرجاء في أوج قوتها وعظمتها ،
ومع ذلك ظهرت بوادر تدهور آت لا ريب فيه .

عندما ارتقى فيليب الثاني عرش أسبانيا كانت أقوى دولة على وجه
الأرض ، وفاقته ممتلكاتها ما في حوزة أي بلد آخر . . . فقد امتدت
الامبراطورية الأسبانية لتشمل نصف العالم ، ووصلت أقصى حدودها إلى
قمم جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية ، وكانت فرق الجيش الأسباني
منتشرة في كل مكان . . . ففي أوروبا كان جنودها يرابطون في فرنسا وإيطاليا
والأراضي الواسعة . . . وفي خارج أوروبا كانت أسبانيا تمتلك كل أمريكا
الوسطى ، وجزءا كبيرا من أمريكا الجنوبية ، وبعض أجزاء من أمريكا
الشمالية . . . يضاف إلى ذلك الفلبين والهند الغربية . . . هذا بخلاف
الممتلكات البرتغالية في أفريقيا والبرازيل وآسيا التي انتقلت إلى أيدي
الأسبان في عام ١٥٨٠ . . . وقد ذكر مؤرخ أسباني في فخر واعتزاز : « أن
الشمس لا تغيب عن الأراضي الخاضعة لملك أسبانيا وأن أقل حركة من
تلك الأمة تهتز لها الأرض بأكملها » .

أن الذهب والمعادن الأخرى الثمينة التي كانت تتدفق دون توقف من
أمريكا ذات الثراء الفاحش قد غيرت من وجه أسبانيا في وقت قصير . . .
وقدمت لها مستعمراتها الغنية سوقا لصناعاتها التي نمت إلى حد لم تكن
تحلم به . . . وازدهرت تجارتها وتعددت سبل انتقالاتها . . . وأصبحت

أشبيلية أحد موانئها التي تموج بالنشاط ٠٠ وقد وصفها روناريث مارين قائلاً : « بالأشبيلية من مدينة تموج بما فيها من حياة وحركة ، وذهاب وجيئة ، وتنوع في الأزياء ، وامتزاج في اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة بالثروات ٠ وبالنشاط التجارة في بيت العقود الخاصة بأمريكا ، وبالمضجة الميناء ! وبالشطآنها من جمال وروعة ! وما أشد غثثة الغاديات والرائحات في الطرقات أو المتطلعات من النوافذ ! أى حياة مترعة بلذائذ الحياة ! أى شمس مشرقة ! وأى سماء بأسمه ٠٠ » . وقد قيل عن هذه المدينة أنها لو عرفت كيف تحتفظ بجزء من الألف مما تدفق على أرضها لكانت شوارعها اليوم مرصوفة ببلاط من الذهب ٠

ولكن بالنسبة لشعب كان يجهل القوانين المالية أى مجموع الدخل والنفقات في الدولة ، فإن هذا النهر من الذهب كان بمثابة هدية مسمومة ٠ فالموقف الاقتصادي لشبه الجزيرة غير مستقر ، وارتفعت الأسعار في الأندلس بسرعة هائلة إلى ٥٠٠٪ خلال القرن السادس عشر وحده ٠ ولم تتوان الأجور هي الأخرى في اللحاق بهذا الغلاء وتجاوزته ٠ كما أن طرد اليهود عام ١٤٩٢ أدى إلى أن تخسر أسبانيا خبرتهم التجارية ، ووضع التجارة الأسبانية بين أيدي تجار أجانب (هولنديين أو من أهالي جنوا) كانوا يميلون إلى الاحتفاظ بجزء كبير من العائد ٠ وقد وقعت أسبانيا مع المغاربة عام ١٦٠٩ في نفس الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه مع اليهود ، وبذا خسرت أنشط عناصر الدولة فقد كانوا هم محركي الصناعة الجديدة وأسهم رحيلهم في قيام الأزمة في الاقتصاد وتدهوره ٠

- ٢ -

فيض من النبلاء وسيل من البذخ

يبلغ عدد سكان البلاد في أواخر القرن الخامس عشر حوالي تسعة ملايين نسمة بما فيهم العبيد والمغاربة ٠ وإذا أخذنا في الاعتبار السكان المبعثرين في الصحاري الشاسعة والسكان الرحل كالرعاة والغجر ، فإن مجموع السكان من الأفضل أن نقدره بعشرة ملايين ٠ ويدعى نصف هذا العدد نبالة الأصل ٠ أما النبلاء الحقيقيون ، وهم عظماء أسبانيا ، فكانوا يتباهون باظهار العظمة ، وما يورقلون فيه من ثراء ٠

وفي هذا المجتمع كان يضحى بكل شيء في سبيل الشرف ٠٠ ويتمين

على رجال كل أسرة حماية عفة نسائها ، والانتقام من أى إخلال بقواعد الفروسية • وقد بالغوا في هذا الدور حتى كثرت قعقة السلاح ، وصليل السيوف في المبارزات التي كانت تنشب هنا وهناك •

- ٣ -

إيمان رهيب

من المستحيل أن نفهم تاريخ أسبانيا في القرن السادس عشر مالم ندرك كثافة وعمق الشعور الدينى الأسباني ••

كان الدين مسيطرا على الحياة القومية لدرجة التعصب ، وسادت هذه الروح في ديوان التفتيش بأحكامه الوحشية ، وفي الشعب من الملك الى آخره وقاطع طريق •

ولم يكن عدد الأديرة في القرن السادس عشر يقل عن تسعة آلاف دير يعيش بين جدرانها أثنان وثلاثون ألفا من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان فضلا عن أن عدد اليسوعيين كان في ازدياد مضطرد • وكانت المواكب الدينية واحتفالات إحراق الأحياء التي تصحب إصدار الحكم بالموت حرقا من قبل محكمة التفتيش على المتهمين بالهرطقة وما يتبع ذلك من تنفيذ الحكم من جانب السلطات الدينية ، أحد مظاهر هذا الإيمان الأسباني القاسى •

- ٤ -

الملك حاكما مطلقا

كان فيليب الثانى ، وهو حفيد جان المجنونة ، وابن شارل الخامس ، يعتبر نفسه أقوى ملك على الأرض فقد كان يحكم نصف العالم كحاكم بأمرة

دون الاعتماد على أعوانه أو مستشاريه ، وحتى المجالس الإقليمية كان يتجاهلها ، ويعمل على هواه مهما بكل التفاصيل . . . فهو الذى يدير بنفسه شئون البلاد ، ويراجع ما تم من الأشغال العامة ، ويقوم بتقنين القوانين . لذلك كانت الأداة البيروقراطية تسير فى تشاقل وبطء . فالملك فيليب الثانى الحذر كان يدعو على العمل لا يكل ولا يمل . . . ولكنه كان بعيدا عن هذا الاضطراب والقلق الخارجى . فهو يعيش وسط القصر فى عزلة متمسكا بالرسميات كتجسيم لقوة سلطانه الملكى . كانت عيناه محمورتين ، كما يقول الناس ، من كثرة العمل لساعة متأخرة من الليل ، واحدودب ظهره من طول اتحنائه وهو يواصل الكتابة ، والتوت أصابعه من داء الفاصل ، وتغير لون شعره الضارب الى الحمرة فأصبح رماديا ، كما رقى عوده وخف . وهو مع ذلك يأخذ نفسه أخذا شديدا بلا هواة ، متكبا على العمل . وهو من دون حكام البلاد المجاورة ، يبدو غيورا ساهرا وقد أخذ على عاتقه المسؤولية عن كل شئ فى مملكته المترامية الأطراف . انه حاكم مطلق يستمد قوته من حقه السماوى ، ولكنه لم يكن طاغية . كان طرازا جديدا من الملوك ، نشأ على حب النظام والطاعة تجاه مسؤولياته التى تجعل منه خادما للمملكة كما هو رئيسها وقائدها .

بيد أنه لا أحد يفسر الأمر بتلك الطريقة . ان رجال الجاشية يضحكون فيما بينهم عن آخر ماحدث بين مستشارى الملك . فكم هو مضحك ان يختار الملك شخصين يفتان بعضهما ككبيرين لمستشاريه . . . فالملك يستشير أحدهما ثم يعرض اجابته كمشكلة على الآخر . وطبيعى ان تلك كانت طريقة تحمل دهاء ، وتتم عن ملك أريب ذكى ثاقب الفكر يمكنه ان يقف بسرعة على الجانبين الجيد والسبىء لاي مشروع . . . وكان ذلك بمثابة بداية لنظام الحزبين . . . وجذور للبرلمان ، ولكن رجال الجاشية كانوا يميلون لرؤية الأشياء من زاوية شخصية . وعلى أية حال فان الملك يمضى قدما متخذا قراراته بنفسه . ففيم أذن تعبه وهو يحفر للمستشارين كى يتحرشا ببعضهما ؟!

وفى تلك الايام كان فيليب يبنى الاسكوريات . . . القصر المنيف على بعد عشرين ميلا خارج مدريد . وهو لم يكن رمزا للفخامة والأبهة أو القوة أكثر مما يعكسه من صفات الرجل الذى بناه لخدمة الدين . . . فالجزء الرئيسى منه كان ديرا وكاتدرائية . وخصص جناحا واحدا للأسرة الملكية ، واختار الملك لنفسه غرفة صغيرة بسيطة يعمل فيها لا تحوى شيئا غير سرير ومنضدة ومقعد .

كانت اسبانيا غنية . . . فمنذ ان استطاع ارنان كورتس ان يفتح المكسيك (١٥١٩ - ١٥٢٦) ، ومنذ ان غزا بيثارو بيرو (١٥٣٠ - ١٥٣٥) تدفق نهر لا ينضب من الذهب من الدنيا الجديدة الى اسبانيا . فآين تولى هذا الذهب ؟ لماذا تعطلت كثير من الأنوال التى تنتج لاسبانيا فخر تجارتها

من الأنسجة الصوفية الثمينة ؟ لماذا تحولت كثير من الحقول الى اراض
بور ؟ لماذا توقفت الطواحين ومعاصر الكروم والزيت ؟

ان خلف هذا المظهر الضخم للقوة والمنعة تكمن التوترات الداخلية
التي كانت تسوق اسبانيا الى هاوية الافلاس رغم ثرائها ، واطل شبح
الفقر المنقع على البلاد .

يرجع احد اسباب ذلك ، كما سبق ان ذكرنا ، الى طرد اليهود عام
١٤٩٢ ثم المغاربة عام ١٦٠٩ ففسدت اسبانيا انشطه عناصر محزكي
الصناعة الجديدة ، وأسهم رحيلهم في ازدياد أزمة الاقتصاد وتدهوره .
ومن ناحية أخرى تمادت اسبانيا وتطرفت فيما تشنه من حروب في كل
أنحاء العالم . حيثما يشعر فيليب بتهديد للعقيدة الدينية ، فإذا ما قويت
شوكة أتباع كالفين في هولندا فإن فيليب يحس بمسئوليته الشخصية نحو
سحقهم ، وإذا ازداد نفوذ البروتستانت أو أصبحت لهم اليد العليا في
فرنسا أو غيرها ، فإن فيليب سرعان ما يدفع اليهم بأحد جيوشه . ومن
الواضح أن شن عدة حروب في آن واحد في الأراضي الواطئة ولومبارديا
وبورجونيا ، وفي افريقيا ، وأمريكا ، وفي أعالي البحار انما يشكل اجهادا
واستنزافا لخزينة الحكومة . وكان صانعو السيوف وسروج الخيل ، من
دون عمال اسبانيا ، هم الذين يعملون باستمرار ، ولكنهم أيضا لم يصبهم
ثراء . فالذهب ، بعد أن هدأت الحال ، كان يحشو جيوب قلة من الناس
يقبعون فوق قمم الأكرام والأكداس . فبدلا من عدالة التوزيع ، فإن الذهب
ظل في أيدي النبلاء ، وبعض كبار التجار ، والوسطاء والسماسرة ،
ومضاربى اليورصة .

كان التاج غارقا في الديون . لقد صعد فيليب الى العرش واسبانيا
تثن تحت وطأة دين ضخم ، فحفلات تنوير والده . . الامبراطور شارل
الخامس بفخامتها وأبهتها التي لا يصدقها العقل تكلفت من الأموال الباهظة
مالا يحصرها العد . وزاد فيليب الديون ثقلا بتطرفه في حروبه . . تلك
التي ألجأته الى مواصلة الاستدانة من هنا وهناك ومن كل مكان .
وأصبحت ابواب البلاط حتى الخصوصية تفتح لرجال كانت توعد دونهم
منذ سنوات قلائل . . خليم عجيب من الألمان والفلمنكيين (شعب الفلاندر)
والإيطاليين والبرتغاليين . . تجار ومواطنين عاديين لا يمتون للنبلاء
بصلة على الإطلاق جاءوا لتقديم القروض للامبراطورية الأسبانية ، فالملك
يحتاج الى المال ، وهم يحصلون بدورهم على الامتيازات والاحتكارات .

الذهب يجرى وترتفع الأسعار ويزداد الأثرياء ثراء ، والفقراء فقرا ،
والملك يسهر يوميا حتى ساعة متأخرة من الليل .

الحضارة الأسبانية

في مستهل القرن السادس عشر سار التقدم الفكرى جنباً الى جنب مع دلائل العظمة العسكرية .

كان حجم الحياة الجامعية فى اسبانيا كبيراً . وكانت جامعة سالامانكا التى تمتد جذورها الى أوائل القرن الثالث عشر فى نمو مضطرد . وكان عدد طلبتها يفوق أى جامعة أوروبية أخرى فى ذلك الوقت . كما تفردت بقبولها للجنسين دون تفرقة سواء فى نوع الدراسة أو الدرجات العلمية . وقد برزت على الأقل امرأتان هما لوسيا دى مدرانو وخوانا دى كونتريراس اعتادت أن تلقيا محاضرات عامة فى الجامعة . ويقال أن فرانثيسكا لبريخا الابنة المتعلمة لأنطونيو لبريخا الذى كان يعد أعلم أهل عصره ، كانت تقوم أحياناً بالقاء محاضرات نيابة عن والدها .

وهناك جامعة باليادوليد ، وهى أقدم جامعات شبه الجزيرة ، وكانت شهرتها العالمية ترجع الى تخصصها فى المستوى الرفيع فى الأعمال الجراحية .

ويمكننا أن ندين مدى النمو الفكرى ، الذى كان يسير على قدم وساق ، من عدد الجامعات الجديدة التى ظهرت فى أوائل القرن السادس عشر : سيجونثا (١٤٧٢) ، ثاراجوثا (١٤٩١) ، بالانثيا (١٥٠٠) ، سانتياجو (١٥٠٤) ، أشبيلية (١٥١٦) ، غرناطة (١٥٢٦) .

أما جامعة ألكالا فقد كانت أعظم المؤسسات الجديدة والتى أسسها الكاردينال خيمينيس (١٥٠٨) وهى لم تكن جامعة فحسب بل مدينة جامعية ، خصص جزء كبير منها كبيوت للطلبة ، ولبائعى الكتب . وكانت تضم بين جدرانها بعضاً من أعظم علماء أوروبا الذين رحبوا فى جماس بالمذ الكامل لفكر ومعارف عصر النهضة . وقد ازدادت أعداد طلبتها بسرعة حتى بلغت الى ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى منتصف القرن السادس عشر .

كما أن نمو النشاط الفكرى لاسبانيا يمكننا أن نتبينه من نشاط مطابعها . وقد سجل هيبيلر ما لا يقل عن ٧٢٠ كتاباً طبعت فى اسبانيا فى خمس وعشرين مدينة مختلفة قبل نهاية القرن الخامس عشر . وهذا العدد من الكتب يمكننا أن نتبين حداه اذا قارناه بما طبع فى إنجلترا فى نفس الفترة والذى بلغ ٣٥٨ كتاباً . وهذا مؤشر عادل لنمو النشاط الفكرى المضطرد ، والذى انضم مع الثروة والقوة العسكرية لاسبانيا ليرفعها فى فترة قصيرة الى موقع السيطرة والهيمنة على أوروبا بلا منازع .

- ٣ -

أحداث قرن ثورانتس

١٥٥٢ - ١٥٥٦

- الحرب بين فرنسا وأسبانيا

١٥٥٦

تنازل شارلكان عن العرش لصالح فيليب الثانى وكان ذلك بداية القرن الذهبى للادب والفن الاسبانيين

١٥٥٧

يستقر تجار البرتغاليون في ماكاو ، بينما يصل مبشرون الى اقليم كوانج تونج في الصين

١٥٥٨

- تتربع الملكة اليزابيث على عرش انجلترا

- يعطى ايفان الرابع الاشارة لى يدخل الروس الى سيبيريا

١٥٦٣

- مجمع ترانت الكنسى يهتتم أعماله ، واجهة الحركة البروتستانتية

١٥٦٤

- الكرسي البابوى يصدر قائمة بالكتب المحرمة

١٥٦٧

- بدء المعركة ضد المنادين بالتحريد الوحيدى للبلاد الواطنة

١٥٧١

الأسطول الأسباني مع من حالفه من الدول الأوروبية يهزم الأتراك في معركة ليبانتو

- الأسبان يحتلون الفلبين

١٥٧٤

الفرق الأولى من العبيد السود القادمة من إفريقيا تنزل على شواطئ أمريكا الجنوبية

١٨

١٥٨٠

اسبانيا تضم البرتغال وقد بلغت الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية
أوج قوتها وبأسها .
السير فرانسيس دراك يحقق الدوران الثاني حول العالم بسفينته .

١٥٨٢

اليابان تحاول اخضاع كوريا .
والبابا جريجورى الثالث عشر يقوم بتعديل التقويم القديم (وهو
تقويم جوليان الذى أدخله يوليوس قيصر فى عام ٤٦ ق م .) .

١٥٨٤

السير والتر رالى يؤسس فرجينيا . أول مستعمرة انجليزية فى
أمريكا الشمالية .

١٥٨٨

هزيمة الأرمادا . الأسطول الاسبانى الذى لا يقهر .

١٥٨٩

هنرى الرابع يصبح ملكا على فرنسا .
جاليليو يضع قوانينه عن البندول ، وسقوط الأجسام .

١٥٩٨

مرسوم نانت الذى أصدره هنرى الرابع ملك فرنسا وبمقتضاه يمدح
البروتستانت حرية العقيدة والعبادة .

١٦٠٠

تأسيس شركة الهند الشرقية فى لندن .
جيمس الأول يخلف إليزابيث على عرش انجلترا .

١٦٠٩ - ١٦١٠

كبلر يكتشف قوانين حركة الكواكب ويصنع منظارا فلكيا .

١٦١٠

لويس الثالث عشر يخلف هنرى الرابع ويعهد بإدارة الدولة
للكاردينال دى ريشيليو .

وفى اسبانيا تستمر هجرة المغاربة الجماعية .

١٦١٠ - ١٦١٧

تبدأ فرنسا وانجلترا في اقامة مكتبات كبيرة قومية . ولاثراء دار الكتب الملكية بباريس (دار الكتب القومية حاليا) أجبر الناشر على تقديم نسخة أو نسختين من كل مؤلف مطبوع .

١٦١٣

ميخائيل رومانوف يصبح قيصر روسيا .

١٦١٥

وليم هارفي يكتشف الدورة الدموية .

١٦١٨ - ١٦٤٨

حرب الثلاثين عاما التي نشبت معاركها في أوروبا بسبب انقسام المسيحية فيها الى المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية .

١٦٢٤

بدء تشييد قصر فرساي الشهير بالقرب من باريس .

١٦٢٥

شارل الاول يخلف جيمس الاول على عرش إنجلترا .

١٦٢٦

الهولنديون يؤسسون في أمريكا الشمالية نيويورك المستقبل والتي كانت تدعى وقتئذ أمستردام الجديدة .

١٦٣٣

محكمة التفتيش تجبر جاليليو على رفض نظرية كوبرنيكوس المبنية على النظريات الرياضية وهي أن الشمس مركز النظام الشمسي وتدور حولها الكواكب السيارة على أبعاد مختلفة ، وأن هذه الكواكب تدور حول محاورها .

١٦٣٥

تأسيس الأكاديمية الفرنسية في باريس .

١٦٤٣

مازارين يخلف ريشيليو على رأس الدولة الفرنسية .

٢٠

١٦٤٢ - ١٦٤٩

• الحرب الأهلية في إنجلترا

١٦٤٣

• لويس الرابع عشر يصعد الى العرش في فرنسا

١٦٤٩

• اعدام شارل الاول في لندن وسقوط الملكية ، وعلان الجمهورية

الفصل الثانى

حياة ميكل دى ثريانتس المغامر كائموذج لبطل روايته دون كيخوتى

- ١ -

حياة التشرد والتجوال فى سلاية دون كيخوتى

او

دون كيخوتى ايننا عن أب

نحن الآن فى عام ثلاثة وستمائة بعد الألف . وماهو ذا بطلنا دون ميكل دى ثريانتس الذى بلغ السادسة والخمسين يجلس هادئا فى زنزانية ضيقة فى أحد سجون مدريد ، وقد وخط الشيب شعره ، ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل . وسوف نعرف السبب فيما بعد . . . وهو ينتظر اللحظة التى تكتشف فيها السلطات براءته . انه الآن منهمك فى تأليف كتاب .

تتوالى الأيام ودون ميكل منحن فوق المنضدة الكسيحة ، وقلمه المصنوع من ريشة طير يصدر صريرا عنيفا فوق الأوراق . . . وما أعرب ما يكتب ! .

هناك أجماع عالمى على أن بطل الرواية يكون شابا فتيا وسيما ، بيد أن البطل الذى أبدعه دون ميكل كان رجلا وخط الشيب شعره ، ولوحت الشمس بشرة وجهه النحيل كالمؤلف نفسه . ليس هذا فحسب ، بل جعل عقله يتشوش أيضا : « سيد ريفى انغمس فى قراءة كتب القروسية حتى اختل عقله فى النهاية من طيلة السهر وكثرة القراءة » . وقد أثار الرجل الذى أبدعه ميكل الدهشة فيما بعد - « رجل مجنون تملكته أعرب فكرة فى العالم ، فقد ارتدى دروعه ، وغادر مزرعته ممتطيا صهوة جواده ليحقق عمليا ما قرأه فى الكتب » .

واعتقد الرجل المسكين أنه حالما ينطلق كفارس جوال فإنه سوف يقابل المردة والسحرة والعداري اللاتي أهدت بهن المحن . ولما كان مقتنعا بما رسخ في اعتقاده ، لم يأبه بأقوال عقلاء القوم الذين بينوا له أن المردة ماهم الا طواحين الهواء ، والعداري لسن في حاجة الى الفوث والنجدة والانقاذ . ووجد في السحر والسحرة تفسيراً للأحداث التي يحار فيها .

ويخفت الضوء تدريجياً في زنزانته ، ولم يعد في وسعه أن يكتب في الظلمة . ترى من أين جاء هذا الفارس غير المعقول ليصول ويجول في روايته . هذا الدون كيخوتي الذي يمتطي صهوة جواده الهزيل ، ويصر غير آبه بأي منطق ، أن العالم هو كما يريد أن يكون . هل هو شخصية لا وجود لها الا في خيال دون ميغل ، ولدت بعد مخاض أليم امتد عبر شهور طويلة من الوحدة والغربة المرحشة متجولاً فوق صهوة جواده قبل أن يزع به في غياهب السجن ؟ أم تراه قد صادفه دون كيخوتي وعرفه في الحياة الواقعية في مكان ما ؟ هذا ما سنبينه في ثنايا البابين الأول والثاني .

أطبق الظلام على السجن وجثم داخل الزنزانة ثقيلاً مرهقا ، وهما هو ذا ميغل دي ثريانتس يبتعد عن ناظرينا . ودعونا الآن نقلب صفحات التاريخ الى الوراء . الى عام ١٥٤٧ الذي رأيت فيه عيناه النور .

ظل المكان الذي ولد فيه ميغل مجهولاً ، ولم يشغل ذلك بال أحد . ففي القرن السادس عشر لم يكن الناس يهتمون بمثل هذه التوافه . بيد أنه عندما طبقت شهرة ميغل دي ثريانتس الآفاق ، وأصبح فخر الأمة تباهى به الأمم ، تسابقت كثير من المدن . كل منها تدعى أنه من أبنائها . وقد قوبلت هذه الادعاءات بالرفض لأنها لم تكن تقف على أساس صلب . الى أن تصادف منذ مايزيد عن قرن من الزمان أن عثر أحدهم ، عندما كان يقوم بأعمال الحفر ، على سجل كنيسة القديسة مريم الكبرى في بلدة صغيرة هي ألكالا دي اينارس ، التي تبعد حوالي ٢٠ ميلاً شرق مدريد ، وكان مدونا به أنه في التاسع من أكتوبر عام ١٥٤٧ عمده طفل يدعى ميغل وهو الابن الرابع لدون رودريجو دي ثريانتس سابيرا وزوجته ليونور . ولم يكن يوم الميلاد مثبتاً ، ولكن ذلك حسم قضية منبت رأس ميغل . كان أكبر أخوته هو رودريجو ، على اسم والده ، قد بلغ السابعة من عمره عندما ولد ميغل . ثم رزق والداه بعد رودريجو بأبنتين هما أندريا وكانت في الخامسة ، ثم ماجدالينا وكانت في الثانية من عمرها عند مجيء ميغل الى الدنيا .

كان دون رودريجو ، والد ميغل ، رجلاً نبيلًا . ولقب دون في الأسبانية يعني سيد . ورغم أنه كان يحمل سيفاً للدلالة على منزلته ، ويتدثر برداء النبلاء ، الا أنه كان فقيراً . ومن المفروض أن النبيل يعيش من تخل بممتلكاته ولا يلوث يديه بالعمل . وإذا لم يكن لديه رغبة في أن يركن الى الخمول ، فإن الكنيسة أو الملك يتيحان له فرصة خدمتهما .

ولسوء حظ رودريجو لم يكن لديه ممتلكات تدر عليه دخلا . وعندما رزق بابنه الرابع ميجل كان يحمل وجه رجل أثقله الهم . يلوح عليه القلق والانزعاج ، وأصبح رجلا تسهل أثارته ، كما كان خشنا عنيفا في بعض الأحيان .

أطلق على نفسه لقب دكتور ، ولكن ذلك كان يحتاج الى مؤهلات . وعندما كان شابا واطب على الاستماع الى كثير من المحاضرات الطبية ، غير أن ضيق ذات يده ، وعدم دفعه رسوم الدراسة اضطره الى الانقطاع عنها . واستمر الرجل يدرس بنفسه ، ولكنه لم يحصل على دبلوم حقيقي في الطب .

مضت عدة أعوام هباء ، قرر بعدها دون رودريجو الإقامة في الكالا دي اينارس . كانت مدينة ذات ضجيج وعجيج ، والأعمال فيها رائجة . وهذا ما جذبته اليها . أما جامعة الكالا التي لم يمض على أنشائها سوى خمسون عاما ، كانت رغم ذلك تنافس جامعة سالامانكا القديمة في علمها وعدد طلابها الذين بلغ عدد من سجلوا أسماءهم بها في أحد السنوات ستة آلاف . هذا غير أولئك الذين يحشرون أنفسهم في قاعة المحاضرات دون أن يدفعوا شيئا . وقد رأى دون رودريجو في شوارع الكالا كل صنوف البشر من ذوي الحيثية والجاه : الأحرار ورؤساء الدين ، وكبار الكهنة ، وأبناء الدوقات النبلاء . وبجانب ذلك كانت المدينة تعج بجموع من رقيقى الحال الذين ينشدون الفوز بنقود سريعة من طلاب الجامعة الذين ينفقون بسخاء وتبذير .

كان دون رودريجو على ثقة بأنه سيظفر هنا بربح وفير . ولكن واأسفاه ، لم تكن المدينة في حاجة الى مزيد من الأطباء الجدد ، ولا سيما أن بها كلية طب لها وزنها ، وكبار أساتذة الطب متوفرون فيها . وقد يلجأ اليه بعضهم في عمليات فصد الدم ، ولكن في الحالات الخطيرة فإن ذكره لن يخطر ببال أحد من أثرياء المدينة . وأصبح مرضاه ضمن فقراء الطلبة والتجار الذين لم يكن أمامهم سواه .

كانت صدمة لدون رودريجو وزوجته ، وعانى من قلة العائد في حين أنه كان طبيبا حاذقا رغم أنه لا يحمل مؤهلا . فقد كان يحب مهنته ، ويعلم كثيرا من أسرارها في وقت كانت فيه المعلومات الطبية الحقيقية ضحلة قليلة الغور .

ابتأس دونيا (ومعناها في الأسبانية سيده ولكنها لا تترجم) ليونور زوجته ، لا لأن زوجها لا يعالج الا الفقراء ، ولكن لأنه كان يزاوِل هذا العمل رغم أنه من النبلاء الذين يستنكفون كسب قوتهم بالعمل . ولكن حاذيا تفعل أمام الأقواء الجائعة في الأسرة . لقد بذلت ما في وسعها لاختفاء الأمر . وحتى يدخل دون رودريجو السرور على قلب زوجته ، كان يغادر

بيته كل يوم متخفيا وقد تدثر بزى النبلاء الأسود ، مغطيا رأسه بقبعة ، وملتبغا بعباءة ، ومتمنطقا بسيف وهو يثق الأرض بقدميه شأن كل رجل نبيل . وكان لابد من تابع يسير وراءه حاملا ما يحتاج إليه . فصار خلفه رجل مهلهل الثياب حافى القدمين يحمل له حقيبته وأحيانا بعض الكتب . وما أن يقطع الشارع ويستدير بعيدا عن نظر زوجته حتى يعود الى طبيعته متخفيا من قيود النبالة حتى يبلغ شاطئ النهر حيث ينتظره مرضاه في أكواخهم وكهوفهم . كان دون رودريجو يبذل ما في طاقته لانقاذ مرضاه . ومن النادر أن يكون معهم بقود ليدفعوا له ، وكثيرا ما كانوا يعطونه قطعة من النجب أو دجاجة ميتة مقابل أتعابه فيتشهد مناو لا أياها لتابعه العارى القدمين ليحملها له . ثم يهرول الى الكوخ التالي .

وفي نفس الوقت كانت دونيا ليونور تكافح في البيت باذلة أقصى جهدها للتهوؤ بأعبائها ، وجعل المنزل له مظهره المحترم رغم ضيق ذات يدها . انها أصغر من دون رودريجو بكثير ، وهى الأخرى سلبية أسرة نبيلة ، ولم تكن تعاونها سوى فتاة صغيرة . ان مهمة زبة المنزل في تلك الأيام لم تكن سهلة ، فكل شئ يتم داخل البيوت لقلة ما كان يباع جاهزا في ذلك الوقت . ان السيدة النبيلة دونيا ليونور تصحو مع أول شيوخ الفجر ، وتستمر تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . فهى تطهو الطعام ، وتصنع الجعة ، وتقدد اللحم بالتدخين ، وتصنع الشموع وأوراق اللعب ، وتغزل وتنسج ، وتحيك الملابس وترتقها . وهى ترعى أربعة أطفال ، وأصبح ميجل يعرف كيف يعنى بمظهره .

كان أمرا طبيعيا أن دونيا ليونور عندما تخرج لحضور القداس في الصباح المبكر ، أن تضع لثاما على وجهها ، وتتدثر بالسواد شأنها شأن الملكة ، وذلك حتى تبدو بمظهر دونيا ليونور دى ثريانتس . السيدة النبيلة . وكان الناس يرونها كما ترى نفسها ، ولم يكن أحد يعلم فيما عدا القس ، حقيقة الحياة التى تحياها .

وهكذا نجد الصغير ميجل قد عاش منذ طفولته في عالم كانت الحقيقة فيه ذات وجهين . كانت هناك حقيقة والدته وهى في المطبخ تطعمه وتضحك معه اذا لم يكن التعب قد برح بها . ثم كانت حقيقة والدته وهى فى قاعة الاستقبال تشير له بيدها لتطرده خارجا كما لو كانت لا تعرفه . وعندما نما قليلا كان أحيانا يصحب والده فلا يراه صامتا أو مقاطعا ومعارضيا عندما يتحدث مع مرضاه ، بل يشاهده عطوفا رقيقا يؤدى عمله فى سرعة وحذق . ثم يتبدل الحال عندما يغادر دون رودريجو المرضى ويقرب من منزله . فيرى ميجل ملامح الغضب والقلق تعود لوجه والده وحتى وهو يسير شامخ الأنف بخطوات النبلاء .

ثم رزق والداه بشقيق جديد له يدعى خوان . وقد رأى دون رودريجو أن خمسة أطفال تستلزم الانتقال الى قطاع من المدينة أقل تكلفة . ففى حي

فقير يسير في ان ليطلع قناعه واصبح طبيباً من النجباء فيزيد دخله . ولكنه
قولاً في غارضة زوجته . في انبلاء لا يستطيعون العيش - وسط الأوقات
ليكون من من هب وبه في الديرة شاهداً على سنينهم مآلهم وتضعف
حسبهم . في ان ليطلع قناعه واصبح طبيباً من النجباء فيزيد دخله . ولكنه

مرت الأيام والشهور ، صمم بعدها دون رودريجو على وضع حد
لتلك الحياة المملوءة ادعاءً وفاقاً . وقرر في هذه المرة أن يغادر الكالا
كلية ، وأن يقيم المنزل . ولأنه لا يسد ديونه ، وإن ينتقلوا إلى مكان آخر
ليبدأوا حياة جديدة .

امسكت دونيا ليونور دموعها بعد أن أحسبت أن ذرفها لن يجد لها
شيئاً وهي ترى عزم زوجها الأكيد . لم يكن دون رودريجو يعلم أي نوع
من المستقبل كان ينتظره . شيئاً واحداً كان يعرفه . أن هذه الحياة في
الكالا مستحيلة ، وعليه أن يجد طريقة أفضل للقيم أو أسريته .

وسرعان ما بيع المنزل والأثاث ، واعتلى ميجل وسائر أفراد الأسرة
غربة كبيرة وقد غلت الدهشة وجوههم . لم يخلوا معهم سوى القليل من
المتاع ، وانطلقوا يجدون في البحث عن حياة جديدة .

مضى خمسون عاماً عندما أصبح الصغير ميجل ذا لحية رمادية
يجلس خلف المقصبان يدون كتاباً كان هيكله الرئيسي يدور حول مغامرات
رجل بعد أن غادر بيته دون أن يلوي على شيء ، وبلا هدف في راية اللهم
الا جوف مغامرة من مغامرات القروسية .

اننا لن نتعجل النتائج . . . ولكننا نرى أن دون ميجل عندما كتب دون
كيبوتي كانت لديه أسباب ليرسل ذلك السيد خارج بيته إلى الطريق . . .
فهناك جزء لا يتجزأ من دون ميجل وهو يجلس داخل السجن
في مدريد يكتب . . . كان من ذكريات السنوات العشر العجيبه التي بدأت
وهو في سن السابعة عندما خرجت أسرة ثرياً تفس كلها تهيم على وجهها .
وهي تجول فائقة شاردة في أسانها .

وبالها من فكرة خيالية لرجل له زوجة وخمسة أطفال . . . فذهبت
رودريجو كان طبيباً . . . والأطباء يحتاجهم الناس في كل مكان . . . فما الذي
يمنعه من أن يكون طبيباً رجالة يقطع الفيافي والقفار متنقلاً من مدينة إلى
أخرى لمعالجة كل من يحتاج إلى خدماته في أية بقعة من الأرض في جوف
الليل أو في رابعة النهار . . . إن هذا يعني أن الرجل أصبح لا يجد غضاضة
في أن يفعل أي شيء . . . من بيع الأرض البؤساء واقتلاع الأسنان . . . وتوليد
النساء ، ولما منع أيضاً من توليد الأبقار في بعض الأحيان . . . وعليه أن

يلقى بعضا الترحال فى ميدان السسوق بالبلدة جنباً الى جنب مع العجور وقارئى الطالع والعرائين فينصب خيمته أمام التجمعات والحشود .

حط دون رودريجو رحاله حيث أقرب مهرجان ٠٠ ففى تلك الأيام كان لكل مدينة مهرجان سنوى يستمر أسبوعاً احتفالاً بعيد قديس من القديسين ٠٠ ان الفلاحين يقطعون أميالاً عديدة قاصدين هذا المهرجان الذى يشهد اليه أيضاً التجار والباعة المتجولين من البلدان الأخرى ، والحجاج والعجور والجنود والمسافرين عبر الطريق طالما كان معهم ما يبيعه ٠ وبالتالى فمثل هذا المهرجان يجذب اليه من يبتغون الشراء ، أو أولئك الذين يندسدون مجرد اللهو والتسلية . وكان هذا اذن مكان مفضل لطبيب رحالة لينصب خيمته .

ولاريب ان هذا المكان خاب لب أطفال ثريانتس الاربعة عندما هبطوا من عربتهم لأول مرة ليجدوا أنفسهم وسط مزيد من الألوان والاشارة لم يعرفوا لها مثيلاً فى حياتهم من قبل ، عالم عجيب ٠٠ مدينة كبيرة من الخيام والمنشآت اقيمت حول البلدة ٠٠ أكواخ البضائع ٠٠ وعروض المسرحيات العرائس ، وأخرى لمسرحيات دينية مستمدة من الكتاب المقدس ٠٠ هذا غير الحبال المشدودة التى يرقص فوقها البهلوانات ، مشاهد ستعنى الكثير بالنسبة لميجل فى مستقبل حياته من جهة حبه للمسرح .

وى الصباح التالى اقام الوالد قاعدة وسط هذا الهرج والمرج وتلك الجلبة ووضع فوقها منضدة بجواره تحمل الأقراص والمراهم وكل ما يثبت أنه طبيب .

بدأ الناس يتوافدون على الطبيب ، فيعطى بعضهم أقراصاً ، بينما يصف للبعض الآخر علاجاً مغايراً ، وأخبر قليلاً من الذين فحصهم بكل أمانة أنهم ليسوا فى الواقع مريضى ، وأنه لا يلزمهم سوى يوم أو أكثر من الراحة . وسرعان ما ذاع صيته كطبيب جدير بكل ثقة .

وعندما أرى الليل سدوله عاد دون رودريجو بمحفظة مثقلة بالذهب التى لم تكن تخلو من بعض العملات الذهبية . كان سعيداً وبدأ يخطط للمستقبل ٠٠ فعندما يتجمع لديه مايكفيه من المال سيشتري حصاناً وعربة فيتنقلون بها من مدينة الى أخرى ، ومن مهرجان الى آخر . وتستطيع الأسرة أن تنام داخل العربة بينما يقيم هو قاعدة عمله خلفها ، وفى هذا اقتصاد فى التكليف ٠٠ وإذا ما واثاه الحظ كاليوم فربما استطاع شراء عربة فى نهاية الأسبوع عندما ينفض المهرجان .

وما جاء آخر الأسبوع حتى تحققت آمال دون رودريجو فاشترى عربة كبيرة وحصاناً فورياً جمبلاً . انفض المهرجان ومضت العربة بأسرة ثريانتس فى الطريق الى مهرجان جديد بمدينة أخرى .

وهكذا بدأت حياة التجوال الجديدة التي أصبح لها طابع خاص عجيب . ويبدو أن دونيا ليونور استطاعت بتدبير شئون البيت داخل عرية، أن تتخفف من التظاهر والتفاخر بما ليس عندها . أنها الآن فى الخلاء تطهو طعام الأسرة ، وترعى الرضيع ، وتنهر الأطفال الكبار ، وبدأت ترى الحياة كما لم ترها من قبل . شاهدت الناس سعداء ومحزونين ، ومثقلين بالعمل ومع ذلك ينشدون اللهو . ثم وجدت نفسها تحصل على مركز محترم كزوجة لطبيب وأم لخمسة أبناء ، وأقبلت عليها النساء يسألنها النصيح والارشاد . وهناك نقطة واحدة وقفت عندها موقفا صلبا لا يلين . لا يصح أن تتجول بناتها خلال المهرجان كما تفعل بنات مرتادى ذلك المهرجان . يجب أن تربي بناتها وتثقفا لقصيحا سيدتين ، وأن تحميها من العالم الخارجى ، ولم تكن عينها تغفل لحظة واحدة عنهما . ولكنهما لم تلبثا أن صارتا عبئا ثقيلا . فقد بدأت الفتاتان تتبرمان ، وأحيانا تنخرطان فى الكياء أو تجلسان متجهمتين عابستين ، وترفضان أن تمدا يد المساعدة الى أمهما . وما أن مرت بضعة أسابيع حتى وصلت دونيا ليونور الى قرار . فعندما قدمت أسرة ثريانتس الى مدينة يوجد على مقربة منها دير للراهبات ، ذهبت دونيا ليونور باندريا ومجدالينا الى رئيسة الدير لتكونا تحت رعايتها حتى تجدا التربية والثقافة والتعليم لشابيتين مثلهما . وودعتهما الى حين تجد الأسرة بيتا ثابتا مرة أخرى . وعادت الى زوجها، وإلى العربية ، وإلى الأبناء الثلاثة الباقين - وإلى الحياة الجديدة الغريبة القلقة .

وإذا ما كانت أسرة ثريانتس تمكث أكثر من أسبوعين فى مكان واحد ، واستمرت فى التنقل، والترحال فى طرق وعرة زاد من خطورتها للصوص وقطاع الطرق . الأمر الذى أدى بالعربات أن تسير معا مكونة قوافل كبرى . وانضم الى هذه القوافل كثير من عابرى السبيل والتساورسة والحجاج والرحالة والتجار ، ينشدون الأمن والحماية . وجد الصغيران رودريجو وميجل فى القافلة التى انضمت اليها أسرة ثريانتس شيئا مثيرا مثلما كانت المهرجانات والكرنفالات بالنسبة اليهما .

كان بعض المسافرين فى القافلة يمتطون صهوات الجياد ، والبعض يجلسون فى محفة معلقة بين جوادين ، وقلة منهم يركبون عربات فاخرة . وتمضى القافلة التى تشبه طارا طويلا فى الطرق الجبلية الملتوية ، وتارة تهبط الى الوديان العميقة ذات الجو البارد ، وتارة تصعد الى قمم السلاسل الجبلية تحت وهج الشمس . ولم يكن هناك مجال للتوقف ، ولا تستطيع أسرع العربات أن تتجاوز سرعة خطوات المشاة .

وهكذا رحلوا خلال المقاطعات الأسبانية . قشتالة . اكستريمادورا . ليون . بالنثيا حتى الأندلس جنوبا . وفى الطريق كانوا يمشون بقلع عجيبة . ولاشك أن رودريجو وميجل اللذان كانا يسيرا أحيانا بجوار

العربة ليخفها الحمل عن الحصان ، يحملقان صوب الأسوار والأبراج في دهشة من الحياة التي يعيشها أولئك الذين يقطنون خلفها . وكم اخترقت القافلة سهولا لا نهاية لها ترعى فيها الماشية ، ومروا من فوق السدود والجسور ، وهبطوا الى الينابيع في الوديان . لوحث الشمس والرياح والأترية وجهى رودريجو وميجل . وإذا جن الليل يتدثران بالأغطية الصوفية وينامان . وكثيرا ماكان الطعام لا يتعدى الخبز اليابس والتين المجفف ، والمياه المحفوظة في قرب من جلود الماعز التي اختلط مذاقها برائحة الأسطبل . وكان اليوم السعيد هو الذى تتوقف فيه القافلة عند أحد الأنهار للاستحمام وغسل الملابس .

أتاحت فترات التوقف في الطريق الفرصة للشقيقين رودريجو وميجل كي يقتربا من العربات ، ويتعرفا بغيرهما من المسافرين ، وتوجيه شتى الأسئلة اليهم . كانت فرصة قلما وجود بها الزمن للتعرف على كل صنوف ونماذج البشر من أعلى الطبقات الى أدناها . فكل الذين يسافرون مع القافلة يجتمعهم دافع الزمالة في أثناء الطريق حيث تتلاشى الفروق بين الطبقات ، غير أن هذه الزمالة كانت تنتهى عندما تصل الرحلة الى نهايتها .

وقد تحدث ميجل ، ووجه أسئلته لرجال الدين والفلاحين والتجار والرعاة والعظماء والضباط مكوّنا صورته عن العالم بما سمعه عن حياتهم . لم يكن رودريجو يابيه لهذه المحادثات وهذا الحوار مالم يكونا يتحدثان الى جندي فكان يرهف سمعه وتبرق عينيه عندئذ ويسرع بأسئلته ملاحقا ميجل . فذلك هي الحبة التي تناسبه كما كان يقول ذلك كثيرا . فذاك شيء له وزنه - مقاتلة المغاربة كجندي من جنود الملك . وكان ميجل يميل الى الموافقة على ذلك . أن رجل الدين يخدم الله ، ولكن الجندي يخدم الله والملك . الجندي شجاع في مجابهة المخاوف والمصاعب . الجندي رجل يعرف النظام والانضباط .

كان رجال الدين من المسافرين مع القافلة لديهم شيء خاص ليقدموه لميجل . فمعهم أكثر من غيرهم مفاتيح دنيا التعلم . وسرعان ما استطاع ميجل أن يتعلم القراءة والكتابة فكان يقرأ كل ما يعثر عليه ، وكانت أية قصاصة من ورقة مطبوعة بمثابة كنز يظفر به .

توالى الشهور ، وكانت الحياة في الطريق مقفمة بالاثارة والمغامرات بينما كانت المهرجانات متماثلة متشابهة . وكان على رودريجو وميجل مساعدة والدهما . أن رودريجو يقوم بالدور الأكبر فهو يخطو صوب الرجولة الآن إذ بلغ الخامسة عشر ثم السادسة عشر فالسابعة عشر . ولكن ميجل لم يكن خاملا . أن المرضى لا يستطيعون جميعا القدوم الى الطبيب فبعضهم كان طريق القرش ، وأصبح على ميجل أن يوزع الدواء وغير ذلك من المهام ، شاقا طريقه وسط هذا الحشد الهائل من الخيام

والنصب المتشابهة ، يعاونه جسده النحيل في أن يدفع نفسه وسط هذه الكتل المترابطة من البشر ؛ وكانت الأم أيضا تنادي ميكل ليرعى شقيقه خوان وأخته الطفلة التي ولدت في أثناء الطريق .

هاهي ذي الشهور والأعوام تمضي وعربة أسيرة ثريانتس تذرع طرقات أسبانيا . لقد نما ميكل واشتد عوده وطالت قامته . وأتيحت له حتى الآن رؤية كثير من المدن ، فقد ذهب إلى ثاراجوثا ، أبيللا ، كاثيريس ، بوجوس ، بالانثيا ، مالاجا ، أشبيلية وسائر المدن الكبرى .

وفي العام الذي بلغ فيه ميكل الثانية عشرة من عمره ، أصيبت أسيرة ثريانتس بضربتين قاصمتين غيرت جو رحلاتهم وأسفارهم برمته . جاءت الضربة الأولى عندما مرض الأخ الأصغر والشقيقة الصغرى . وقد بذل دون رودريجو كل مهارته كطبيب في علاجهما ، وسهرت دونيا ليونور أثناء الليل وأطراف النهار بجوار فراشهما داخل العربة . وذهب كل ذلك الطب والتمريض أدراج الرياح . إذ حم القضاء وقارق الصغيران واحدا اثر الآخر تلك الحياة الخشنة المملوءة بالضجيج . وشاهدت دونيا ليونور فلذتي سبدهما يواران الثرى في المقبرة الصغيرة بالمدينة التي تصادف وجودهم بها في ذلك الوقت . ثم عادت لتجلس في صمت وقد جفت الدموع في مآقيدها .

أتت الضربة الثانية بعد بضعة أشهر ، فبينما كان الأربعة في رحلاتهم فر رودريجو على حين غرة ، وهجر أسرته . لم يدهش ميكل كثيرا عندما عثر والداه على الرسالة التي تركها رودريجو ، فقد كان يعلم أن أخاه في السنة الأخيرة برح به القلق الذي كان يتزايد يوما بعد يوم . فرودريجو نما وأصبح الآن رجلا ، وحياة القافلة لا تقدم له الا القليل . أن المساعدة التي كان يقدمها لوالده لم تكن لترضى رجلا قويا طموحا مثله . وميكل يستطيع أن يضطلع بدوره في سهولة ويسر . ولطالما تاق رودريجو إلى الحياة العسكرية . وهكذا اختفى ذات يوم ليقيد نفسه في سجل المتطوعين للخدمة العسكرية تاركا رسالة يودع فيها أسرته .

لم يلم ميكل أخاه رودريجو ، والتمس له العذر فقد خلق للجيش ، وأصبح ميكل الطفل الوحيد في العربة ، وحاول أن يقنع نفسه بأنه يعيش أيضا حياة عسكرية . فالقافلة في غدوها ورواحها وتوقفها لها نظمها وأوامرها الشبيهة بالنظم والأوامر العسكرية . كان رحيلها وسيرا لا ينتهي يوما وراء يوم . والعربة قلدت طوال تلك السنين نصف طرقات أسبانيا المتربة . وسار ميكل مشية جندي ، وكان عليه أن يتحمل أى طقس ، وأن يقنع بما يصديه من طعام جيد أو هزيل ، كما كانت مباحج الحياة وما يؤديه من واجبات تمتزج بطريقة عشوائية . وكان ميكل يتعلم أيضا في مدرسة الحياة . فالطريق بمثابة الجامعة بالنسبة إليه . وهاهوذا يتعلم اللاتينية من الزهبان والقساوسة الذين كان يتحدث معهم في أثناء السير ، كما ألم

بقليل من الرياضيات • وتعلم من بعض المسافرين كيف يعرف الوقت ليلا من أوضاع النجوم • وقد أعادوه كتباً لمؤلفين من الإغريق ، وكانت في ذلك الوقت من المؤلفات المتنوعة • كما قرأ أيضا بعضا من فلسفة أرسطو التي كانت مباحة ، وبذل جهدا كبيرا في قراءة كتابات القديس توما الأكويني •

أمعن ميجل النظر ، وفكر فيما قرأه ، وراح يسأل الرهبان والقساوسة الذين أعاروه كتبهم ، ويستوضحونهم الرأي في كثير من الموضوعات ، ومن ثم كان يحاول أن يحصل أن يكون رأيه الخاص في كل موضوع من الموضوعات التي يقرأها ، وكان يلاحظ أن بعض الرهبان يقرأون الكتب من أجل التسلية ، ويقرأون ما يقرأون من أجل أن يعرفوا ما كان عليه الناس في الماضي ، ولكن ميجل الكليل سعى لتطبيقه في التماس الحقيقة ، اليأس والموت • ولكنه رأى أيضا كثيرا من الحب والسرور والابتهاج ، الحنان والضحك • وظل يرحل لوقت طويل حتى بدا له أن الحياة كلها عبارة عن قافلة تسير وتسير ثم تتغير وتنفرد وتتشتت ولكنها على الدوام في تلك أن تتجدد وتتجمع مرة أخرى لتعبر ثانية • وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء ثابت اللهم إلا شكل الهيئته القافلة وفوقها السماء والنجوم • فهل كان ذلك كافيا لتكوين فلسفة للحياة ؟ هن الرهبان رعوهم ، ولكنهم كانوا يتقسمون للصبي المتحمس الذي يقدح زناد فكره ، ويمتلك عقلا شغوف بالبحث وقلبا صادقا • لا شك أنه سكتشف طريقة في يوم ما إلى معان أكثر عمقا •

الزمن يمضي ، وبدأ ميجل يتعب من حياة الطريق رغم الكثير والأحاديث • وحتى المهرجانات نفسها لم يكن يسجده فيها سوى المسرحيات وعروض العرائس • أما ما عداها فقد بدت له زخارف وأشياء قديمة من سقط المتاع • بدأ يعلم أن الأمانكا واجتماعها الكبرى هناك ، وبدأ الكليل المصفوفة فوق الأرفف بدلا من الاعتماد على ما يختاره له رفقاء السفر كل حسب مزاجه الخاص • وهو يحلم بالاستقرار في مكان واحد ، وأن يواصل الليل بالنهار ليتعلم الطريقة الخاصة الحقيقية في آخر الأمر •

ولما بلغ ميجل الأسبعة عشرة من عمره ، بدأ نوع زواريجو يصيبه التعب والنصب من حياة السفر والترحال • انتهى الرجل إلى النقود التي جمعها في السنوات العشر الأخيرة • وأخذ يخصصها فوجد أنها أصبحت لا بأس بها • وفأخذ يبيعها ليوفر المال الذي أصبح يحتاجه في لقاء بعض الترحال والاستقرار مرة أخرى في إحدى المدن • ووقع الاختيار على مدينة التي انتقل إليها الملك وحاشيته ، والتي يقولون عنها أنها أصبحت أكبر من باليادوليد ، وأصبحت طرقها جميعا مرسوفة ، ويبيعونها كبيرة ، ويبنونها ممتدة • وأبها مباني شامخة ، وهناك يجد الطبيب فرصة كبيرة •

وفي عام ١٥٦٦ عندما كان ميجل يبلغ من العمر تسعة عشر عاما لوت أسرة فرنانس عثمان جوانها فأتته بالعزبة في طريق مدينته وهناك ودعوا حياة السفر في الحال التي عاشوها طويلا ليصفوا مرة أخرى من سكان المدن •

ميجل في روما

مع انتقال الملك الى مدريد ، تحولت البلدة الى مدينة ، غير أن إقامة المباني لم يكن بالسرعة التي تفي بالمطلوب ، الأمر الذي جعل أسرة ثريانتس تقطن في أحد المساكن بصفة مؤقتة انتظارا لشراء منزل خاص بهم ، رغم أنهم كانوا يملكون النقود التي تمكنهم من شرائه .

كانت المدينة محاطة بالصحراء - سهل مرتفع لا ينمو به شيء من الوجهة العملية . وهناك في الأفق البعيد صوب الشمال الشرقي تقف سلسلة واسعة من الجبال الشاهقة التي تعوق السحب المطيرة وتصددها فتجعل الجفاف يكتنف مدريد . وفي النهار تكون الرياح ساخنة ، بينما تهب درجة الحرارة ليلا فيصبح الجو قارصا .

ياله من مكان غريب ليختاره الملك فيليب الثاني كعاصمة للملكة . فبماعداد شيء واحد . فمدريد تنوسط اسبانيا تماما ، وتخترقها الطرق من أقصى أطراف الدولة الى الأطراف المقابلة لها . ويستطيع هذا الملك المتعصب الدؤوب على العمل وهو جالس في مركز مملكته ، أن يناقش العنكبوت وهو يعمل منهمكا في مركز بيته الذي نسجه ، فيجذب خيطا في أي اتجاه ليسحب الى جواره من يريد . كان ميجل فتى في عصر يحكم فيه الملوك بالحق الالهي .

وأخيرا تم بناء منزل ثريانتس فانتقلت اليه الأسرة . واستفاد دون رودريجو من أخطائه القديمة في الكالا فلم يضيع وقتا في الاستيطان بين جيرانه كطبيب ، وسرعان ما اكتسب بعض الزبائن والعملاء .

ان قبول دونيا ليونور للحياة كما كانت طيلة سنوات السفر والترحال قد زایلها كما لو كان ذلك تخفيا وتنكرا . وهاهي ذی قد عادت الى ماتعتبره الآن العالم الحقيقي ، ذلك العالم الذي يعنى كل شيء بالنسبة اليها . . والذي أصبحت فيه دونيا ليونور دى ثريانتس سابيرا .

وكسيدة وربة منزل مرة أخرى ، أرسلت مسرعة الى دير الراهبات تطلب عودة ابنتيها الى البيت ، فوصلتا بعد بضعة أسابيع قلائل .

لم يكن ميجل قد رآهما منذ عشر سنوات عندما كانت آنديرا فتاة خرقاء قليلة الخبرة في الثالثة عشرة من عمرها ، بينما كانت ماجدالينا صبية في العاشرة . وهاهي ذا يقابل شقيقتيه كشابتين غريبتين احداهما في الثالثة والعشرين والاخرى في العشرين . ولطالما ود أن يجتمع شمل الأسرة .

وجد ميغل . في الشهور الأخيرة التي قضاها مع الأسرة راحلا عبر الطريق ، فرصة للدراسة الجادة لتحسين تعليمه . وكان العيب الأكبر في مدرّس عدم وجود جامعة بها . وفي أول تجواله بالمدينة عثر على جماعة من الرجال أثروا فيه أيما تأثير . لقد وجدهم في أول الأمر داخل بعض الحانات الصغيرة التي يباع فيها أنواع رخيصة من النبيذ ، أو في تلك الأماكن الصغيرة الجديدة التي وجد فيها ميغل شرابا أجنبيا غريبا . حيث تقدم الشيكولاته بالطريقة المكسيكية بعد تخميرها وخضها حتى يعلوها الزبد والفقاعات ، وتبذل بالفلفل الذي ينثر فوقها .

اغتنت ميغل بالشراب ، ولكن افنتانه كان أشد بأولئك الرجال الذين وجدهم يجاسون حول المناضد الصغيرة ساعة وراء ساعة يرشقون شراب الشيكولاتة وهم يتحدثون عن كل شيء تحت الشمس . كانوا جميعا من أصحاب العقول الراجحة . البعض من الكتاب ، والبعض من الدارسين ، والبعض الآخر ممن لهم صانة بالمسرح ، ولكنهم جميعا كانوا متشابهين في سلوكهم مليسهم ، كما لو كانوا كلهم أعضاء زمرة عجيبة من رجال الكهنوت أو الاكليروس أو أفراد جماعة سرية من الأخوة . أن ملابسهم متواضعة بل رثة بالية ، الا أنهم يرتدون عباءاتهم وأغطية رؤوسهم بميل معين لا يخطيء ملاحظته أحد . وقد البعض منهم عادات الرهبان ليتخذوا سمة الرجال المتعمقين في العلم . وعنوا جميعا بنشذيب لحاهم ، واستعمال أيديهم في اشارات وإيماءات تنطق بالفصاحة والبلاغة .

ظل ميغل يرافهم ورويدا رويدا تعرف اليهم ، ولاحظ أن معظمهم كانت تعنوه القذارة رغم سلوكهم وآدابهم الاجتماعية . ولكنه لم يهتم لذلك طالما قبلوه وجعلوه يشاركونهم أحاديثهم وحكماتهم .

وهو لم يكن في الواقع بحاجة الى قبولهم له . فهؤلاء العقلاء وذوي العقول الراجحة من أبناء مدرّس ، الذين كانوا يتخيلون أنفسهم المحررين الرئيسى والعمود الفقري للثقافة الأوروبية ، قد حل بهم التعب والارهاق المميت من طول رفع عقيرتهم بالصياح وهم يرددون نفس الآراء والازدراء لما عداهم . وكانت تعقبات وشروح ميغل وتفسيراته فيما بعد ترجع الى تلك الأفكار الأولى الجديدة لهذه الجماعة ، والتي كان لها تأثيرها في تكوين ميغل في شبابه . لقد استعرضوا علمهم أمامه وشجعوه كي يقتفى أثرهم ، وأنبرى كتاب المسرح منهم يقرأون له مسرحياتهم التي كانت أعمالا بهرته وأثرت فيه . وقد حثه الشعراء منهم ليحاول الانتاج في ميدان الشعر ، وأنشروا على مجهوداته فيه .

كان ذلك شيئا مثيرا يتسم بالعناد والطيش والتهور والجموح ، ولكن لفترة ، ان سرعان ما انتاب ميغل التعب من تصلب أصحاب العقول الراجحة ، وتعصب وعدم تسامح كل من ينتمى الى جماعتهم ، الأمر الذي شبط عزمه ، وجعله يشعر بالاحباط . ان لم يتنازل أى رجل منهم ليصبح

صديقنا حقيفيا في غير كلفة ولا تصنع . غير أن هذه الجماعة قد أدت اليه صديدا واحدا لا غير . فقد أجبرته على أدراك مدى ضالة ما حصله من العلم الانتايرى الشكلى . انه يدرك الآن أنه لا يعرف اللاتينية اللهم الا نوعا من اللاتينية الدارجة . كما أدرك أيضا أنه ليست لديه الا معرفة ضبابية مبهمة بأساطير الكلاسيكية وكتايبها . ولكن كيف يحصل على العلم الذى يتوق اليه في مدينة تنفتقر الى جامعة ؟ نعم ميجل النظر وتمعن وتروى وفكر وتدير وراح يلقي بأسئلته هنا وهناك ، حتى عثر أخيرا على ما بدا له الاجابة المبتودة .

كان هناك أستاذان في مدريد، يقيم عنده التلاميذ كنزلاء بالأجر . وهما يساعدهم في دراساتهم مقابل خدماتهم في أعمال السكرنارية وشئون المنزل . ونوجه ميجل في شوق لرؤية هذا الرجل الذى يدعى الأستاذ خوان لويث دى أويوس . فوجده حلو الحديث يحب قدامى الشعراء ، ويحلم بترجمة الكلاسيكيات الصغيرة الى لغة أسبانية رقيقة . ورحب الأستاذ أويوس بميجل وخبره أنه يسعه أن يكون مؤدبا له يتولى أمر تعليمه اللغة اللاتينية وغيرها من الدراسات الأخرى اذا قبل الالتحاق بمنزله كفاملو (فاملو اصطلاح بمعنى أنه سيكون واحدا من أفراد الأسرة ، وفي نفس الوقت سيكون خادما لها) .

جد ميجل فى تعلم اللاتينية عند الأستاذ دى أويوس ، ولم يجد سوى القليل من الوقت ليقابل معارفه القدامى من أصحاب العقول الراجحة بالمقاهى . ومع كل فقد التقى بهم بعد أن انخرطت المدينة بأكملها فى البكاء على الملكة الشاببة ايزابيل دى فالوا زوجة الملك فيليب .

جلس أصدقاء ميجل حول الموائد فى المقاهى ، وقد سيطر الوجرم على وجوههم منكبون على قصاصات من الورق يدونون بها بين الفينة والفينة أشعارا وبعض الأعمال الأدبية الأخرى يمدحون بها الملكة الراحلة كما أخبروه . وأظهروا لميجل استعدادهم لأن يحملوا الى الناشر مع أعمالهم ما تجود به قريحته من قريض .

أسرع ميجل عائدا الى الأستاذ منفعلا بفكرة ظهور كلماته مطبوعة . لقد أنتج ست قصائد . وعندما حملها لمن نصحوه بالمقاهى حازت قبولهم بشئ من التحفظ . وهامهم أولاء يقطبون جبينهم وهم يقرءونها ، وأبدوا عدة نقاط من النقد عليها . وأرسلت معظمها مع المجموعة الى المطبعة ، وقيل أن ينقضى العام شاهدت مدريد اسم ميجل دى ثريانتس مطبوعا لأول مرة . وكانت لحظة مثيرة تاتها أحداث أخرى لفقت أنظار ميجل نحو أشياء أكثر إثارة .

حدثت وفاة أخرى فى العائلة المالكة . فبعد مرور بضعة شهور من انتقال الملكة ايزابيل دى فالوا الى العالم الآخر، مات دون كارلوس ابن الملك

فيليب • عم الحزن مدريد وأهـ بانيا كلها ، وامتد الحزن الى أوروبا الغربية
بأجمعها • ووجد البابا في روما أن خطاب تعزية لا يكفي في مثل هذه
المناساة المزدوجة ، وقرر ارسال مبعوث شخصي الى الملك فيليب • ووقع
اختيار البابا بيو الخامس على المونسنيور جوليو أكوايفا ليكون رسوله
الى الملك ليحمل تعزيته اليه وتجرأ محادثات هامة • ولو أن المونسنيور
أكوايفا كان شابا في السادسة والعشرين ، الا أنه كان واعدا ، ويرجى
منه الكثير ، وتوقع له الجميع أن يصبح كاردينالا في السنين القلائل
القادمة • وهو ينحدر من أسرة ايطالية - اسبانية أرستوقراطية عريقة ،
وكان على اتصال بكل شخص من ذوي النفوذ في ايطاليا ، كما كان يساعد
الايمن للبابا • هذا بجانب شهرته كشاب ساحر جذاب •

وبعد أن مكث المونسنيور عدة اسابيع في مدريد ، هزل الأستاذ دي
أريوس ذات يوم عائدا الى منزله حاملا أنباء سارة الى ميغل فقد سمع
من أحد زملائه في المدينة أن المونسنيور أكوايفا يبحث عن شباب يجيد
اللغتين الاسبانية واللاتينية ليعينه سكرتيرا له • ولما كان الأستاذ دي
أريوس فخورا بالتقدم الذي أحرزته ميغل على يديه ، فقد رشح تلميذه النجيب
ليعمل مع المونسنيور •

وأخيرا تأهب أكوايفا للرحيل وفي أواخر عام ١٥٦٩ غادر ميغل
مدريد متجها صوب شاطئ البحر ليعصد فوق ظهر إحدى السفن ميمسا
شطر نابولي •

ورغم ذلك الاستهلال المنسج في عالم الأدب بنشر بعض أشعار ميغل
كما ذكرنا ، فان هذا لم يمنع الشاعر الشاب من مغادرة مدريد لبدا حياة
المغامرة فيما وراء البحار • ولم يتضح سبب هذا الرحيل المفاجئ •
فالسجلات القومية تحتفظ بوثيقة تبدأ بالكلمات الآتية : « أمر الى رجال
العسس بأحضار ديجل دي ثروانتس حالا دون تأخير بسبب إحدى
الجرائم » • ترى ماذا اقترف هذا المدعو ثروانتس حتى استحق كل هذه
العجلة • ان الوثيقة تبين أنه أصاب خلال مبارزة في مدريد شخصا يدعى
أنطونيو دي سيجورا بضربة سيف ، وأن المتهم يستحق قطع يده • وقد
أدت هذه الوثيقة الى تكون فريقين في منتصف القرن الماضي أحدهما يدافع
عن الكاذب والآخر يصلح عليه سيف الاتهام • وكانت حجة المدافعين عن
ميغل أنه لم يقترب أثما لأن العلامة الموجودة تحت الحرف سى تحولت الى
الحرف زد مما يغير من اسم المتهم ويبعد الشبهة عن ثريانتس • وكانت
الحجة الثانية حجة زمنية إذ كيف أمكن للكاتب في نفس هذه السنة
- ١٥٦٩ والوثيقة مؤرخة في شهر سبتمبر - أن يتوجه بكل هدوء الى روما
في ركاب رجل شهير كأكوايفا بينما الشرطية تطارده • كما أنهم
يستشهدون بالأشعار التي كتبها ثريانتس عن ايزابيل دي فالوا في شهر
نوفمبر عام ١٥٦٨ بمدريد • أن يبدون دهشتهم من أنه في فترة وجيزة
لا تتعدى عشرة شهور يقترب بطلم جريمته ويحاكم ويصدر ضده الحكم

السابق رغم أنف البطء الذى اتسمت به البيروقراطية في ذلك العهد .
والحجة الأخيرة وهى لا تقل أهمية عن الحجج السالفة : كيف استطاع
ميجل مع سابقته القضائية هذه أن يطلب ، عن طريق والده ، شهادة
النبالة التى قدمها الى أكوافيلا ؟

ولكن المعركة لم تنته فهناك نقاط جديرة بالمناقشة . . الحكم الصادر
منشأ المبارزة ، شخصية الخصم . وقد نزل لويس آسترازا مارين بثقل
مؤلفه عن ثريانتس بمجلداته السبعة فرجع كفة الاتهام ، إذ أن هناك
قصيدة في ديوان ثريانتس الشعري « رحلة الى بارناسو » بعنوان « حماقة
الشباب » يعترف فيها بأنها تستوجب الأسف مما يحمل على الظن بأنه ربما
لم يكن غريبا على مثله أن يرتكب تلك الجريمة .

ومهما كان من أمر سواء اكان ثريانتس مهاجرا أو مرغما ناجيا
بجلده ، فانه عاش فعلا في روما اعتبارا من سبتمبر عام ١٥٦٩ عندما
وصل اليها وتوجه الى مكان الإقامة في الفاتيكان . . ذلك الجزء من روما
الذى شيد فوق تل منفصل ، وفيه قصر البابا والمباني الخاصة بالعاملين
في إدارة الكنيسة .

كانت روما أكثر من مدينة . . فكرة ، رمزا لقوة روحية ، وإدراكا
غير مادي للعظمة والجلال .

شاهد ميجل الكنائس في المدينة الأزلية ، كما قرأ هوراس وفرجيلي
وروايات الفروسية فقرأ بشغف مغامرات أماديس ولانسيلوت وأورلاندو
الغاضب ، وقرأ لكتاب ايطاليا محتكا بالحضارة الإيطالية .

ثم جاءت الأنباء بغزو السلطان سليم الثاني لجزيرة قبرص .

كانت ايطاليا في ذلك الوقت مقسمة الى ولايات متناحرة ، وكان
كثير منها خاضعا للحكم الأسباني ، وكذلك جزيرة صقلية وسردينيا .

ولما لم يكن للولايات الإيطالية جيوش نظامية ، إذ كانت تعتمد في
حروبها فيما بينها على الجنود المرتزقة ، تخلت عن كبريائها وطلبت العون
من أسبانيا .

داعب ميجل حلم الطفولة في الانضمام للجيش ، فأسرع الى أكوافيلا
يلتمس السماح له بتسجيل اسمه في قائمة المتطوعين للخدمة العسكرية
. . فوافق بعد تردد .

غادر ميجل روما الى نابولي حيث كانت الفرق العسكرية الأسبانية
تتجمع هناك . سرى الحماس في دمائه إذ جاءت اللحظة التى تحقق فيها

حلّمه بالانخراط في سلك الجندية • فهل ضاق الشاعر ثريانتس ذرعاً بحياته الجديدة كخادم ووصيف وكاتم أسرار بالبلاط البابوي • هل اختار مهنة السلاح أو أن الجهاد المقدس هو الذي دفعه الى ذلك • ربما كانت المغامرة هي التي دفعت صاحبنا المتعطش للحياة والمحِب للاستطلاع الى هذه الحياة الجديدة •

وعندما بلغ نابولي قدم خطابات التوصية ، وكان الاستعداد للحرب قائماً على قدم وساق في الميناء • والتحق ميغل بفرقة الكابتن مندوثا •

- ٣ -

ميغل في معركة ليبانتو

تكونت فرق من الاسبان والايطاليين والسويسريين والالمان وخليط بابلي من مختلف الجنسيات • الا أنه كانت هناك لغة مشتركة بينهم هي تبادل السباب واللكمات ، واحتراس الخمر ، ولعب الميسر •

وحان اليوم الذي أبحرت فيه الفرق فوق ظهور السفن من نابولي الى مكان التجمع في مسينا بجزيرة صقلية • كان ميغل ضمن قوات السفينة الاسبانية « الماركيزا » تحت أمرة الجنرال فيجويروا الذي عرّكته الحروب •

تحركت « الماركيزا » الى خليج مسينا حيث ألقت أكثر من مائتي سفينة مراسيها هناك • بقي البحارة في انتظار تعيين القائد الأعلى الذي كان من الصعب العثور على من يشغل هذا المنصب بحيث توافق عليه مختلف الجنسيات • قالقائد اذا اختير من جنوا فسيكون ذلك اهانة لجنود فينيسيا • وهم الذين ظلوا يتحاربون عبر قرون عدة • واذا اختير من روما فلن يقبله الاسبان ، والاسباني لن يستسيغه الايطاليون الذين يضايقهم الوجود الاسباني في بلادهم • وأخيراً بعد طول تردد وقع الاختيار على دون خوان النمساوي • أخ غير شرعي لملك اسبانيا ، وهو مع ذلك ليس اسبانيا ولا يمت الى أي من الأمم المتحاربة • انه وملك اسبانيا من أبناء الامبراطور شارل الخامس الذي كان عاهلاً للامبراطورية الايطالية بالإضافة الى أنه كان ملكاً على اسبانيا أيضاً • وقد لقبوه بالمتهور الجريء لما ارتكبه من مذابح في الحملات التآديبية •

تجمع أسطول ضخم يضم مالا يقل عن ثلاثمائة سفينة بلغ عدده مقاتليها سبعين ألفا من الرماة السويسريين ، والفرسان الألمان ، وجنود المدفعية من فرنسا وإسبانيا . وكانت القوة البحرية التركية مكونة من ٢٤٠ سفينة شراعية كبيرة من ذات المجاذيف ، وستين سفينة من الحجم الأصغر . وكان القائد الأعلى هو مؤذن زاده على .

وصل دون خوان الى مسينا ، وصعد الى سفينته ، وتحرك الأسطول عبر البحر الأدرياتيكي ، التقي الأسطولان في أضيق مكان بالخليج لم يكن عرضه يزيد عن ميلين بجوار قلعة ليبانتو . . . وفجأة زمحرت المدافع في السابع من أكتوبر عام ١٥٧١ بعد الظهر بوقت قصير . كان ميغل ساعنن ممددا في فراشه داخل السفينة « الماركيزا » مريضا بالحمى تجتاحه موجات من ارتفاع درجة حرارته وانخفاضها فيحس بالقشعريرة .

اشتدت القذائف وارتفعت الصيحات ، وتصاعد ستار من الدخان الأسود الكثيف يلف السفين . لقد بدأ القتال وحاول ميغل أن ينهض ليشترك في المعركة مع زملائه الذين سمع وقع أقدامهم وهم يهرولون الى سطح السفينة . حاول النهوض ولكنه شعر بدوامة من الدوار فسقط في فراشه عاجزا يائسا . التحم الأسطولان في معركة حامية الوطيس ، وسمعت أصوات تحطم الأخشاب وتكسر المجاذيف ، وتبادل المقاتلون القفز كل الى سفن الفريق الآخر ، فتصاعدت أصوات الاصطدام بينهما ، وجلبة الكلابات والخطاطيف الحديدية ، وقعقة السلاح ، وصليل السيوف .

أيقن ميغل أن الأتراك هاجموا سطح سفينة الماركيزا ، فأسرع يضع خوذته فوق رأسه دون أن يعلم كيف فعل ذلك ، وألقى بنفسه من فوق الفراش ، وامتدت يده الى سيفه ولم يضيع وقته في ارتداء دروعه ، بل هروا متعثرا وهو يلهث صاعدا الى السطح . وهناك اندمج كابوس الحمى مع كابوس الواقع . كان سطح السفينة مسرحا لعراك عنيف بين رفاقه والجنود الأتراك الذين اشتبكوا معا بالأيدي . تدرجت بينهم كتل الدخان كالأموج المتلاطمة فكانت لأبخرتها تأثير خائف في رثتي ميغل . ووسط هذا الضجيج والعجيج سمع صوتا يعرقه : « خذ اثنا عشر رجلا في القارب الملحق بالسفينة وحطموا خطاطيفهم وكلاتهم الحديدية ! » .

وقف ميغل يترنح وهو يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة باحثا عن يستدعيه من الرجال ليرافقوه لتنفيذ الأمر الصادر اليه . وما أن شرع في التنفيذ حتى صعقه ألم مبرح هزه يعنف وجعله يدور حول نفسه . وعندما أفاق من الصدمة ، أمسك بذراعه ونظر الى أسفل فرأى يده قد تحولت الى كتلة مختلطة من اللحم واللحم . لم يوقفه هذا عن اتمام ما عهد به اليه واستمات مع رفاقه لتنفيذ أوامر الكابتن . بل واستطاعت سفينته أن تستولى على إحدى سفن الأعداء وتنزل علمها .

وهناك وصف عجيب لمعركة ليبانتو ظهر في مدريد عام ١٨٥٣ حيث قام المؤلف، جيتان روزيل بالبحث في الوثائق والسجلات والبيانات العسكرية المودعة بدور المحفوظات في فينيسيا وسيمانكا ولندن ، وفيما يلي ما جاء في إحدى هذه الوثائق الرسمية :

« عثر الجاويشان ماتيو دي سان - استبان وجابرييل دي كاستانييدا على ثريانتس مريضا في قمرته بالسفينة . وقد قدما فيما بعد شهادة عن تصرفه إبان المعركة . نهض ثريانتس من فراشه . وأكد الجاويشان أنه رغم القشعريرة التي انتابتها بتأثير الحمى وجعلته يرتجف إلا أنه توسل الى رئيسه الكابتن سان يدرى ليضعه في أشد المواقع خطورة . وكنا نبقى أن نثنيه عن عزمه ، وأن نقنعه بأن يخلد الى الراحة ويركن الى الهدوء ولكنه أخذ يردد :أيها السادة ، ماذا يقولون عن ميغل دي ثريانتس ؟ مامن فرصة أتاحتها لي الحرب الا واغتنمتها لخدمة مليكي ، وهذا ما فعلته دائما كجندى مخلص . واني أثق الآن للتأدية واجبي رغم أنف المرض والحمى ! . وقد حملناه أوامر القيادة العسكرية بالهبوط مع اثني عشر رجلا الى أحد القوارب ، وقد قذف بنفسه في العراك الرهيب الذي كان دائرا حيث اشتبك مع الأعداء في جراءة وجسارة وحماس ، وأصيب بجرحين في صدره . وقد وقع الكابتن الذي يعمل ميغل تحت أمرته صريعا بالقرب منه . . . » . وكان لثريانتس نصيبا في هذه الوثيقة فقد كتب : « لقد فقدت استعمال يدي اليسرى كلية فأسبغت شرفا على يدي اليمنى » .

استمر الاشتباك في هذه المعركة الفاصلة ، واحترقت كثير من السفن، ومات المئات غرقا .

ومن الواضح أن ميغل دي ثريانتس عندما كتب روايته دون كيخوتي فيما بعد كان متأثرا بما فعله في المعركة وتنفيذه لأوامر قائده قنراه في الرواية يقول على لسان دون كيخوتي :

« ان الجندي الذي يفتن ما يامر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائد الذي أمر » .

كذلك نرى ذكرى المعارك بين أسبانيا والأتراك قد أثرت في ميغل وهو يكتب فقد ذكر على لسان دون كيخوتي الحرب الناشبة بين الجيش الذي يقوده علي قنقارون حاكم جزيرة سرنديب وجيش عدوه بنتابولين ملك القرمانيين (وهم شعب في وسط أفريقيا كما ذكر بعض الشراح) .

انتهت معركة ليبانتو بهزيمة ساحقة للأتراك لم يحلم بها أحد . فقد خسر العثمانيون في هذه المعركة الكبرى ٢٦٠ سفينة منها ٩٤ غرقت أو احترقت أو تحطمت عند الشاطئ ، بينما أسرت السفن الباقية وقسمت بين الحلفاء . وبلغ عدد قتلى العثمانيين ثلاثة آلاف ، وأطلق سراح ١٥٠٠٠ أسير أوروبي من رقيق السفن الذين كانوا يجذفون داخل سفن الأسطول

العثماني . وخسر الحلفاء الأوروبيون خمس عشرة سفينة وثمانية آلاف رجلا ، وضمت قوائم القتلى والجرحى في ذلك اليوم أسماء كثير من الأمراء والنبلاء . ولكن الذي يهزنا هو اسم ميغل دي ثريانتس (مؤلف دون كيخوتي فيما بعد) الذي كان يرقد في جوف السفينة بين غيره من الجرحى فاذا به يسمع صدى خافتا لآلاف الحناجر تردد الأناشيد فرحا بالنصر . ولكنه ظل أياما طويلة لا يدرك شيئا غير الألم .

اضرمت النيران فوق قمم الجبال تزدحمت أخبار النصر الى أوروبا ، وانطلقت الأجراس تجلجل في مدن إيطاليا وإسبانيا .

عانى ميغل آلاما مبرحة وهو يرقد وسط أنين الجرحى وحشرجتهم . كان يسترد وعيه في بعض الفترات فرأى شبح أحد الرهبان وهو يتنقل وسط الظلمة ، وينحني فوق الأجساد الممددة ، وعندما جاء دوره انثنى الراهب ناحيته ليطمئن على تضميد جرحه .

ورغم ما حاق بالأتراك من هزيمة بحرية ، إلا أن ذلك لم يحطمهم . فقد كانوا أمة من الفرسان استطاعت في غزواتها أن تقترب من قبينا . لقد وسعوا مملكتهم في إفريقيا بامتدت على طول الساحل من مصر حتى عراكش . وذهبوا يغزون الشرق حتى كبحت الحشود الهندية جماجمهم ، لم يتركوا مكانا يمكن أن تحملهم اليه الجياد . بيد أن الخبرة كانت تعوزهم في المعارك البحرية ، لذلك انهزموا في موقعة ليبانتو .

استعرض دون خوان النمساوي القوات العسكرية بمناسبة النصر ، وزار الجرحى وهنا ميغل على حسن تصرفه ، وأنه أبلى بلاء حسنا في المعركة ، وكافاه بزيادة مرتبه الشهري .

أقلع الأسطول في اليوم العشرين بعد المعركة . وبإلها من أيام لاقى فيها ميغل عذابا اليم . فقد اكتظ جانب السفينة المخصص كمستشفى بالجرحى الذين تجاوز عددهم المائة في مكان لا يتسع لأكثر من ثلاثين وقد تصاعدت رائحة الدم المتعفن والجروح المتقيحة في جو حار خانق . كان ميغل يرقد في شبه ذهول وقد تمددت يده اليسرى فوق جسده كما لو كانت عضوا غريبا عنه ، وكان الألم يمزق صدره طول الوقت .

علت الابتسامة وجه ميغل عندما أحس بالسفينة تتحرك وراح في سبات عميق .

وفي مسينا رغم ازدحام الثكنات وخيام المستشفى ، إلا أن المكان كان مشرقا نظيفا كأنه الفردوس إذا قورن بالسفينة . وتولى الدكتور جريجوريو لوبيث رئيس أطباء الجيش علاج ميغل بنفسه . وأسفر الفحص الطبي لميغل عن وجود ضلع مكسور كان سببا في الآلام المبرحة التي شعر

بها ، ولكن الأمر لم يكن خطيرا ، بل بدأ يلتئم • أما يده فقد وقف الطيب أمامها عاجزا ولولا قوة بنيته لأصابته الغنغرينا •• وقد أساء الطبيب قائلا : « لتكن يدك لا تفعل يرجى منها ، ولكنك محظوظ ان مازالت موجودة » •

مكث ميغل فى المستشفى حتى التأم ضلعه المكسور تماما • كانت ستة أشهر قد انقضت عندما أرسل تقريراً الى فرقته العسكرية يعلن فيه استعداداه لأداء واجبه • لقد صدرت الأوامر وهو طريق الفراش فى المستشفى بترقيته ، كما منح وساما • وعندما عاد الى الخدمة العسكرية أصبح دون ميغل دى ثريانتس ضابطا برتبة ملازم •

- ٤ -

ميغل فى قلعة نابولى

قال الفارس النبيل دون كيخوتى ، كما سيظهر لنا فى سنوات قادمة فى الرواية التى كتبها ميغل : « ألا بعدا لأولئك الذين يقولون لك ان الآداب أفضل من الأسلحة وتفوقها نفعا ! » •

ان دون كيخوتى ، كما ستراه قديما بعد ، قد عده البعض غير مالك لقواه العقلية تماما •• كان قد جن افئتنا بموضوع القروسية • ومع ذلك كان يتحدث بكيفية جذابة ساحرة عن أى موضوع آخر تحت الشمس كمفكر عاقل منطقى فيترك سامعيه مشدوهين مذهولين •

لأشك ان ان دون كيخوتى عندما تكلم عن أمجاد الجندية فانه كان يتحدث بإسنان المؤلف دون ميغل •

كان من الصعب على المرء أن تكون له يد عديمة النفع ، وأن يكون فى الواقع بيد واحدة فى سن الخامسة والعشرين • ولكن ميغل كشخص معوق تحمل عاهته بكبرياء قائلا : « ان الندوب التى يصاب بها الجندي •• ان هى الا نجوم ترشد الآخرين الى سماء الشرف » •

ومن أشق الأمور أيضا أن يزج بالمرء فى موقع عسكري بكل ما فيه

من رتابة وملل بعد هذه المعركة التي تفجرت لفترة قصيرة في لياننتو .
ولكن ميغل لم يتذمر من هذا الوضع .

كانت الحامية تقيم في قلعة قديمة معتمدة في نابولي ، وهي قلعة أثرية من أيام النورماندين منذ ثلاثمائة عام مضت . كانت الحجرات والغرف شديدة الرطوبة على نحو مزعج ، والقلعة من الداخل عبارة عن متاهة معقدة محيرة من السلالم والدهاليز والسراديب .

أما أفراد الحامية من الجنود فقد كانوا خليطاً جمعتهم المصادفة ، وأبعد من أن يكونوا رفقاء سلاح . أما الضباط فقد كانوا شباناً يصغرون ميغل ، وقد أزدهامهم الغرور ، يمرحون في صخب ، ويتبرمون من حياة الحاميات العسكرية ، ولم يكن لديهم أية فكرة معقولة عن ملء ساعات فراغهم . ولذا كانوا يرحبون بأي لهو أو انحراف ينتشلهم من رتابة حياتهم ومللها .

كان ميغل ينظر اليهم في فزع عندما شكلوا جماعات وعصابات راحت تتجول في الريف وتضايق الفلاحين وتزعجهم وتفتش بيوتهم ويعملون فيها نهباً وسلباً ويعودون درحين كأنهم صبية ظفروا بصيد ثمين . لم يكونوا أشراراً كأفراد ، ولكنهم كزمرة اجتمعت معا تملكهم روح سيئة خبيثة وانتقلت عدواها بينهم .

لم يكونوا يتورعون عن تعليق فلاح في شجرة بعد أن يتراهنوا على أن الغصن لن يحتمله . وقد يخز أحدهم رجلاً بسيفه ليرى مدى رهاقة نصله . كانوا دائماً جوعى ، فقد سئموا طعامهم الرئيسي اليومي المتكرر داخل الحصن ، فانتقلوا في شراهة ونهم وراء الغذاء .

ومع البحث عن الطعام كانوا يسعون أيضاً وراء الفتيات الجميلات ، وكثيراً ما كانت المعارك تنشب بين شرازم الجنود ، تكون أحداها أسبانية والمجموعة الأخرى سويسرية أو المانية ، كذريعة لنجدة فتاة في محنة وإغايتها .

أما بالنسبة لميغل فكان لديه ما يفعله غير ما يرتكبونه من حماقات . ففي ساعات الفراغ كان يذهب إلى الأديرة ليستعير منها الكتب . وهناك وجد ميغل الفرصة ليتبادل الأحاديث والنقاش الجاد مع الرهبان كما كان يفعل في الماضي عبر الطرقات . ولكنه ميغل الذي لم يقصر حديثه على هؤلاء الرجال ، بل وسع دائرة خبراته فكان يتكلم مع كل من يقابله في الطريق . ففتجذب الحديث مع الفلاحين عن محاصيلهم أو يثرثر مع أصحاب الأنزال والحانات .

وفي كل صباح كانوا يمارسون التدريب على المبارزة بالسيف داخل

قلعتهم • ولما كانت إحدى يدي ميغل لا نفع فيها ، كان التدريب صعباً شاقاً بالنسبة إليه ، ولكنه كان يقف كالطود الشامخ فوق حلبة المبارزة بما لا يدع مجالاً للشك في عراقتة وثباته أصله ومحتده • ورويدا رويدا أصبح بمثابة أب اعتراف لبعض الضباط • ان السنوات الطوال التي قضاها وهو يذرع الطرقات في الماضي ، حيث تعود أن ينصت ، ويوجه أسئلته ثم ينصت مرة أخرى ، جعل منه ذلك رجلاً يلجأ إليه الآخرون بأحساس فطري عندما يرغبون في التحدث عن أنفسهم وينشدون عنده النصيح • ان مشاكل معظم الرجال متماثلة : الديور ، المنازعات والمبارزات ، ومسائل الحب والعاطفة • كان أغلب المشاكل يمكن حلها بتفسير واضح صريح أو بالاعتذار لمن أخطأوا في حقه • فهذا الطريق السهل القصير ليس فيه أي مساس بشرفهم بل انه أكرم لهم • كانوا يتادونه بصاحب اليد الواحدة أو الأقطع ، فكان ميغل يستجيب لندائهم بكل فخر وكبرياء • « ان ما يحمله الجندي من ندوب ان هي الا نجوم .. » •

تمر الأيام في القلعة لتصبح سنينا ، ويضيق ميغل ذرعاً بهذه الحياة الرتيبة التي لا تنتهى ، وليس هذا بالجندي •

وفي غمرة قلقه وشغائه وتعاسته ، وجد ميغل عزاءه الوحيد في الشعر ، الذي حاول قرضه ذات مرة وهو في مدريد • وهناك وحده مع براعة وقرطاس وبعض الخبر يمكنه أن يكتب أشعارا • ولكن هيات • • فالحياة العسكرية لا تعطى الانسان وقتاً كافياً ليفكر ويتأمل • فهي حياة يعيشها المرء في صحبة الآخرين •

استيقظ ميغل ذات صباح ليفاجأ بدهشة العمر ! كان هناك زائر ينتظره • تفرس ميغل فيه غير مصدق ، والرجل يتقدم اليه بجسده الضخم وبنيته القوية ورأسه المستدير الذي اثار ذكريات قديمة • اندفع الرجلان يحتضنان بعضهما • لم يكن الزائر سوى رودريجو • الشقيق الأكبر الذي غاب عن ناظري ميغل وتلاشى نهائياً منذ ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً ! اصطخبت في قلبه موجة من الحب لرفيق الطفولة فطفرت الدموع من عينيه ، وتأثر رودريجو بالمثل رغم ما يتصف به من هدوء وتحكم في انفعالاته • تلاحقت التحيات والايضاحات والتفسيرات السريعة • كان رودريجو جندياً صلب العود زادت الغزوات والحملات العديدة من خشونته ، واستطاع بنظرة واحدة أن يرى كيف تسير الأمور في حاميه نابولي هذه ، وأنها غير واعدة بالنسبة لميغل ومستقبله وهو الذي أمضى بها خمسة أعوام والكولونيل يعده كل عام بمهمة في جهة أخرى أو بالترقية دون أن ينجز ما وعد • لقد خدم ميغل في جيش دون خوان وكان قائده الأعلى ! فهو لن يتوانى عن اعطائه خطاب للملك نفسه ، ويمثل رسالة الترقية هذه سيتمكن ميغل من اختيار المكان الذي يروق له •

لجأ ميغل الى الجنرال فيجوويرا في مقر قيادته في مسينا ، وهو الذي خدم تحت أمرته أيضا في ليبانتو وأثنى على شجاعته في المعركة ، وبمعاونته استطاع أن يحصل على خطاب التزكية من دون خوان النمساوى .

لم يبق أمام الشقيقتين سوى خطاب آخر . . شهادة بحسن السير عن المدة التي قضاها ميغل في نابولي وصقلية . وكان من السهل الحصول عليها من صديقه حاكم المنطقة دوق سيزيا . . دون كارلوس دى أراجون .

حصل ميغل على ثلاث رسائل ، وهي وثائق ثمينة ليقدّمها للملك عائدا الى أسبانيا ينشد الحصول على ترقية .

ودع ميغل زملاءه في حامية نابولي ، وصعد الأخوان الى السفينة « سول » (الشمس) في الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٥٧٥ . وهكذا بعد غيبة ست سنوات يعود ميغل الى أسبانيا .

- ٥ -

ميغل أسيرا في الجزائر

كان أقصر طريق للرحيل من نابولي بإيطاليا الى بالانثيا في أسبانيا هو الأبحار غربا خلال مضيق بونيفاتشو بين جزيرتي كورسيكا وساردينيا . . غير أن قبطان السفينة الشمس ، ككل بحارة البحر المتوسط في تلك الأيام ، كان يعيش في خوف من القراصنة المغاربة ، ففضل أن يسير في طريق أكثر طولا على امتداد السواحلين الايطالي والفرنسي . كما سره أن يكون في صحبة سفينتين آخرتين . وكانت السفن الثلاث تلجأ ليلا الى أحد الموانئ أو تلقى بمرساتها على مقربة من الشاطئ .

وبينما كانت السفن تقترب من جزر ايريس التي لا تبعد كثيرا عن طولون بفرنسا ، اذا بأسطول صغير من القراصنة الجزائريين يحاصرونهم ويستولون على السفن ، ويقع من فيها أسرى بعد أن جردوا قباطنتها وبحارتها وركابها من سيوفهم . وألقى رئيس القراصنة أرنوت مأوى أوامره بالاتجاه صوب الجزائر .

قام القراصنة بتفتيش استعة كل راكب وفحصه كما لو كان حصانا

أو بقرة • كانوا يفحصون أسنانه وعضلاته ، وينعمون النظر بدغة في أوراقه • فالشبان الأصحاء الأقوياء يباعون كأرقاء بأثمان مغرية في الجزائر • أما اذا كانت أمتعة الراكب وأوراقه تدل على مركز أو جاه فمعنى ذلك الحصول على فدية كبيرة •

وعندما جاء دور رودريجو ليفحصوه ويختبروه راق لرئيسهم قوة عضلاته ومثانة بنائه رغم أنه لم يكن صغير السن • وحل دور ميغل فمطلب رئيس القراصنة جبينه وهو يحدق في يده المشوهة المعوقة • • فمثله لا يساوى كثيرا في سوق النخاسة • فحص أوراقه وهو مازال يلوى سحنه قعثر على الرسائل المهوررة احداها من الجنرال فيجويرا ، والأخرى تحمل نوقيع دون خوان النمساوى ، ومعنونة لشخصية لا تقل عن ملك أسبانيا نفسه • انفرجت أساور الرجل ، وأطلق صفير الاستحسان من بين أسنانه •

قيدوا الأسرى مع بعضهم البعض ، وحشروا في عنبر السفينة ، وأغلقت الأبواب دونهم ، فعانوا يومين من دوار البحر ، ومن الجور الخانق ، والمياه المالحة التي كانت الريح تصبها عليهم • كان ميغل وشقيقه يعزيان بعضهما بأنهما سيهربان كما يهرب غيرهم • وأخيرا وصلت السفن الى عاصمة الجزائر • قسم القبطان والقراصنة الأسرى الى مجموعتين • • الأقوياء والضعفاء • غاص قلب ميغل في صدره وهو يراهم ينتزعون أخاه من جانبه ، ويدفعون به الى مجموعة الأقوياء ، بينما تركوه بيده العاجزة مع فريق الضعفاء •

أخرجوا الأقوياء أولا لارسالهم الى سوق العبيد • ثم جاء دور ميغل ليسوقوه مع فريقه الى السوق • • حيث وجد منصة صغيرة في وسط المكان وقف فوقها رجل أسود في ملابس حريرية وبجانبه جزائري يعرضه في المزداد وتحلق حوله الناس • كانوا يجلبون العبيد من نواح كثيرة • • من رجال القبائل من داخل أفريقيا مثل الرجل الأسود الذي بيع من لحظة • وكان هناك رجال ونساء من الشرسق ، وكثير من الأوروبيين ، مثل ميغل ورودريجو ، الذين أسروا من أعالي البحار •

كانت عينا ميغل تدوران في كل اتجاه على يرمق أخاه ، ولكنه لم يوفق • وحان دوره فأوقفوه فوق المنصة ، وتحدث القرصان بضع كلمات قصيرة سريعة • وكان يقبض بأحدى يديه على السلسلة الحديدية التي قيد بها ميغل ، وأمسك بخطاباته في اليد الأخرى • لم يفهم ميغل أية كلمة فاه بها الرجل ، ولكنه استطاع ادراك أن القرصان يزايد عليه محارلا أن يعادل يده المعاقة ملوحا بالخطابات ، وأعدا من يشتريه بثروة ضخمة تدفع له كفدية • كم هو مقزع مرعب مخيف أن يقف الانسسان هكذا • • لا شيء غير سلعة تباع وتشتري • ان الخطابات ، ويد ميغل المعوقة قد

جذبته ، صديرا أليما ، وهو ان يقضى بقية حياته كرقيق يعمل مجنفا على سفينة تجارية كبيرة ان عذاب مثل هذا المصير فوق احتمال البشر .

تقدم من ميجل رجل جزائري بدين زايد عليه وهو يتتسم ابتسامة شرهة عريضة فقد أغرته الرسائل . وبعد بضع كلمات متبادلة أمسك أحد ، اتباع دالى مامى بسلسلة ميجل واقتاده خلفه . كان دالى مامى الذى اشترى ميجل من الأثرياء الذين جمعوا ثروتهم من استثمار البشر من أمثال ميجل . كان الرجل يحتفظ في فناء قصره بمجموعة كبيرة من الأسرى التحساء مذكورى الحظ انتظارا للأموال التى تدفع فدية لهم من أصدقائهم أو أقاربهم في الخارج . وانضم ميجل اليهم . وسرعان ما أحضروا له ملابس نظيفة ووجبة شهية . ومن ثم اقتاده أحد الحراس ليمثل أمام دالى مامى الذى فحص رسائل الأسير بعناية . طالب من ميجل أن يكتب "الى أسرته في اسبانيا طالبا خمسمائة من الدوكاتيات الذهبية . كانت فدية ضخمة لا يقدر على جمعها أفراد أسرة ميجل وجميع أقاربه وأصدقائه . أعاده الحراس الى الفناء بعد أن زودوه بأدوات الكتابة ، فشرع يكتب في يأس .

انغمس ميجل في الحياة الجديدة فكان يتناول غذاءه ويغتسل ويتجانب الحديث مع غيره من الأسرى ويستمتع الى قصصهم وحياتهم السابقة في أوطانهم . . فرنسا أو إيطاليا أو اسبانيا . . وأنصت الى مشاعرهم المتباينة من حب وحزن ، وكيفية أسرهم ، وآمالهم في المستقبل . كما عرفوا عنه كل شيء . الأيام تمر ، والرتابة والضجر تكتنفهم ، وأصبح كل منهم جزيرة من الوحدة والقنوط ، وقبع ميجل يتأمل في سخريه مصيره . فبعد خمس سنوات فترت فيها همته لما عاناه من الضجر في حامية نابولى بدأ المستقبل يتسسم أمامه ، وفجأة وئدت هذه الابتسامة ، وتحطمت آماله عندما أصبح أسير القراصنة . . وهاهوذا قد عاد الى سام ويأس أشد وطأة مما لاقاه في نابولى قبل عودة رودريجز .

انقضت عدة شهور قبل أن يتلقى ميجل خطابا من والدته دونيا ليونور التى تصرفت كأمرأة من النبلاء . . تناشده الصبر وعدم اليأس ، وأنها ستعمل المستحيل مع أبيه لتجمع له الفدية . أغلق ميجل عينيه وقد غمرته موجة من الحزن لما سيكبد أباه . . فالرجل لامحالة سيبتلع كبرياءه ويقف أمام ذوى النفوذ سائلا المعونة ، ناهيك بشقيقاته اللاتي سيضحين بما يملكنه من حلى قليلة عسى أن يقدمن المساعدة من أجل أمل بعيد المنال .

الأسسجناء يتحدثون الآن عن الهرب . حاول ميجل أن يهرب هو وبعض زملائه أملين الوصول الى حيث يقطن بعض الأوروبيين ليختبئوا لديهم حتى يمكنهم تأجير سفينة تقلهم الى اسبانيا .

باعت محاولة الهرب بالفشل فقد اكتشفهم حراس دالى مامى في اليوم

التالى بعد أن غلبهم النعاس لما أصابهم من تعب ونصب • توقعوا عذابا اليما وميتة شنعاء عندما دفعوا بهم أمام دالى مامى • خطا ميكل الى الأمام وبدأ يتكلم على مهل مستعملا ما استطاع أن يتذكره من كلمات لغة الجزائريين ، وسأل الرجل أن يعاقبه هو ، فهو الذى حرص زملاءه على هذا العمل الأحق وناشدته الرحمة بالرفاق •

• مرت فترة صمت رهيبه أصدر بعدها دالى مامى أمرا ، فأمسك الحراس بالأسرى المرتجفين واقتادوهم الى الفناء الذى غادروه الليلة الماضية • وقفوا فى ذهول غير مصدقين • ما هو سر ميكل - هذا الجندي الأسباني الذى بلغ التاسعة والعشرين من عمره ؟ كيف استطاع أن يؤثر على تاجر الرقيق الجشع القاسى ، ويجعله يعفو عنهم ؟ أهى حرارة صوته ، وصدق عينيه ووجهه ؟ أم أن دالى مامى قد أبقى على حياة ميكل آملا أن يحصل على الخمسمائة دوكانيات من ورائه ؟ لا أحد يعلم • • ربما كان الباعثان معا • • دليل من التسففة مع بعض الطمع يكمنان وراء هذا الصفيح •

بعد أن هتاك شيئا واحدا تعلمه ، فبعد انقضاء خمسة وعشرين عاما منذ ذلك الوقت ، كان ميكل ثريانثس يكتب الرواية التى تفسهنت كثيرا مما رآه ، ومما جال فى فكره ، وخبره فى حياته ، وتسج لنا مضطرة من خبراته فى الجزائر • أن دون كيخوتى • • بطله فى الرواية لم يأسره أى قرصان ، ولكنه فى مشواره الطويل الذى سلكه ، وشق به طريق حياته كفارس جوال ، قابل رجلا كان أسيرا •

وعندما قص هذا الأسير حكايته على دون كيخوتى الذى افقتن بها وخلبت له ، فأننا نعيش على مفاتيح كثيرة لما كانت عليه حياته داخل سجنه ، ليس هذا فحسب ، بل انها تلقى الضوء على ميكل نفسه وتشير شاهدة عليه • فبينما كان فى سجنه بمدرية يكتب روايته لم يستطع ثريانثس ذو اللحية الرمادية أن يقاوم التكنة • أنه يبتسم ولسانه يدور فى فمه فيقول الأسير : « أن الشخص الوحيد الذى فهم سيدنا كان جنديا أسبانيا يدعى سابيرا • فرغم أن هذا الرجل قد أتى بأعمال سقتل محفورة فى ذاكرة هؤلاء الناس لسنين عدة قائمة ، وخاصة فى محاولاته للحصول على حريته ، إلا أن المغاربة لم يناووه قط بأى ضرر ، ولم يضربوه أية ضربة ، ولم يأمرؤا بجلده • • وقد غمرنا الخوف جميعا من أن أقل ماسيناله سابيرا كجزاء على أفعاله الكثيرة هو وضعه على الخازوق ، وهو نفسه قد خشى ذلك أكثر من مرة » •

وهكذا يقدم لنا دون ميكل نفسه عندما كان شابا وهو يضحك فى شيء من السخرية • ونلاحظ أن سابيرا هو مؤلف رواية دون كيخوتى نفسه ، فاسمه الكامل : ميكل دى ثريانثس سابيرا •

ان المحاولة إلفاشلة الذي قام بها للهرب من أسر دالى مامى قاداته الى أن يحاول مرة أخرى . ولكنه خاب فيها أيضا . وكما حدث من قبل « لم يناله المغاربة قط باى ضرر » .

حدا به فشله الثانى الى التفكير فى خطة أخرى للهرب ، وكانت هذه المرة على نطاق أوسع بحيث تشمل عشرات من الأسرى الأوروبيين فى كل الجزائر لتمكينهم من الهرب فى سفينة تستأجر لهذا الغرض .

وفى رواية دون كىخوتى التى كتبها ثربانتس نجد الأسير يقص حكاية تتضمن كثيرا من العناصر التى كانت بلاشك جزءا من الخطة التى وضعها ميجل . وأخذ الأسير يسرد كثيرا من التفاصيل : كانت تطل على فناء السجن الذى زجوا بى فيه ، نوافذ خلفية لبنت يملكه أحد المغاربة الأثرياء من علية القوم . ووفقا لعادات هذه البلاد لم تكن النوافذ غير طاقات ضيقة عليها مشربيات غليظة ضيقة الفتحات . ومن هذه النوافذ كانت ابنة المغربى الجميلة ترقب الأسير ورقاقه . وتقع الصبية الحسنة فى حب الأسير الوسيم الذى شاهده فى الفناء ، وتلقى اليه بالرسائل من نافذتها مبشرة أيام بأنها ستمد له يد المساعدة هو وزملائه حتى يتمكنوا من الهرب . وذلك إذا أخذوها معهم . يجيبها الأسير فى رسالة التقطتها منه بعد أن ربطها فى خبط أدلة اليه بأنه جد سعيد ليتعاون معها . وتهدف اليه بكثير من الذهب فى مدينها المفقود ليستطيع أن يستأجر سفينة تنفيذا لخطة الهرب .

ولكن للأسف يبدو أنه لم تكن هناك عذراء مغربية مليحة ضمن خطة ميجل ، بل كما كان الحال فى محاولة هربه الأولى ، احتاج الى حليف يتعاطف معه ويناصره من اهل منزل دالى مامى . واعتمد أيضا على صداقة الحراس التى استطاع أن يعقدها معهم ، وخاصة ذلك الحارس الذى كان ميالا الى ميجل . فهو الذى جاءه بالانباء السارة عندما أخبره بأن رودريجو مازال حيا يرزق ، وفى حالة طيبة فى منزل آخر لأحد المغاربة فى الجزائر .

استطاع ميجل عن طريق هذا الحليف وبعض الحراس أن يبعث بالرسائل لبعض الأوروبيين المقيمين على امتداد الساحل الجزائرى يسألهم المعونة فى خطة الهرب . وزحفت اليه الوعود بالمال والمعونة ببطل . وانتشر الأمر بين السجناء الأسرى فى مدينة الجزائر . تقدمت الخطة وقام الأصدقاء الذين يقيمون بعيدا على الساحل باستئجار إحدى السفن التى ستخفى كسفينة تجارية تنتقل بحذاء الشاطئ ، وما أن يتجمع الأسرى فى المكان المحدد للالتقاء ، فان السفينة سترفع مراساتها وتقلع بهم صوب إسبانيا .

كرس ميجل كل وقته ليضع التفاصيل بعزيمة لاتلين ودقة متناهية وهو

يستغل كل ما يمتاز به من صفات كانت ستؤهله ليصبح قائدا عسكريا لامعا متألعا نولا الحظ الذى مال به • الم يقل له الكاردينال جوليو اكرافيا ذات يوم فى روما منذ زمن بعيد : « ستصبح جنديا عظيما ، قائدا تتحلى بالشجاعة والذكاء والرزانة ، ولا ينقصك سوى الحظ » •

وميجل يحتاج الى هذا الحظ الآن • فقد كان كل شيء معدا ، ولم يبق على الخطوة الا وضعها موضع التنفيذ • وبلغت الاشارة الى الاسرى فى كل الجزائر • « هذه هى الليلة » •

وفى تلك الليلة أعطى ميجل الاشارة الى الرجال الذين تحلقوا حوله وقد حبسوا أنفاسهم ، فشرعوا يتسلقون الأسوار • وفى نفس اللحظة كان عشرات من الأسرى الآخرين يتسلقون الحوائط فى صمت • وما أن تجمعوا حتى سمعوا أصدااء النفيير تملأ الآفاق بدويته • وأخذت تقترب ، ومعها وقع أقدام الجمال المسرعة وهى تثير سحبا من الغبار تعان قدوم جحافل الجنود الأتراك •

لا ريب أنه قد حدثت خيانة ، ولكن لم يكن هناك وقت ليتساءلوا فى دهشة عن يكون ، وكيف ، أو متى • لقد أهدق بهم الفخ ! وأحاط بهم الجنود من كل جانب وقبضوا عليهم فى غلظة وخشونة وأعادوهم الى مدينة الجزائر • لا الى من يمتلكونهم ، ولكن للممثل أمام حسن باشا ، الحاكم التركى للأقليم الذى سيتولى محاكمتهم بنفسه • كان الرجل يظهر سيطرته على هذه الأرض الغريبة وشاطئها من الجزائريين والأوروبيين الذين كان يتوجس خيفة مذهبهم ، بأن سلك الطريق القسوة التى لا تعرف الرحمة •

وعندما تكلم الأسير فى رواية ثريباتس وهو يحكى لدون كيشوتى عن ملك الجزائر فإنه كان يتحدث عن هذا الحاكم • « كان فى كل يوم يشفق هذا الرجل أو يضع ذاك فوق الخازوق ، ويقطع أذن آخر • كل ذلك لأى هفوة صغيرة ، أو بدون سبب على الإطلاق ، ليروى ظمأه لمسفك الدماء » •

كان هذا الحاكم بلا شك رجلا من ذلك الصنف ، رجلا صارت وحشيته أسطورية • ذلك الذى جئ بميجل لمحاكم أمامه • أقمهم الحراس أن عليه الإجابة عن ارتكابه لشيء لم يكن مجرد محاولة للهرب ، بل لقد وضع خطة واسعة النطاق جعلتها أقرب الى حركة تمرد وعصيان وثورة • أنها مؤامرة استنهض فيها أقليما بأكمله من الجزائر • لقد علق حسن باشا كثيرا من الرجال فى أعواد المشائق لمجرد أن راودهم حلم مماثل •

وقد فميجل أمام حسن باشا ليجيب عن جريمته ، فتكلم بهدوء • وكما فعل أمام دالى مامى لم يحاول أن يبرىء نفسه والتمس العفو عن الآخرين الذين هربوا معه •

أيكم من سر ميجل في أنه وقف مجازفا معرضا نفسه للتهلكة غير هباب ولا وجل ، دون أن يرتعش من أجل الابقاء على حياته ؟ أم أن حسن باشا لأول مرة يسمع رجلا يحدثه كما يتحدث انسان الى انسان مثله ؟ ان الرجل لم يصانفه طوال حياته كماكم للالقليم الا الخضسوع والاطراء والمديح والتملق والمداهنة والنفاق أما الآن فهو ينصت الى رجل يتحدث جهارا في بسالة وامانة دون لف أو دوران ، وقد أمتلأ قلبه بحرارة الانسانية •

وكيفما كان هذا السحر •• لم يستطع الباشا أن يقاومه كما كان الحال بالنسبة لدالي مامى • لقد حدثه ميجل وكأنه يعتقد أن الباشا انسان يعرف الرحمة ويحب السلام •• وفي لحظة انفعال وصراع داخلى حركت كلمات الرجل قلب الباشا فبقى لها •

انتهى المشهد بالباشا يصدر أوامره بالاحتفاظ بميجل لديه ، وإعادة باقى الأسرى الى من كانوا في حوزتهم • وأيا كان الدافع وراء ذلك كما يحلو للعالم أن يضع له تفسيراً سواء سمي ذلك ضعفاً أو نزوة ، فهناك حقيقة ستظل باقية وهى أن الباشا قرر أن يبقى على حياة الأسباني •• ودفع الى دالي مامى الخمسمائة دوكانتات •• قيمة فدية ثريانتس •• وأصبح ميجل منذ ذلك الحين عدداً لحسن باشا يعيش فى السراية •



كان حسن باشا حاكم أو باى الجزائر يعيش داخل أسوار قصره الفخم الفسيح الأرجاء والذي يضم بيوتا ومساكنا تعرف بالسراية •

خطا ميجل داخل السراية كأنه يدخل عالما عجيبا غير حقيقى ، عالما بدا له ، بفخامته وزخارفه المعمارية ، مسحورا أى واقعا تحت تأثير السحر •• ذلك الذى سيستهوى فى يوم من الأيام قارسه دون كيخوتى •

سبق لميجل أن شاهد ذن المعمار المغربى المنتشر فى أسبانيا •• فكثر من مبانى المغاربة فى أشبيلية وغرناطة وقرطبة كانت من ذلك الطراز المغربى •• ولكنه كان يرمقها من الخارج ، أما الآن فانه يعيش فى قلب واحد من هذه القصور • وهو يقضى ساعات لا حصر لها من الفراغ وقد استيقظت حواسه التى ازدادت حدة بعد أن زال عنه التوتر والقلق والاثارة التى صاحبت هربه ثم القبض عليه • كان مسموح له بالتجول داخل السراية • يالثرء هذا الجمال الذى أبدع بعناية ودقة وصبر ، وكان أيضا جمالا ذا نفع •• فاللواكى الأنيقة تعطى ظلًا يقى المرء من الشمس ، والنافورات المزخرفة ترطب الجو ، والخضرة اللينة تريح العيون • وكانت هناك كائنات رقيقة رشيقة •• سمك ذهبى يسبح فى هدوء •• غزلان وطواويس تتجول فتضفى حيوية على المشهد دون أن تعكر صفو هدوئه ، وتبعث الألوان البهيجة احساسا بالسعادة لناظرها •

ما أغرب هذا السجن الذي يعاني منه ميغل ، اذ لم يطلب منه عمل أى شئ ٠٠ نفس الحال كما كان في أسر دالى مامى . وهنا كان يسمح له بحرية الاختلاط بالحراس والأتباع . وسرعان ما أصبح واضحا أن حسن باشا معجب بعبده الجديد الذي دافع دفاعا مجيدا بليغا عن زملائه في الأسر . ازدادت امتيازاته ٠٠ فأصبح يتمتع بحرية الحركة داخل السراية وعبر حدائقها الشاسعة ، وكان يجاب الى كل ما يطلبه من الكتب والأوراق وأدوات الكتابة . حقا لقد كان سجننا مسحورا لم يشوّه غير نشان واحد . فعندما اشتراه الباي بخمسمائة دوكاتيات دفعها كفدية لدالى مامى ، فانه بدوره ضاعف فديته الى ألف من الدوكاتيات . انها فدية وصلت الى حد الاستحالة . ان دوكاتية واحدة كانت تكفى لشراء بقرتين في وطنه أسبانيا ، واثنين أو ثلاث دوكاتيات خليفة بأن تقيم أسيرة لمدة عام .

الزمن يمضى وميغل يعيش في حلم . كان يسمع أحيانا موسيقى ذات الحان غريبة ، وتارة يستنشق عبيرا زكيا يعبق الجو حوله دون أن يعرف مصدره . أ يكون ذلك بعضا من السحر ! وفي أحيان أخرى كان يجلس بجوار الزهور بالقرب من النافورة ، فيقترب منه بعض الخدم من ذوي الوجوه السوداء اللامعة وهم يسرون على أطراف أقدامهم ويشيرون اليه بترك تلك البقعة . ينتقل الى ناحية أخرى من السراية ، فلا يلبث أن يسمع من بعيد أصوات ناعمة ويلمح نساء الباشا اللاتي قدمن من بيت الحريم ، وهن يقتربن من النافورة للتدليس بعضا من الوقت . انهن يسبحن ويغنين كما تنير الشمس ويعبق الزهر ، وينادين الطيور والغزلان ، وعلى حين غرة يقفئن راجعات بسرعة كما أتين .

كان ذلك حلما ٠٠ الحراس السود المندمجون بالسلاح ، الأصوات الناعمة ، الموسيقى ، العبير الزكي ، النسمات الرقيقة ٠٠ وهو نفسه وسط كل هذه المناظر ٠٠ اكان هو أكثر حقيقة وواقعية من كل هذه الفاتنازية المتعددة الألوان ؟! أهو حقا ميغل . ذلك الرجل الذي يرتدى الملابس المغربية المزخرفة ؟ اكان جنديا من قبل أبحر على ظهر سفينة حربية واستنشق دخان البارود اللاذع ، وماهى الحقيقة والواقع ؟ أهى الشكل الخارجى ومظهر الأشياء ٠٠ ولها من القوة ما تستطيع به أن تصيغ وتشكل روح الانسان في أعماقه ؟ أم أن روح الانسان هى الأقوى وهى الواقع والحقيقة والأصل الذي لا يشوبه زيف مهما قوبل بالرفض من العالم الجامد ؟

وفي أعوام قادمة ، كان على فارس ميغل ٠٠ دون كيخوتى أن يخوض المعركة في طول أسبانيا وعرضها مسلما نفسه الى الجانب الروحي بعزيمة لا تقهر . كانت مغامراته هزلية مضحكة في أعين من شاهدوه ، وبالمثل لكل من قرأوا عنها ٠٠ أهذاك شئ أشد عبثا ولامعقولية أكثر من رجل ينازل قطيعا تن الأغنام وهو مقتنع أنه يخوض معركة ضد جيش ؟ أ يوجد شئ أكثر جنونا من هذا الرجل وهو يتحنى أمام فتاة رقيقة قطة مشاكسة

معتقدا انها حبسته النبيلة دولثينيا (وهي نفسها من تلفيق واختلاق خياله) متخفية بقسوة تحت تأثير سحر خبيث ؟ لاشك انها كانت أعمالا جنونية ، ولكن اخلاص الفارس وتفانيه من أجل ما يدور في فكره من مثل أعلى . وتكريس نفسه لتحقيق هذه المثالية في حب ووله شديدين بدا أكثر اشراقا وأشد سطوعا من حماقاته ، ففي النهاية هناك شيء آخر وراء كل الضحكات .. انه الاحترام أو الحب .. الروح ! انها الروح اذن ..

عندما ينتهي ميجل من كتابة الرسائل ، التي كان يبعث بها الى أسرته وأصدقائه في وطنه اسبانيا ، والى أخيه رودريجو الذي لم يكن يبعد كثيرا عنه ، ولكنه مازال أسيرا ، كان يسمح له بزيارة الحى الأوروبى فى مدينة الجزائر ، وحين تغلق أبواب القلعة وراءه كانت الشمس تغمره بأشعتها المحرقة ، بينما يسير الحراس خلفه على مسافة خطوتين أو ثلاث دون أن يلقى اليهم بالا فهم لا يشاركونه هذا الواقع ، اذ يمتون الى عالم آخر خلف الأسوار . انه يخطو داخل طرقات المدينة وسط الضوضاء الصاخبة وروائح الثوم والبصل والزيت المتزنخ ، وروث الجمال والأسماك التي تطرق اليها الفساد ، ودخان شحم الضأن الذي يتصاعد من المطابخ . انه يتدافع وسط الزحام والهرج والمرج وتصدك آذانه أصوات نباح الكلاب. ونهيق الحمير ، وصرير عجلات العربات التي تجرها الثيران ، وصياح الباعة الجائلين ، ومطارق الحدادين . وهو مازال يغذى السير وسط أصوات الدجاج ، وصراخ الأطفال ، مارا بالجمال التي حطت عليها أسراب الذباب .

هذه هي الحياة الواقعية ، الحياة كما هي ، وهي ليست عالما جميلا، ولكنه يعيشها رغم ذلك . وفيما بعد عندما خلق ثريانتس فارسه دون كيخوتى .. رجلا تذر نفسه وكرسها من أجل الروح ، منحها تابعا أتى به من هذا العالم الواقعي .. وكان رجلا عمليا بدينا قصير القامة يدعى سانتشوبانثا . لن تجده من أنكى الناس ، ولا يميل الى التفكير المجرد ، ويؤمن الأمثال . انه صاب جامد كالأرض يسند ويساعد ويؤيد كل خطط دون كيخوتى الطائشة الحمقاء ، ومشروعاته الوهمية . ويصنع الأذنان واقعا .. روحا تسمو وتحلق عاليا باحثة منقبة ، يشدها الى الأرض أوائى الطعام وتيران مواقد الطهى والخبز الذي يشبع المعدة .

وفي احدى زيارات ميجل لتاجر أوروبى عقدت بينهما أواصر الصداقة ، سمع منه أنباء مدهشة ! لقد وصلت ثلاثمائة دوكاتية من اسبانيا لتدفع فدية له . ان أسرته قد قامت بتضحيات جسيمة حتى جمعت كل هذا المبلغ ، ولكنها للأسف لا تكفى ما يطلبه حسن باشا لاطلاق سراحه .. ولكن بهذا المبلغ يمكن اطلاق سراح رودريجو .. وطلب ميجل الاسراع بحمل هذه الأنباء للبيت الذي يعيش فيه أخوه سجيننا . وأسعد ميجل أن تعود الى شقيقه حريته وكأنه هو الذي حصل عليها ، وخاصة أنه كان

يخشى على أخيه من قوته البدنية التي كانت تؤهله لأن يقضى حياته مقيدا
بالسلاسل الحديدية الى المجازيف في قاع السفن .

عاد ميجل الى القصر ومرت الشهور وهو يتردد كثيرا على المدينة
ليتابع الخطابات .

صار ميجل معروفا في الحى الأوروبى ، وأصبح له كثير من الاصدقاء
من بين التجار ، وكذلك من القساوسة والرهبان . . اتحدوا جميعا
لمساعدته . . كى يحصل هذا الرجل غير العادى على حريته . كما أن
أسرته أرسلت مبلغا آخر من النقود غير الثلاثمائة دوكاتيات التى سبق
إرسالها . لا أحد يعلم كيف استطاعوا ذلك . . ولم ينحصر الأمر في هذا
المبلغ إذ أن الأوربيين في الجزائر كانوا يجمعون الأموال من أجله ،
ويتفاوضون مع الباي الذى كان متمسكا بعبده الاثير لديه . ولكنهم
استطاعوا أخيرا أن يخفضوا فديته الى ستمائة دوكاتية . غير أن هذا
المبلغ كان كبيرا بالنسبة الى ما أرسلته أسرة ميجل وما جمعه أصدقاؤه .
وبينما كان الموقف قد وصل الى حافة اليأس قدم أحد الرهبان
الفرانسييسكان لانقاذه باكمال المبلغ وكان يدعى الأب خوان خيل .

أطلق سراح ميجل ، فذاق طعم الحرية مرة أخرى فى تلك الليلة ،
واستنشق الهواء بطريقة أخرى وكأنه امتلك الدنيا .

وأخيرا حلت اللحظة التى لا تصدق . . وأقلعت السفينة بميجل الذى
وقف يلوح لأصدقائه الذين جاءوا لتوديعه . . وما أن أطل الصبح حتى
اختفى الساحل الجزائرى وراء الضباب .

- ٦ -

ميجل يجرب حظه مع المرأة والقلم

كان ميجل يبلغ ثلاثة وثلاثين عاما عندما أطلق سراحه من الاسر
وأبحر عائدا الى وطنه الذى غاب عنه اثنا عشر عاما بدأت بسنتين
أمضاها في روما مع الكاردينال أكوافيفا ، ثم خمس سنوات في الجيش ،
تلتها خمس سنوات في الاسر .

تاق للعودة الى الجندية ولكنه واجه الحقيقة : ملازم في الثالثة والثلاثين من عمره شيء يدعو للضحك والسخرية . لابد ان كثيرا من زملائه السابقين قد وصلوا الى رتبة كولونيل وقد خاضوا غمار الحرب في شتى المواقع ، واصبح لديهم خبرة حقيقية بات يفتقر اليها . ولكنه اذا كان لا يستطيع ان يخدم وطنه ومليكه كجندى ، فلا بد ان يخدمهما بأية طريقة .

وأخيرا لاحظ له أرض الوطن في الأفق البعيد . ووجد نفسه في ثارب صغير مع جمع كبير من المسافرين ، ونزل على الشاطئ الأسباني . ومن هناك رحل الى مدريد التي وصلها بعد أيام قلائل . قوبل في منزله بالترحاب ، والتفت الأذرع حول عنقه تطوقه . وسرعان ما رأى مدى الفقر المدقع الذي تعيش فيه أسرته نأمة وشقيقته يرتدين ملابس رثة مهلهلة ، وشاهد أحدى ممزقة . كما ان الأثاث لم يكن موجودا . لم تكن هناك حاجة لأن يقول شيئا انه الثمن الذي تكبدته الأسرة لتدفع له الفدية هو وأخيه رودريجو . تمزق قلب ميغل من أجلهم . لقد عاد رودريجو الى الجيش الآن ، ويرسل لهم مائيسر من مال . وهاقد حان الوقت ليساعدهم ميغل . ان أباه قد تقدم سنه . ومازال حاد الطبع سريع الانفعال ، ويصحو مبكرا ليعود مرضاه . أما أمه ، التي أصبحت في أواخر الخمسينات من عمرها ، فتنهمك في الأعمال المنزلية منذ الصباح الباكر حتى يجن الليل كمعهده بها ، الا أن خطوط المראה والتعاسة قد زحفت على وجهها . لا شيء مما كانت ترجوه في حياتها قد سار كما ودت . . لم تصل الى مستوى الذبلاء ، ولا شيء غير الشقاء الذي لانهاية له . ولم تتزوج البنات فهما لا تملكان بائة يقدمانها . فأصبحت السكيتان أندريا وماجدالينا عانستين تحت أمرة والدتهما بعد أن جردا نفسيهما من القليل الذي يمتلكانه لانقاذ مبجل الذي أحس بالألم للثمن الفادح الذي دفع من أجل حرية . ظل يسعى يوميا الى لقاء أصدقائه ومعارفه القدماء أو أشخاص جدد لعلهم يستطيعون مساعدته . لقد زار صديقه القديم الجنرال فيجويروا الذي أصبح عمله في مدريد ، وذكره بالترقية التي كان قد وعده بها منذ خمس سنوات . فقطب الجنرال جبينه وأطل من النافذة وهو يقول ان خمسة أعوام قد غيرت كثيرا من الأشياء ، والموقف ليس ملائما الآن للترقية ، ولكنه سيتركه ليجد وظيفة في خدمة الملك . عانى ميغل كثيرا وهو يرى الجميع لا يحركون ساكنا ، ولا شيء غير تمنياتهم الطيبة .

مازال أصدقاء ومعارف المقاهي القدماء يتذكرونه ورحبوا به ترحيبا حارا . وراح كتاب الجماعة يلحون عليه ليكتب بعض ما قصه عليهم ، واستحثه الكتاب المسرحيون لكتابة مسرحيات . . فهناك دراما عجيبة ومثيرة للخيال في كل هذه المادة التي جمعها . وأصر أصدقائه على أن يكتب مسرحية تقع أحداثها في الجزائر . ولكنه نهض من مكانه ليبدأ السعى المضنى من جديد بحثا عن وظيفة ، إذ أن الكتابة لن تحقق له

ما يرجوه • وفي غمرة يأسه استدعاه صديقه القديم الجنرال فيجويروا ليخبره أنه وقع الاختيار عليه لمهمة دبلوماسية في أوران على الشاطئ الأفريقي •

كانت هناك بعض العدالة الشعرية إذ يعود ميغل الى شمال أفريقيا كرجل حر • فيرى في كل مشهد ، ويجد في كل مقابلة ، أبعادا جديدة كمبعوث الملك أسبانيا لا كعبد رقيق كما كان • الا أن هناك مشهدا لا يملك إزاءه الا الارتجاف ويقشعر بدنه عندما يراه • • عبد يساق الى سوق النخاسة أو جماعة من الأرقاء في طريقهم الى نفس المصير الذي عاناه من قبل أو أسوأ •

لم يكن عمله في أوران صعبا ، كما لم يستغرق منه وقتا طويلا لانجازه ثم عاد الى مدريد ، فأسرعوا يبعثون به في مهمة أخرى بالقرب من البرتغال اقتضته البقاء هناك لعدة شهور •

ثم انقطعت المهام ، وبدأوا يعتذرون له وهو في دهشة كيف لا يوجد ما يعمل به من أجل وطنه ؟ فالامبراطورية الأسبانية تمتد لتشمل نصف العالم • بدأ ميغل يكتب الالتماسات للمسؤولين من ذوي النفوذ من الذين يعرفونه أو لا يعرفونه ، واضطر أن يذكرهم بالتفصيل بكل ما خدم به أمته • • وعانى ميغل الأمرين • كان مجتمعا غريبا رآه ميغل في غرف الانتظار التي قد يقضى فيها يوما كاملا عليه يجد فرصة يقابل فيها أحد الذين يعملون في البلاط وحوله • لقد رأى المظاهر الكاذبة من انحناءات وابتسامات ومجاملات •

من الغريب أن سوء الحظ ظل ملازما ميغل مما حدا به في النهاية الى أن يعود موليا وجهه شطر الكتابة التي لن يجنى من ورائها الا القليل • • ففي تلك الأيام لم يكن الكتاب يعملون من أجل الكسب ، فمواهبهم يجب ألا تنتهك من أجل ربح مادي • فالكتابة لم تكن حرفة فنية مثل التصوير الزيتي الذي كانت سوقه رائجة • وأقصى ما كان يأمل فيه أحد الكتاب هو أن ينال كيسا من الذهب إذا أهدى عمله الى أحد الأمراء أو النبلاء • لم يكن ميغل يعرف أحدا منهم ، بيد أن الكتابة كانت تحمل اليه سرورا وسعادة ، ولم تكن تحتاج الى رأس مال • وطالما حثه عليها أصدقائه في المقاهي منذ زمن طويل - فماذا عساه فاعل لأجزاء وقت فراغه ؟ لقد بدأ ميغل يكتب •

في ذلك الوقت حوالي عام ١٥٨٠ لم يكن بأسبانيا سوى بضعة مسرحيات ومعظمها كان من الفارصات البدائية • كما أن مسرحيات الألام الدينية التقليدية كانت تمثل في الاحتفالات الكنسية ، وكلها كان عرضها يستمر عدة أيام مما يثير الضجر •

كان قلب ميجل منذ نعومة أظفاره ينبض شغفا بالمسرح . وكان المسرح هو الذى يود أن يكتب له الآن . الا أنه كان مثل القلة الذين بدؤوا يظهرون هنا وهناك ، أراد أن يخلق عمله من الحياة الواقعية - كما أراد أن تكون مسرحياته حبكة يمكن فهمها . وكان في هذا مايكفى لاثبات أنه واحد من أوائل مؤلفي أسابنيا العصريين . ومع ما كان يرغبه من التجريب فى الحبكة ، فإنه اختار أن يكتب بلغة المسرح التقليدية وهى الشعر .

وعندما شرع فى الكتابة وجد أن أصدقاءه كانوا محقين حين حثوه على أن يستفيد من بعض المشاهد الغنية بالألوان والناضجة بالحيوية التى التقى بها إبان الفترة التى قضها أسيرا فى الجزائر . وسرعان ما أخذت مسرحيته تتشكل تحت عنوان : « تجارة الجزائر » . ولما انتهى ميجل من كتابتها قبلها مدير فرقة مسرحية صغيرة . ونقده فيها دوكاتية واحدة ، وأعطاه أيضا فرصة الاشتراك فى التمثيل . استيقظت فى ميجل موهبته الفطرية كممثل أمام هذا الاغراء . وسرعان ما وجد نفسه يخرج المسرحية أيضا هاكتشف فى نفسه موهبة لم يكن يعلم أنه يمتلكها . فأسعده رائلج صدره أن يرى كلماته تدب فيها الحياة وتتحرك على المسرح . رأى ميجل أن مسرحيته لم تهز المتفرجين الذين لم يقابلوها بالابتهاج ولا بالاستنكار ، فاقبل على أعمال غيره من الكتاب بحماس محاولا إخراجها .

حين انتهت عرض المسرحية قررت الفرقة أن الوقت قد حان للمسفر والترحال كعادة الممثلين فى ذلك العصر ، وسألوا ميجل أن يرافقهم كمخرج للفرقة فوافق فى غبطة .

كانت مسئوليات ميجل كمخرج ومدير للفرقة متباينة ومتعددة . فهو الذى يختار المسرحيات التى ستعرض ، وهو الذى كان يعيد كتابتها وصقلها وتغييرها حتى يشعر بأنها ستلقى نجاحا . وكان هو الذى يعد المسرح والملابس وقطع الأكسسوار . لم تكن هناك مسارح فى مدن أسبانيا الصغيرة ، وكان العرض يتم فى أى مكان تجمع - قد يكون فى غرفة رئيسية داخل إحدى الحانات أو مخزن محاصيل زراعية أو صالة طعام .

برزت قدرة ميجل القديمة على السيطرة على الناس . وكما كان الحال فى حامية نابولى أصبح محورا ينشده الكل معتمدين عليه . ويواصل أفراد الفرقة الصغيرة الترحال بعرياتهم من مدينة الى أخرى تحت وهج الشمس ، وأحيانا كانت الأمطار تبللهم .

لم يحس ميجل بالرتابة رغم تشابه الأيام والمدن ، الا أنها كانت تعلم ميغلا شيئا جديدا عن المسرح والكتابة له ، والناس الذين يكتب من أجلهم . والناس الذين يكتب عنهم . وكان هناك شيء آخر ملأه بفرح وسرور وابتهاج غريب لم يحس بمثله من قبل . فهو لأول مرة يحب ! صديق أنه كان يعجب بالحسناوات وحاول وهو يتعثر أن يطريهن متوددا اليهن .

ولكنه كان خجولا حياء امام النساء . انه يقدم لهن كل توقير واحترام ، ولكن مامن امرأة عرفها - والدته وشقيقته أو غيرهن - قد أعطته لمحة حنان ، أو الجمال المرتبط بالدفء العاطفى الذى يمكن أن يمنحه الحب . والآن هاهى ذى حياته تنقلب رأسا على عقب ! كانت تدعى فرانشسكا دى لاروزا . سمراء مليحة حسناء ذات أنفة وكبرياء ، ذكية جذابة . انضمت الى الفرقة بعد مغادرتها لمدرسة بوقت قصير ، لم ير ميغل لها شبها ولا نظيرا ، وهى تختلف عن بقية نساء الفرقة ، فبجانب أناقتها ورشاققتها كانت معتدة واثقة من نفسها ، مما يوحى بأنها ابنة احدى الأسر النبيلة . كان هذا أمرا عسير الانصديق ! فإذا كان الاحتمال بعيدا أن نجد رجلا نبيل الأصل كدون ميغل مثلا يجوب الطرق ويجوس خلال القرى والساكنر ، ويتنقل بين المدن مع فرقة متجولة من الممثلين ، فما بالنا بابنة عائلة نبيلة تصعد على خشبة المسرح ! لكأنها قفزت من أعلى صخرة عاتية أو قذفت بنفسها أمام جياذ شاردة جامحة ! انها فى هذه الحالة تكون قد انتحرت وماتت فى نظر الأسرة . ولكن فرانشسكا لم تعر الأمر التفاتا . قد يكون من الجنون فى تلك الأزمنة أن يفكر انسان أن امرأة لها حق الحرية ، وأن تشعر أن الحياة يجب أن يحددها المرء وفق ما تمليه عليه ارادته وليس خضوعا لشكليات التقاليد وأنماطها الرتيبة الجامدة . كانت على استعداد لتتحمل مسئوليات ما تعتقده وفق ما صوره لها خيالها ، وأن تواجه المضايقات والمزعجات وأن تتركب متن المخاطر . كان ميغل يجلس مجاورا لفرانشسكا داخل العربة التى تهتز وترتج بهما فى أثناء سيرها خلال المناطق الريفية وهى تستمتع اليه وقد سحرها بحديثه المثير وهو عن الجزائر وروما وليبانتو يحكى . ما أعذب أن يعمل فى إحدى المسرحيات وهو يرى فرانشسكا . . . الشعلة السمرراء تتألق مضيفة فى دورها الرئيسية . . . ما أمتع أن يخرج المسرحية وقد اندمجت روحهما وهما يعملان معا لخلق شئ بفيض معنى وجمالا . ولكن كان شيئا عجيبا ورهيبا فى نفس الوقت أن المشاحنات لم تلبث أن دببت بينهما . شئ مخالف لما يعهده ميغل مع والدته وشقيقته وقلّة من معارفه من النساء الأخريات فقد كانت الخلافات والمشاحنات تنشأ من « ماذا سيكون عليه الحال ، وماذا سيظن الناس » . ولكن فى هذه المرة نجمت المشاحنات عن اختلاف فى المبادئ ووجهات النظر وحقيقة ما يعتقد كل منهما فى أعماقه . فهى تخشى أن كل ماحدثها به عن مواهبها كممثلة سرعان ما سيتبخر إذا ما تزوجا حيث سيرغب فى اعتزالها المسرح عائدا بها الى مدريد فى ببت كئيب لتقبع بداخله الدونيا فرانشسكا لا تبارحه الا لحضور القداس !

ومع ذلك كانت الفترات بين مشاحنة وأخرى تمر حلوة عذبة حتى جاء صباح أغبر عندما لم يجدها من بين أفراد الفرقة الذين جلسوا فى الحانة ينتظرونه . وأخبره صاحب النزل بأنها رحلت فى ساعة متأخرة من الليلة البارحة . وناولها الرجل رسالة مختصرة لم يكن فيها أكثر مما فتئت تقول له . انها تهواه وقد تستمر فى حبه على الدوام . ولكنها تخشاه فهو يفوقها قوة وإذا ظلت بجواره فانه سيكسب المعركة ان عاجلا أو آجلا

وسيصنع منها المرأة التي يود لها أن تكون • وعندما يتحقق له ذلك سيزهد فيها • ولهذا فأنها تتركه قبل أن تسنح له فرصة يقلب لها فيها ظهر المجن ويهجرها •

حاول ميجل أن يقتفى أثرها • أن يعثر عليها ليعيدها ويتزوجها • أعياه البحث عنها وهو يستحث الخطى وراءها قلقا مضطربا بعد أن زانه هدوء المعهود • ذهبته جهوده كلها أدراج الرياح إذ لم تترك فرائشها أثرا يمين عندها بعد أن فرت •

مرت الأيام وميجل يتقلب على الجمر لا يذوق النوم في لياليه إلا لما • أخذ يستعرض شريط حياته التي لم تستقم له وبدأ له أنه خسر كل شيء تمناه • لقد رغب أن تواته فرصة للقتال في شجاعة وبسالة كجندى ولكنه قاتل للحظات قصار في معركة ليبانتو • وعندما كان في طريقه للثروة وللعادة القتال مرة أخرى وقع في أسر القراصنة • حاول الهرب المرة تلو المرة فمضى بالفشل • حاول أن يخدم مليكة في أية وظيفة فعادته الفشل ثانية • وهاهو ذا أخيرا قد وجد امرأة يحبها • امرأة بكل معاني الكلمة • آبية النفس • ذات أنفة وكبرياء • تتوقد ذكاء والمعية • ساحرة جذابة • متقدة العواطف • وقد فقدتها هي الأخرى •

عاد اليه الهدوء في تلكؤ وهو يمضي كئيبا حزينا في أطار من الانقباضية • ولكنه مع ذلك كان يبتسم ويضحك لما يصك مسامعه من هزل ومزاح • كانت الضحكات المكتومة تنبعث منه بينما يضىء وجهه عندما يضيء النظارة بالضحك أمام أحد مشاهده الكوميدي فوق المسرح ولكن لا يلبث أن يعود الى وجهه الوجوم والحزن • فهو لم يكن سوى الفارس الحزين الطلعة الآن - كما سيطلق هذا الاسم ذات يوم على دون كيخوتى مستقبلا •

بأت السفر مع المجموعة لا يحمل اليه سحره القديم • انه لا يعدو أن يكون حرفة وتجارة • فبعد كل ليلة يحصى عائد المسرحية ، فإذا كان أقل مما يأمله ، كان يذهب الى الممثلين ليخبرهم بالرحيل في صبيحة اليوم التالي • وكان أحيانا لا يجسد من النقود مايكفى لتوزيعه على أفراد الفرقة •

بدأ ميجل يراوده التفكير في تأليف كتاب • ولم يكن يدري عما إذا كان ذلك سيدر عليه مالا أكثر أم لا • ولكنه من المؤكد أنه سيحظى بمزيد من الشهرة والتقدير والاحترام إذا لاقى في عمله نجاحا •

لم تمض فترة طويلة قبل أن يتصادف وجود ميجل في مدريد لمدة وجيزة • وهناك قابل الناشر خيل روبلس الذي سأل ميجل إذا كان يروقه أن يكتب له رواية • وافق ميجل في الحال رغم أنه لم يكن يميل كثيرا الى

ذلك النوع من الروايات الذي يبيغيه الناشر . . فهو يريد رواية رعوية تتضمن مغامرات عجيبة وأن تكون حبكتها ذات علو وسمو ويختلط فيها الآلهة والبشر . انه طراز من الكتب لايميل منه الناس . بينما ميّجل لا يرى في ذلك سوى نوع مستهلك من الروايات التي تدور أحداثها في المراعى . غير أن روبلس كان واثقا من أن ميّجل سينتج الرواية التي ينشدها حتى انه نقده مبلغا كبيرا من المال مقدما . كان ذلك تحديا لمهارة ميّجل الأدبية . . انضم ميّجل ثانية الى فرقة الممثلين وأمضى وقتا مودعا أياهم وقفل راجعا صوب مدريد ليشرع في كتابة أول رواية له .



عاد ميّجل الى منزل والده في مدريد ، واتخذ من غرفته القديمة ملاذا له وعريضا يتحرك فيه بحريته . شعر ميّجل بأنه أكثر التصاقا بوالده الذي رآه الآن بوضوح رجلا بالغ الكمال ، ومازال محافظا على شخصيته . . واذا كنا سنتحدث عن طبيب كرس نفسه لمساعدة الآخرين في تفان وإخلاص فاننا لن نجد أحق من دون رودريجو . فهو لا يعنى فقط بمرضاه ولكنه أيضا العالم الذي يريد أن يتعلم كل شيء عن الأجساد البشرية . . فبينما كان يبذل قصارى جهده لعلاج إحدى القروح ، فانه يلاحظ نموها باهتمام . وعندما يصطحب معه أحد تلاميذه ، فان حماسه يبلغ أشده وهو يشاهد الغنغرينا بعين رجل العلم .

وفي احوال نادرة قد يمر أحد زملاء دون رودريجو ويستصحبه معه تحت جنح الظلام الى أحد المنازل الغامضة للاستماع الى دروس في التشريح يلقيها بعض الأطباء . وهذا يعنى تشريح جثة آدمية . . شيء محرم تماما . وكان الأطباء الذين يشتركون في هذا العمل يشعرون كما لو كانوا من المجرمين . لاشك انه لم يكن من السهل الحصول على المعلومات من الكتب التي لم يكن متوفرا منها غير القليل ، وكانت باهظة الثمن وغير دقيقة . وكان الكتاب الوحيد الهام هو الذى ألفه أندرياس فيزالْيوس الذى ولد في بروكسل عام ١٥١٤ وكان أبوه وأجداده من الأطباء . . التحق بجامعة لوفان ببلجيكا ثم درس في جامعتي مونبلييه وباريس . وكان يعجب من جمود أسانذة الطب الذين ظلوا قرونا عديدة يدرسون آراء جالينوس ونظرياته دون تحويل أو تعديل . وكان فيزالْيوس يتوق الى دراسة تشريح الجسم الأدمى دراسة صحيحة لمعرفة ما تسببه الأمراض لأجزائه المختلفة . ولكن الكنيسة في ذلك الوقت كانت تعارض تشريح الجسم الانسانى معارضة شديدة ، وكان الموت جزاء كل من يجرؤ على العبث بحث الموتى . الا أن فيزالْيوس كان جريئا مغامرا فاذا به يتسلل الى التلال خارج أسوار لوفان ويسرق جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الاعدام هناك ، وينقلها الى منزله ويعمل فيها مبضعه . وكان يرسم أجزاء الجسم المختلفة بدقة ، وعندما يحس بالخطر كان يجمع رسومه الثمينة ويلوذ بالفرار . وأخذ يتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الى ايطاليا حيث

كانت حرية العلم مكفولة في ذلك الوقت ، وعين أستاذا للتشريح بجامعة بادوا . وهناك أصدر كتابا في التشريح أسماه « تركيب الجسم الانساني » . وقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل مولد ميكل دي ثريانتس ببضع سنوات . ورغم وضوح هذا الكتاب عن تركيب الجسم الانساني الا أنه كان بعيدا عن أن يكون كاملا بسبب اغفال كثير من التفاصيل .

نعود الآن الى ميكل في منزل أبيه حيث بدا الزوج والابن غربيا الأطوار في نظر المسكينة دونيا ليونور . فأحدهما وهو الزوج كان يضيع وقته متلهفا على البحث والدراسة بدلا من السعى وراء المرضى الأثرياء الذين يجزون له العطاء . والثاني وهو الابن عاد الى المنزل لا لشئ اللهم سوى الانكباب على الكتابة . وكانت تخشى الا يملك ميكل كثيرا ، وأن أي استدعاء - قد يكون الى المسرح أو لأي واجب آخر سيبعده عنها ليبدأ حياة التجوال والطواف مرة أخرى . ففكرت مليا في كيفية جعله يستقر ، فهي برغم أنه خيب أملها عدة مرات الا أنها مازالت متعلقة به ، وهي اذا ما عثرت له على زوجة فان الزواج لاشك سيقص أجنته . وهذه الفكرة كانت تراودها منذ جاءوا الى مدريد سواء أكان ميكل قريبا أو بعيدا . كانت تريد له عروسا من عائلة نبيلة ، انها تعتبر ميكل رجلا غير عادي لأنه ابنها ، ولكنها لا تنكر حماقته في شئون الحياة العملية ، وأنه لا يستطيع كسب عيشه . وأخيرا وجدت ضالتها المنشودة في ابنة شقيق أحد القساوسة وتدعى كاتالينا دي بلاثيوس سالاثار بوسميديانو من اسكوبيباس وهي قرية لا تبعد كثيرا عن مدريد . وأسرتها تعيش حياة الفلاحين الا أنها ذات طابع نبيل . العروس مليحة طاهرة عفيفة في الثامنة عشرة من عمرها . وكانت تعيش في عزلة .

كان ميكل منهما في تأليف روايته التي انتهت من وضع تخطيط لها ، وقرر أن يعطيها عنوانا : « لا جالاتيا » عندما سمع والدته تتحدث عن الزواج ، ولكنه لم يأخذ كلامها مأخذ الجد ، فقد سبق أن طرقت هذا الموضوع لعدة سنوات .

احس ميكل بصدمة من الفزع البارد عندما أدرك أن والدته كانت جادة هذه المرة في موضوع زواجه ، وأن الأمور وصلت الى الحد الذي يتطلب منه مقابلة عروسه المنتظرة كما أخبرته أمه . وإذا به يرفض بشدة ، فلطالما سأل فرانشسكا أن تتزوجه ، ولكنها ذهبت فلم يعد يفكر في الحب ولا في الزواج . غير أن دونيا ليونور أصرت قائلة ان من واجب كل رجل أن يتزوج وأن يكون له أسرة . ألا يرغب في أن يكون له أبناء يحملون اسمه ؟ وزوجة ترعاه بعد أمه التي لن تخلد له ؟ وهكذا ظلت تتحدث وتلح حتى بدأ ميكل يلين تحسده رغبة في أن تعيش أمه في هدوء مهما كان الثمن . ثم أنها كانت محقة في كثير مما قالت له . ومن أدراه أن هذه الفتاة الصغيرة قد تميد اليه قليلا من الدفء الذي ولى منذ قادته فرانشسكا . ربما . وأخيرا وافق والدته .

وعندما سمح لميجل برؤية كاتالينا ، ذهب مترددا وقد ألحت عليه ذكريات قديمة • أنه لا يريد أن يتورط مرة أخرى في انفعالات مؤلمة • ليس من حقه أن يقدم لفنائة صغيرة بريئة قلبا تمزق وأصبح باردا • ولكنه عندما رآها ، من خلف قضبان نافذة الطابق الأول من بيت المزرعة ، شاهد صديقة جميلة ناصعة البياض وجذابة تفيض بالحياة والثقة فلم يسع ميجل إلا أن يقدم لها بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد هادئا وهو يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يعترض ؟

حل يوم الزواج في الثاني عشر من ديسمبر عام ١٥٨٤ ، ولابد فيه من مظاهر الفرح والسعادة والغبطة • كان كل واحد يعلم جيدا لماذا يتزوج هذان الاثنان ، ومع ذلك كان هناك وهم وخيال يعيش فيه الناس • فهل كان حقا ما يجمع عليه الناس والكتب والشعر والمسرحيات من اطراء ليوم الزفاف كقمة السعادة في حياة الانسان ؟ أم أن الواقع نفسه ما هو الا وهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا يكون الوهم ؟ ومهما كان ما يدور في ذهن ميجل من افكار خفية ، فإن الزواج تمت مراسمه • ومن الطريف أن بائنة كاتالينا ، كانت مكونة من منزل وبعض الأراضي المزروعة بالكروم والفاكهة ، وأربع خلايا نحل • هذا غير الاثاث وبعض الملائع الفضية ومقلاة ، وخمس وأربعين دجاجة ، وديك واحد •

عاش الزوجان في الفترة من ١٥٨٥ حتى عام ١٥٨٧ في اسكويبياس ، وكانا يترددان في اثنائها على مدريد لشئون تتعلق بكتابات ثربانتس •

وتمضى الأيام وميجل مستمر في كتابة روايته حتى انتهى منها وبعث بها للناس • وبدلا من أن يسر ويبتهج لذلك كان يشعر باعتلال مزاجه وبالحنن يتسرب الى نفسه يوما اثر يوم • • وكلما ازداد تقبل نساء أسرته لكاتالينا كلما زهد فيها وبدأت بعيدة عنه • ماذا دماه عندما وافق على الزواج ؟ ربما كان مستغرقا في كتابة روايته حتى أنه لم يكن يفكر على الإطلاق • ولكن هاهي ذى الامور تتضح أمامه عندما انتهى من روايته • ماله والزواج • يبدو أن فرانثسكا كانت تعرفه أكثر مما عرف نفسه • • فهو حين يظن أنه يريد الزواج ، ويتحقق له ذلك فإنه سيشتعر بوقوعه فريسة في الشرك ، يطارده استبداد وطفغان الزواج بما فيه من رتابة وسير على وتيرة واحدة وتمسك بالشكليات •

لم يبتهج ميجل ولم ترتفع معنوياته عندما نجحت روايته «لا جالاتيا» - لقد تردد على المقاهي ليجد أصدقاءه يأخذون الأمر مأخذ الجد ، وشعر بخرج أكثر مما يحتمل • إلا يستطيعون رؤية أنه لم يكن هو الكتاب الذي يريده ؟ ألم يفهموا أنه لا يتعدي كونه تمرين أدبي سيق اليه وقرض عليه ؟ وهو لا ينكر أنه قام بهذا العمل بطريقة أفضل مما يتوقع ، ولكنه لم يخرج عن كونه رواية رعوية ، زادت تلك الروايات واحدة بمناظرها غير الواقعية وحبكته التي تترك قارئها يحار اعياء • إلا أن الرواية لم تكن تخلو من

الخيال الجامح والطرافة ، رجاءت لغتها أرقى من معظم مثل هذه الروايات
• غير أنها لم تكن تحوى شيئاً من نفسه وذاته •

وبعد أن مارس الكتابة ووجد للنجاح طعماً مسطماً لا نفع فيه ،
عادته فكرة الالتحاق بالجيش أو العثور على وظيفة تابعة للحكومة •
لم يكن مثل هذا التفكير غريباً الآن إذ أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد
أن في إمكانه أن يجد شيئاً مناسباً لسنه وقدراته • فقد عمت البلاد روح
جديدة ، ودب فيها النشاط وانتشرت الأنباء بأن أسبانيا تبنى أسطولا
ضخماً لمهاجمة إنجلترا •

- ٧ -

الـسـكـارثة

اجتاح الغضب أسبانيا من أدناها الى أقصاها ، وامتلات بالعداء
نحو إنجلترا وخاصة اليزابيث الملكة العنيدة التي كانت تقول عن نفسها
أنها تمتلك جسد المرأة الضعيف ، ولكن لها عقل الرجل ومعدته • وقد
أكدت كل أفعالها ذلك الحكم الذي أصدرته على نفسها •

وقبل أن ترتقى ابنة هنرى الثامن وآن بولين العرش ، كانت إنجلترا
تتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية • وعندما أصبحت اليزابيث ملكة
إنجلترا بدأت قسوتها تزداد نحو الكاثوليك ، وصارت تؤيد البروتستانت
ضدهم •

كانت أسبانيا تحكم الأراضي الواطئة ولكن البروتستانت كانوا دائمي
التمرد هناك ، الأمر الذي استدعى وجود الجيوش الأسبانية • ولم يزل
رودريجو شقيق ميغل يقاتل هناك مواصلاً المعارك التي خاضها لعدة
سنوات مضت •

وأمدت اليزابيث المتمردين بالسلاح والمؤن • ليس هذا فحسب ، ولكن
كانت ، بفنها في أعالي البحار تهاجم الفرقاطات الأسبانية العائدة من
المكسيك ، وتقوم بسلب ونهب ما تحمله من كنوز • وكان قباطنة هذه السفن
رجال من أمثال دريك ورالى ومركز قراصنة في نظر العالم ، ولكن في
إنجلترا كانت الملكة تغدق عليهم الألقاب ، وتكافئهم بنصيب من الغنائم •

هذا عدا بعض المغامرين الانجليز الذين كانوا يرسون على البر في بعض أنحاء أمريكا الشمالية ، ويحتلون بها باسم الملكة اليزابيث . وتمادت الملكة في مناوأة أسبانيا فأمرت بأعدام ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا . وكانت الملكة اليزابيث قد زجت بها في السجن بتهمة التآمر ضدها . واحتز الجلاء رأسها عام ١٥٨٧ . وتجاهلت أسبانيا أى أسباب سياسية بررت بها اليزابيث فعلتها . لقد قتلت ماري بسبب عقيدتها الكاثوليكية . وغلت مراجل الغضب في عروق الأسبان ، وذاق كل فرد منهم آلاما مبرحة كما لو كانت أخته هي التي سيقت الى الموت .

ووسط هذا الهياج الشعبي لما اعتبروه اغتيالا ، أبحر السير فرانسيس دريك الى ميناء قادس حيث كان أسطول أسبانيا التجارى الرئيسى راسيا هناك . واستطاع دريك أن يحرق ويغرق أكثر من نصف سفن الأسطول . وقبل أن يتمكن رجال المدفعية فى استحکامات الميناء من أحكام تصويب مدافعهم ، استدارت سفن دريك مسرعة الى أعالي البحار مرة أخرى .

اشتعلت أسبانيا كلها بالغضب العنيف . وكان فيليب يعد أسطولا ضخما . . . الأرمادا كأقوى أسطول حربى لم يشهد له التاريخ مثيلا حيث سيعبث بجيوشه الى انجلترا للاطاحة باليزابيث .

وفي أثناء هذا النشاط والثوران الذى عم أسبانيا عاد ميغل يقدم طلباته ملائمة وظيفة فى أى مكان لخدمة ملكه . ولم يلبث أن توفى أبوه الذى تجاوز السبعين عاما فى الثالث عشر من يونيو عام ١٥٨٥ فترك ميغل يعانى من فقدته كثيرا إذ كانا متفاهمين ، ويحترمان كل منهما الآخر ، ولهما نظرة مماثلة فى الحياة .

كان على ميغل أن يقسم وقته بين زوجته وبين أسرته .

جاءت الفرصة التى ينتظرها ميغل حيث عين فى بداية عام ١٥٨٧ فى وظيفة محترمة تتيح له استخدام نكائه فى خدمة ملك البلاد كضابط امدادات وتموين ووكيل مفوض لتوريد الزاد والمؤن للأرمادا . الأسطول الذى يبنى على وجه السرعة . انه دائما يحلم بأن يكون جنديا . وضع ميغل شعار النبالة على سترته ، وكان عليه أن يمتطى صهوة جواده يتبعه بضعة جنود وعربة لتحصيل المؤن من الأغنياء والفقراء الذين وجبت عليهم التضحية من أجل نصرة أسبانيا . ولما كان عمله يقتضيه كثرة السفر فقد وجد ميغل أنه من الأفضل له الإقامة فى أشبيلية . أما زوجته فقد ظلت وحدها بمنزل اسكريبباس فى انتظار المبالغ الهزيلة التى يرسلها لها الشاعر ضابط الامدادات والتموين .

ذاق ميغل مرارة الفشل فى زواجه وترك زوجته فى نهاية عام ١٥٨٧

وأضى عشرين عاما في السفر والترحال سعيا وراء لقمة العيش .

اتسعت منطقة عمليات ميجل لتشمل تلال سبيرا مورينا والمناطق المتاخمة لها في جنوب إسبانيا . سر ميجل لهذا النجاح الذي حققه، فها هو ذا سوء الحظ الذي لازمه كثيرا قد ولى . ولكن مهلا . . . ففي عام ١٤٨٨ بينما كان يتجول في المنطقة الجديدة وصل الى دير في أثيخا . ولكنه قوبل بالمقاومة والتحدى من رئيس الدير ورهبانه وأبوا أن يرشدوه الى مخابىء اطعمتهم وصبوا عليه لعناتهم كما لو كان هو المسيح الدجال . وذهبت كل قصاحة ميجل أدراج الرياح ، فما كان منه الا أن أمر جنوده بتفتيش الدير بحثا عن مخازنه وأقبيةه للاستيلاء على جزء عادل من المؤن والمواد الغذائية . وعندما امتطى ميجل جواده راحلا شيعوه بما يشبه المناحة وهم يتوعدونه مهددين .

وبينما كان يسير مع جنوده في أشبيلية بعد عدة أيام لحق به رسول وسلمه طلبا باستدعائه للمثول أمام محكمة التفتيش الرهيبة الشهيرة بتطرفها في العقوبات من مصادرة للأموال وحرق للضحايا .

وقف ميجل أمام ديوان التفتيش وتليت عليه عريضة الاتهام باللغتين اللاتينية والإسبانية . انه لم يقترب سحرا أو يرتكب هرطقة ضد الكنيسة . . . انصب الاتهام على ما فعله في أثيخا وما استولى عليه من مؤن الدير، وكان عليه أن يعلم أن الأديرة مستثناة من هذا الأمر . أو لم يدرك من تلقاء نفسه كمسيحي أنه من الواجب احترام اعتراضات الرهبان وعدم المساس بقديسية الدير وحرمة . ولدعشة ميجل كان القصاص أخف ما صدر من عقوبات . . . انه انذار مصحوب بالحرمان الكنسي لعدة شهور . كان يشق على الكاثوليكي الزمن أن يحرم لأي فترة مما تتيحه له الكنيسة من نعمة وعزاء وسلوى وبركات وامتيازات . ولكن ميجل مازال حيا يرزق متمتعا بحريته ولم يفقد وظيفته . وغادر المحكمة ليواصل رحلاته في طريق الأندلس يحمل العربة بشحنة وراء شحنة من المؤمن من أجل الأرمادا .

وفي ربيع عام ١٥٨٨ سمع ميجل بأن الأسطول على أهبة الاستعداد . . . كان مكونا من غلايين ضخمة وهي سفن شراعية عملاقة لم تشهد لها البحار مثيلا من قبل ، والعديد من السفن الشراعية الكبيرة ذات المجاذيف والتي كانت تسمى الواحدة منها باسم القادس . أطلق الملك الحذر على الأرمادا لقب الأسطول الذي لا يقهر والذي سيحمل جيشا يغزو أراضي انجلترا عقابا لاليزابيث التي ستسحق لا محالة .

بقى ميجل في أشبيلية الآن متلهفا على الأنباء . وبينما كان الأسطول على وشك الانقلاع مات قائده الماركيز دي سانتا كروث ، ومرت بضعة أسابيع قبل أن يعين بدله . ثم غادر الأسطول الميناء فأحدثت به عاصفة هوجاء مما اضطرت معه السفن الى العودة لأثذة بمرقا لأكرونا .

انقضت أسابيع عديدة انتشرت بعدها الأنباء في أشبيلية عن اقلاع الأسطول . كان الوقت ضيقا ، ومع حرارة شهر يوليو لم يكن هناك غير الصمت الذي دهش له ميجل مع رفاقه وهم يجلسون في المقاهي وكلهم شوق ولهفة لسماع الأجراس وهي تصلصل معلنة النصر . في ذلك الوقت كان الرسل يعملون مهمزاتهم في جوانب جيادهم وهي تنهب الأرض ، يحملون التقارير للملك من الشساطيء الأوروبى ، غير أن أحدا لم يكن يعرف ما تحويه . خيم الصمت على البلاد ، وبدلا من دقات أجراس الكنائس اقيمت الصلوات داخلها من أجل الذين لقوا حتفهم في البحر . وبينما رياح الخريف تزمجر في خليج بسكاي كان الناس ينتظرون وهم يتعلقون في يأس بحدوث إحدى المعجزات . ثم عادت السفن . . في مجموعات صغيرة تلهث لائذة بموانئ أسبانيا . انتظر الناس بقية السفن . ولكنها لم تعد .

صاح ميجل مع كل أسبانيا : « ماذا حدث ؟ » . وأخيرا بدأت تفاصيل الكارثة تجيء . لقد اجتمع سنوء الحظ ، ورداءة الطقس ، والاستخفاف بقوة العدو . . فحلت الكارثة . هذا بالإضافة الى عامل آخر هو الاستراتيجية . لقد استعمل الأسبان السفن لتحمل جيشا عبر البحر ليقاتل معركته فوق الأرض . وحتى إذا جاورته سفن الأعداء جنباً لجنب فإن الخطة مازالت تقضى بالاستعانة بسطوح السفن كأرض للمعركة يحارب من فوقها الجنود . لم تهتم أسبانيا ولم تكن على وعى ، بالدور الذى يلعبه البحارة في الحرب . كانوا يمجدون الجندى مستخفين بالبحار ويرون فيه رجلاً يحتاجونه لا يصلح الجندى الى وجهته . أما الانجليز فقد كانت لهم فكرة مغايرة . ان سفنهم محتشدة بالبحارة لا الجنود . . وكانت سفننا صغيرة سهلة الحركة تجيد المناورة . كما أن الانجليز من ذوى المهارة الفائقة في البحر .

لقد سبق أن خاض ميجل معركة ليبانتو . . فلماذا اذن لم ينتصروا هذه المرة ؟ ولكن انى له أن يعرف ذلك .

ان التاريخ يحدثنا عن أن معركة ليبانتو كانت آخر معركة بحرية كبيرة وقعت بالأسلوب القديم الذى يستعمل السفن لحمل الجنود الى مكان المعركة . وسواء حاربوا فوق الأرض أو أسطح السفن فانهم يقاتلون على طريقة الجيوش البرية . ولكن المعركة الكبرى التى دارت رحاها في القنال الانجليزى بين الأرمادا والأسطول الانجليزى كانت أول معركة بحرية بالأسلوب الحديث حيث تستعمل السفن كسفن وليسست كمنصات أو أرضية ، مع الاعتماد على دقة التصويب عند اطلاق النار ، والمناورة والدائرة والمناورة وسرعة الحركة .

وهكذا لم تستطع السفن الأسبانية الاقتراب من شواطئ انجلترا لمحاول انزال الجنود الى البر ، وتبعثر الأسطول ومتى بالهزيمة . وكان

هناك جيش، يقف على أهبة الاستعداد فوق الأراضي الهولندية ، ولكنه كان في حاجة الى السفن . فظل محبوسا عند مصب أحد الأنهار لم يبارحه جندي واحد .

حاول الاسبان أن يتجمعوا مرة أخرى ، ولكن الوحدات الانجليزية كانت لهم بالمرصاد . فادى ذلك ، مع الريح المضادة ، الى ابعاد الأرمادا الى بحر الشمال . ولتفادى الأسطول الانجليزي ، دارت السفن الاسبانية حول الجزر البريطانية الى شمال اسكتلندا محاولة الإبحار الى الجنوب مرة أخرى عبر البحر الأيرلندي . انتشرت الأمراض بسبب رداءة المياه وقساوة اللحوم . عربد الموت بين الجنود والبحارة من جراء تفشى التيفوس والكوليرا . واكتسحت الأمواج الهائجة والرياح العاتية الكثيرين من فوق ظهور السفن وألقت بهم الى البحر . لم يعد من السفن سوى النصف ، وبقي جزء صغير من بحارتها في صحة سليمة . ونقل الجرحى والمرضى الى الشكنات والمستشفيات للعلاج . وهكذا أفل نجم اسبانيا ، وانتهى مجدها ، وضاعت سيطرتها على البحار ، وفقدت حكم الأراضي الواطئة ، وزالت عنها السيطرة على العالم .

لم يكن كل هذا واضحا لميجل ولا لأصدقائه ومعارفه . شيء واحد كان واضحا وهم جلوس مثقل النفس حول المناضد في المقاهي محاولين أن يتقبلوه وهو أن الأرمادا . . الأسطول الذي لا يقهر قد لاقى الهزيمة وتحطم ، ولم تعد له قائمة رغم ما بذلوه من جهود ، وماداعب أحلامهم من آمال ، وما أدوه من صلوات . اللهم لا اعتراض على مشيئته ، ومازالت أجراس الكنائس تصلصل مختلطة بأصوات المصلين وهم يسبحون بحمد الله . وركع الملك لساعات طويلة وهو يؤدي الصلاة .

نم تعد هناك حاجة الى ضباط امداد ولا لمتعهدي توريد المؤن لأسطول أو جيش . ولكن ميجل مازال اسمه مدرجا في قائمة العاملين . واستمر يقدم التماساته للاحاقه بأي عمل يتاح له ضمن العديد من الوظائف الحكومية . كان يتوق الى الحصول على أحد المناصب من التي لا يقوم أصحابها بأي عمل في المكسيك أو بيرو . . وهما من الأسماء التي كان يطرب لسماعها الناس لما يرتبط بهما من أغراء وثراء . ولكن حلمه تبخر وعين في عام ١٥٩٤ جابيا لأضرارائب . . وهي وظيفة شاقة ، وظل مركز الإدارة الدابع له في أشبيلية بعضا من الوقت .

ميجل في السجن

اقام ميجل في اشبيلية في غرفة صغيرة بسيطة في نزل يمتلكه أحد أصدقائه ، كان يعمل ممثلاً وتعرف به من أيام المسرح .

واصل ميجل طوافه وتجواله فوق صهوة جواده عبر جبال الأندلس الوعرة . وخلال مهمته الشاقة رأى القحط يستشري في كل مكان ، وأذل الفقر أعناق الرجال . هل يعلم الملك ذلك ؟ نعم . وكانت النتيجة مزيداً من الضرائب .

اختلط ميجل بالفلاحين والتجار وأصحاب الحرف والنبلاء في القرى والمدن الصغيرة واستمع لحكاياتهم كما استمعوا لما كان يقصه عليهم من أنباء وقصص . وتعلم إيقاع حياة الناس في الأندلس ولغتهم . وهكذا عرف أسبانيا التي تحيا بعيداً عن الشكليات التقليدية من طقوس المراسم والتشريعات ، وسلوك المنافقين في مدريد وأشبيلية . نعم . لقد رأى أسبانيا من خلال أبنائها الذين يفلحون أرضها وظلوا محتفظين بقلوبها مستمرا في نبضه .

ظل ميجل سنيماً عدة يواصل عمله لا في الأندلس فحسب ، بل أحياناً في قشتالة أيضاً أو ليون أو لامانتشا .

انه الاسم الذي سيجعله ذات يوم شهيراً تدوى أصدائه في كل أنحاء العالم ، فقد اختاره من بين أقاليم أسبانيا كلها ليكون موطناً لغارسه العبقري النبيل دون كيخوتي . فهل كان هناك شيء خاص بإقليم لامانتشا جعل هذا الاسم يظل حياً في عقل ميجل ؟ لا نظن لأنه في لامانتشا كان هناك نفس الفقر الذي وجده في كل مكان ، وكانت هناك نفس الشكاوى ، ولذنه وجد وراءها نفس الناس عندما سبر ما تحت السطح . متلهفين قلقين مشغولي البال من أجل المستقبل يتشددون فيه أملاً وفجراً جديداً .

الأعوام تنقضي وميجل يراقب ويلاحظ . فنهناك من يخدعونه فيظهرون مالا يبطنون ، وهناك من يطلبون منه الرحمة والشفقة كما لو كان جلاداً ، بينما يتعاون معه آخرون بحثاً معه عن حل مناسب لمشاكلهم . وكان هذا من ميجل فهما لروح القانون لا حرفته . وهو ما درج عليه في مهنته هذه . ورويدا رويدا وجد أنه يمكنه الاعتماد على حكمه وقراسته عندما يمنح أحد الرجال ثقته ، فلم يخيب ظنه أحد .

واكن في عام ١٥٩٢ جاء الوقت الذي لم تكن فيه ثقة ميجل في محالها

٠٠ لقد أقسم له أحد التجار بيمين مغلظة أنه سيدفع ما عليه في اليوم التالي . صدقه ميغل واستأمن جانبه وخاصة أنه في ذلك المساء كان عليه أن يسوى دفاتره كما اعتاد ذلك ، فدون دين التاجر على أنه دفعه ٠٠ وعندما توجه ميغل الى التاجر في اليوم التالي لتحصيل المال وجده قد اختفى ولم يعثر له على أثر . ولسوء حظ ميغل كان الوقت قد حان لتقديم دفاتره في اشبيلية للفحص الدورى ، وهناك اكتشفوا المخالفة ، ولم يجد الشرح والايضاح فتيلا أمام أولئك الموظفين الصغار الذين لا يعلمون شيئا عن السنين الطويلة التي خدم فيها ميغل أمته وأدى عماله من أجلها في أمانة . هزوا أكتافهم ولووا أعناقهم مستنكرين ما وقفوا عليه . وأخبروه أنه حتى يتم التحقيق والبحث والتحري عن هذا الموضوع فإنه لابد أن يزجوا به في السجن . واقتيد ميغل خلال ممرات طويلة وصعد درجات كثيرة ، وهبط أكثر منها حتى أوصلوه الى أحد الأبواب التي تنبعث من خلفه جلبة وضوضاء . فتحت الباب ودفعوا بميغل في قسوة الى داخل غرفة معتمة حيث استقبل بصياح أشبه بالنباح ، ورمقه النزلاء بنظرات عدائية وأطلقوا صفيرا عاليًا استهزاء به . كان الهواء عبقنا فاضطر ميغل أن يمسك شهيقه وهو يدير عينيه خلف الجدران باحثا عن مكان يجلس أو يرقد فيه فإذا به يلاحظ أن الغرفة كانت مرتعا للفيران . استطاع ميغل بعد بضعة أيام أن يكتسب ثقة النزلاء واستمع اليهم في صبر وأناة وثقة . ولو أن القصص التي سمعها كانت من نشالين ولصوص وقطاع طارق وقتلة ماجورين . استمع ميغل اليهم دون أن يستطيع لهم نصحا أو قولا أو فعلا ما عساه يغير من المصير الذي ينتظرهم ٠٠ كانت المشائق تنتظر ظامئة أعناق القتلة . ملأت حكاياتهم قلبه حزنا . فبرغم كل ما شاهده وعرفه من بؤس وشقاء وفزع ، لم يكن يعرف رجالا يمكن أن يهبطوا الى هذا الدرك من الخسة والاجرام ، وفساد الأخلاق . ولكن رغم كل هذا الانحطاط والفحش والشناعة فقد كانوا لايزالون بشرا مثله يرتجفون خوفا أمام المجهول ، يبحثون عن العزاء والسلوى في التعاطف الانسانى معهم وأن يلاقوا قبولا لدى الآخرين .

قام موظفون كبار ، في مرتبة أعلى من مستوى الموظفين المحليين ، بفحص دفاتر ميغل وأثبتوا أن كل ما أدلى به كان صدقا وكتبوا تقريرا عن كفاءته كجانبى ضرائب ، ومهما كانت طريقته فقد أثبتت نجاحها بعد أن اكتشفوا أنه استطاع أن يحصل الضرائب من نبلاء وفلاحين على السواء كانوا قد أسقطوهم من الحساب كمالات ميثوس منها .

أطلق سراح ميغل ، ومنحه موظفو الملك ثقتهم فضموا الى دائرة نفوذه عقارات هامة وحالات تتضمن مبالغ ضخمة .



مرة أخرى جلس ميغل فوق السرج وحصانه يركض به عبر الفيافي والقفار متقللا من مكان الى آخر ، وتمضى خلفه العربية يحف بها الجنود

من الجانبين لحراسة ما تحمله من عملات معدنية يسيل لها لعاب اللصوص .

لم يكن لدى ميغل وقت للكتابة . ومرت أربعة عشر عاما وهو مازال يتجول فوق صهوة حصانه في مهمة من أجل الملك بينما حالة أسبانيا المالية تجري من سيء إلى أسوأ . فكان ميغل في بدء تعيينه قد رأى الفضة، والآن لا يرى شيئا غير النحاس . وحتى ذلك المعدن كان ممتزجا بالقصدير . ان الضرائب المدفوعة بهذه العملات المعدنية كانت تثقل صناديقه . وكان نقلها من المنبع الدفع الى حيث تسلم يكلف أحيانا أكثر من قيمة المال المنقول الأمر الذي ألقى ميغل حتى وجد للمشكلة حلا ، فاختار بذلك سيمون فريير بمدينة أشبيلية ليودع فيه المبالغ المتحصلة باسم صاحب الجلالة . وأثبتت الخطة نجاحها ، فقد أصبح ينجز عمله على وجه أسرع . وذات يوم لم يصدق ما حدث عندما وجد أن صاحب المصرف قد اختفى فضاغت عليه الأموال التي أودعها من عدة أشهر مضت ، والتي بلغت ثلاثة ملايين مارابيديس . جاءت الأوامر الى ميغل للعودة فورا الى مدريد لعدم انتظامه في دفع ما يحصله من ضرائب . وقف ميغل أمام قضاة كانوا يطبقون حرفية القانون ، فبسبب إهماله خسرت الدولة كمية من الأموال ما كان أشد حاجتها اليها . وأنه من تلقاء نفسه وعلى مسئوليته ودون أن يرجع الى رؤسائه لجأ الى صاحب مصرف خاص كوسيط . وهو بفعلته هذه يكون قد تجاوز سلطته وتعداها .

وهكذا دخل ميغل السجن مرة أخرى . انه رجل لازمه سوء الحظ . . . رجل أصبح الآن معتادا على السجن . فقد كان سجيناً في الجزائر ، سجين أحساسه في قلعة نابولي ، سجين ديوان التفتيش ، سجيناً في بلاده منذ ست سنوات مضت .

وهناك من وراء قضبان سجن أشبيلية ، ومضت فكرة دون كيخوتي في ذهن ثريانتس إذ نراه يقول في مقدمة روايته أنها نبعت في سجن موحش حيث يعيش البؤس والشقاء ، وتردد الجدران أصوات مقفلة بالأحزان والآلام . وهاهو ذا يطلب ورقا وريشا قلميا وحبرا ويجلس الى منضبته الكسيحة وبدأ يكتب :

« في قرية من قرى المانششا ، لا أريد أن أنكر لها اسما ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش تبيل ممن في معلف دوابهم رمح ، وترس عتيق ، وقرس هرم هزيل ، وكلب سلوقي للصيد » .

كان القلم في يده يسرع تارة ، ويتردد تارة أخرى ، ويتوقف أحيانا ثم يعود فيسرع مرة أخرى . « وكان صاحبنا التبيل يشارك الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا مولعا بالصيد . وكان يقال انه يلقب كيخادا أو كيسادا . . » .

اذن فقد بدأت الرواية ، رواية كيخادا أو كيسادا ٠٠ هذا الذئيل
الذى سمنى نفسه باسم دون كيخوتى !

وهكذا نبضت الشخصية بالحياة وأصبحت ذات اسم وتمثلك جوادا
وصارت على أهبة الاستعداد لامتطاء صهوته ٠

لم يكن ميجل كاتباً سريعاً ، وهو كثيراً ما يجلس الى المنضدة فى
وضع رصفه بنفسه فى مقدمة روايته فنراه يقول : « الورق أمامى ، والقلم
على أذننى ، ومرفقى على المنضدة ، ويدي على وجنتى ، أفكر فى ماذا
أقول ٠٠ »

وأكد أنه كان فى جعبته الكثير الذى يريد أن يرويّه الآن ٠ فطوال
خمسة عشر عاماً لم يكتب شيئاً ، وهى تعتبر ثغرة فى سيرته الأدبية ٠٠
كان فقط يتجول ويستمع ويستوعب ما عند الناس من أحاديث ٠ حان
الوقت الذى تكسب لديه كل ما سمعه ولاحظه يلح على ذهنه باحثاً عن
منفذ ٠ وحتى المجرمين والأوغاد الذين التقى بهم فى السجن ظهروا فى
روايته وصور سلوكهم ولغتهم تصويراً واقعياً ٠

- ٩ -

ميجل بفلت من طوفان الزمن

قضى ميجل ستة أشهر فوق المقعد المتمايل يكتب فوق المنضدة
الصغيرة ٠ ثم برئت سساحته وأطلق سراحه فى عام ١٦٠٣ حيث بلغ
السادسة والخمسين من عمره ، وأصبح سنه غير مناسب للعمل فى خدمة
الملك ، ومنح معاشاً ضئيلاً يبعث على السخرية ٠ أما روايته فلم ينته
منها بعد ٠ عاد الى منزل الأسرة ممزقاً رث الثياب وقد وخط الشيب
شعره بعد غيبة طالت الى خمسة عشر عاماً ، فوجد والدته قد انتقلت الى
العالم الآخر ٠ أصبح ميجل هو الرجل الوحيد فى الأسرة اذ أن أخاه
رودريجو قد خر سريعاً فى ساحة الوغى بالأراضى الواطئة فى عام ١٦٠٠ ٠

وفى عام ١٦٠٤ رحل مع شقيقته وابنته غير الشرعية ليسابيل وابتنة
عم له نيعيش فى باليادوليد حيث أقام فيليب الثالث قصره هناك ٠ وقد

انجب ايسابيل قبل زواجه بعام أو عامين كتمرة لعلاقة غرامية مع صديقة له تدعى أنا فرانكا دي روخاس أو أنا دي بيافرانكا • ولم ينجب ميجل اطفالا من زوجته كاتالينا •

وينسب بعض كتاب السير ايسابيل الى سيدة برتغالية كان ميجل على علاقة غرامية بها عندما كان في لشبونة عام ١٥٨٣ اذ عاد والتحق بالجيش الاسباني مرة أخرى في تلك الفترة • ولم تلبث هذه السيدة البرتغالية أن تزوجت تاركة هذه الابنة لميجل ليتولى رعايتها وكانت الأخيرة تطلق على نفسها اسم ايسابيل دي سايدرا •

ولكن هناك وثائق محفوظة في سجلات البروتوكول بمديرية تشدير الى أن هذه الغراميات كان من ثمرتها ايسابيل التي جاهرت في تقرير مهور بتوقيعها أنها « ابنة ميجل دي ثريانتس وأنا دي روخاس » •

وهناك اشارة الى ايسابيل هذه في باليادوليد في عام ١٥٩٩ — أنها تعيش مع ثريانتس وشقيقته ماجدالينا ، وأنها خادمة لهذه الأخيرة • وهذه الحيلة لا تخفى على أحد يعرف تماما كيف ينظر المجتمع الاسباني في تلك الحقبة الى الفضائح • كما أن ثريانتس نفسه آثر تجنب المشاكل التي لا طائل منها فكان أبا كريما لابنة يبدو أنها سببت له كثيرا من المتاعب • وعندما تزوجت حدثت مشاكل ، وبعد وفاة هذا الزوج عادت الى منزل والدها الذي قرر أن يخصص مبلغا كبيرا من المال كبثينة لها يغري به اراغبين في الزواج حتى يتخلص من متاعبها •

وقد انتهى المطاف بايسابيل في أحد الأديرة ، وهو نفس الدير الذي طلب والدها أن يدفن فيه •

وأخيرا أتم كتابه في مخطوط يدوي ضخم عنوانه :

« النبيل العبقري دون كيخوتي دي لامانتشا » •

وقد وجد ميجل ناشرا في مدريد هو خوان دي لاكويستا • وظهرت الطبعة الأولى من الكتاب في يناير عام ١٦٠٥ وكان ميجل وقتئذ قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره •

خالجت الريبة والشك باعة الكتب ، فقد وجدوا في الرواية جرأة وغرابة فاقت الحد ، وكانوا يفضلون أن يروا بطلا وسيما حسن المظهر على الأتال • فالأبطال من ذوي الشخصيات الجذابة لهم سوق رائجة • ولكن حدثت معجزة • فعلى عكس ماتوقعه خبراء السوق ومعرفتهم لذوق الجمهور ، وبرغم المظهر الحزين للبطل لاقت الرواية نجاحا باهرا • ولم تستطع المطابع في مدريد وبالأندلس أن تلاحق الطلب في طلب الرواية ، وتوالت الطباعات وهي مقياس النجاح الساحق في ذلك الوقت • ولم يثنوا ،

المؤلف من الناشر الا الفتات التي كانت لاتكاد تكفى لمساعدته على مواجهة ديونه الفادحة .

ولم يكف سوء الطالع عن ملاحقته ففي السابع والعشرين من يونية عام ١٦٠٥ أصيب أحد النبلاء وهو جاسبار دى اثبليتا بجراح بالغة خارج منزل ثريانتس ومات بعد يومين من الحادث دون أن يفصح عن اسم القاتل . وتبين من التحقيق أن القاتل كانت له علاقة غرامية بأحدى السيدات المتزوجات اللواتي تسكن في بيت ثريانتس . ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذي جرح اثبليتا في مبارزة بينهما بعد تراشق بالمعبارات . واتجهت الظنون الى ايسابيل ابنة ثريانتس ، ولهذا حام الشك حول ثريانتس نفسه وأنه هو المتعارك مع اثبليتا فصدر الأمر باعتقال ثريانتس وابنته وآخرين . وبعد تحقيق طويل تبين أن اثبليتا كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة ويدعى جلفان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلفان هذا . وبرغم تبرئة ثريانتس وعائلته الذين أطلق سراحهم ، الا أن الحادث جر عليه الويلات ، إذ كان ينظر الى العائلة بعدم الاحترام والتوقير الكافي ربما بسبب ابنته ايسابيل التي لم تكن حياتها مثالية .

وفي عام ١٦٠٩ انتقل ميجل الى مدريد بعد أن عاد اليها فيليب الثالث . واستقر ثريانتس هناك بقية حياته .

وفي عام ١٦١٣ صدر له « قصص نموذجية » .

وفي عام ١٦١٤ أنتج مجلدا شعريا بعنوان : « رحلة الى بارناسوس » .

وبينما ثريانتس يعمل بجد في الجزء الثاني من روايته روع في نفس عام ١٦١٤ بمؤلف مازال مجهولا حتى الآن ينشر تكملة مزيفة لمغامرات دون كيخوتي ووقعها باسم مستعار : ألونسو قرناندث دى أبيانيدا ، ونشر هذا الجزء الثاني لحسابه مستغلا نجاح ثريانتس في روايته دون كيخوتي . وبرغم جراءة وصفافة هذا المؤلف المجهول وقلة حياته الا أننا قد نكون مدينين له بأن الجزء الثاني من الرواية قد كتبه ثريانتس بعد أن حفظه ماحدث الى اتمام روايته ليثبت أنه المؤلف الحقيقي لدون كيخوتي . وظهر الجزء الثاني وعرض للبيع في مدريد في السنة التالية .

ونحن نجد رد الفعل لدى ميجل ازاء أبيانيدا الذي كتب دون كيخوتي المزيف واردا في المقدمة التي استهل بها ثريانتس الجزء الثاني من روايته الذي ظهر عام ١٦١٥ ، وفيها يقول :

« كان الله في عونى ! بأية لهفة أيتها القارئ لابد أنك تنتظر هذا المقدمة ، متوقعا أن تجد فيها انتقاما من مؤلف دون كيخوتي الثاني ، وهجويا عليه وصبا للشتم فوق رأسه . . . أنت ربما وددت أن أقول عنه أنه حمار ، أحمق ، وقح ؟ لكن هذا ليس في نيتي . وليكن في خطيئته عقابه ، وليزنها في عقله ، وليهنا بها » .

وكم حزن في نفس ميجل ما عبره به آبيانيدا من أنه عجوز وبذراع واحدة ، ونحن نجد صدى لذلك في قوله في نفس مقدمة الجزء الثاني من دون كيخوتى :

« لكن أشد ما ألم نفسي هو أنه يقول عني أنني عجوز وبذراع واحدة ، وكأنه كان في مقدوري أن أقف عجلة الزمان فلا تدور بالنسبة الي ، أو كأن يدي تحطمت في حانة من الحانات ، لا في أعظم عمل يستحق الخلود عرفته القرون الماضية ، وتعجب به القرون الحاضرة ، ويمكن أن تحلم برؤيته الأجيال المقبلة . وإذا كانت جراحى لا تلمح في عيون من يرونها ، فهي على الأقل موضع تقدير ممن يعرفون كيف أصيبت بها . ومخاطر الجندى في المعركة تشرفه أكثر من السلامة التي يجدها في الهرب » .

ثم يقول :

« ان الجراح التي يحملها الجندى هي بمثابة تجوم تهديه وتقويه الى سماء الشرف » .

وقد قص ميجل بعض المرح والنكات يغمز بها رغبة آبيانيدا في أن يظل مجهولا . وختم تلك المقدمة قائلا :

« ولن أطيل عليك أيها القارئ العزيز . وأتما انبهك الى ان الجزء الثاني من دون كيخوتى الذي أقدمه اليك الآن ، قد فصل على نفس نموذج الجزء الأول ومن نفس قماشه . وفيه أقدم اليك قزمة مغامرات دون كيخوتى حتى وقائه ودفنه ، كيلا يخطر ببال أحد أن يتسبب اليه أفعالا جديدة . ان أفعاله القديمة تكفى ، وحسب رجل شريف أن يكون قد أفضى اليك بنبا حماقات دون كيخوتى العاقلة ، دون أن يأتي انسان فيحشر نفسه فيها . فوفرة الأشياء الجيدة تبخس من قدرها ، أما ان كانت رديئة فإن قدرتها قد تعطى له بعض التقدير » .

وكان بقية رده على المقلد المزيف هو تأليفه لذلك الجزء الثاني من الرواية والتي فاقت الجزء الأول في عمق النظرة ، وما يفيض به من عذوبة ، ونضج القيم ، والتي تعطى له قوة وفكاهة تبعث بهجة خالدة .

وفي أثناء حياة ميجل ظهرت روايته في فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا وهولندا وبولندا والسويد ثم انتشرت ترجمات أخرى لا تعد ولا تحصى .

وقد أصبح دون كيخوتى رمزا يجسد عصرا انتقاليا ، زد على ذلك أن أبطال الرواية أصبحوا مرآة لكل من يقرأهم ، ولهذا خلدوا حتى أيامنا هذه .

وظهرت لميجل مجموعة من المسرحيات بعنوان : « ثمان كوميديات -
وثمانية فواصل هزلية جديدة لم تعرض أبدا » .

طبقت شهرة كاتبنا الآفاق كعلم بارز من أعلام الأدب في الأعمار
الآخيرة من حياته إلا أنه ظل يعاني من الفقر وشظف العيش حتى آخر
نسمة له . لقد أنته الشهرة متأخرة . فقد أنجز عمله وانتهى مشواره .

واستمر ميجل الذى بلغ التاسعة والستين من عمره يعمل كعهدنا
به دائما رغم أنه كان طريح الفراش بعد أن سبعت صحته وقساقطت
أسنانه . وذات ليلة خفت ضوء الشموع المحترقة دون أن يلحظ ذلك .
وما جاء فجر الثالث والعشرين من أبريل عام ١٦١٦ حتى أسلم الروح
وحيدا في ساعاته الأخيرة كما كان خلال حياته التي لم يذق خلالها
السعادة إلا لمحات خاطفة . ومع ذلك لم يخرج إنسان هذا القدر من
البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثريانتس .

وقبيل وفاته ببضعة أيام كان قد انتهى من رواية « أعمال برسيلس
وسيجيسموند » والتي نشرت فيما بعد في عام ١٦١٧ .

ويقال انه يوم شيع جثمانه سار خلفه حشد هائل من الناس
وازدحمت الطرقات بالرجال والنساء وقد ركعوا أمام المشهد الجليل .
وتجاور الأمراء والنبلاء والدمماء والمطارنة والرهبان جنبا الى جنب وقد
أخى الحزن بينهم جميعا .

وعندما توقفت أجراس الكنائس عن ارسال دقاتها الحزينة ، تفرقت
الجموع وغابوا في زحمة الحياة .

ومن العجيب أن قبر ثريانتس غير معروف ، وهو الرجل الذى
كرمه اسبانيا اليوم . ففى معظم المدن والقرى والدساكر يوجد ميدان
وشوارع هام يحمل اسمه ، وأقيمت له مئات من النصب التذكارية ، بعد
أن ظل منسيا ردىا طويلا من الزمن .

وإذا كان مثنوى ميجل مجهولا ، ومنبت رأسه غير معروف تماما ،
فان دون كيخوتى ما زال عائشا ، ومن خلاله أفلت ميجل من طوفان الزمن
وسطر اسمه فى سجل الخالدين . وكما قال ثريانتس فى خاتمة الجزء الثانى
من روايته ، على لسان سيدي حامد بن النجلى ، موجهها كلماته الى
قلمه :

« أى قلمي الصغير . ابق معلقا فى هذا المسمار بهذا السلك
النحاسى . وستبقى قرونا طويلة اذا لم يتزعك مؤرخون لصصوص
ليدنسوك . لكن قبل أن يفعلوا ذلك قل لهم بأعلى صوتك . كفو ايديكم
أيها الأوغاد . » .

ثم يقول :

« فمن أجلى أنا ولد دون كيخوتى ، وأنا ولدت من أجله . وكان
عليه أن يعمل ، وكان على أن أكتب . فنحن الاثنان واحد . وداعا ! » .

الفصل الثالث

سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ فى حياة ثريانتس

١٤٥٧

ولد ميغل دى ثريانتس بن رودريجو دى ثريانتس وليونور دى
كورتيناس . وكان الرابع بين سبعة أبناء . عمه فى التاسع من أكتوبر .

١٥٦٤ - ١٥٦٥

درس فى أشبيلية لدى اليسوعيين ؟

١٥٦٨ - ١٥٦٩

نشرت أشعار ثريانتس فى ذكرى وفاة إيزابيل دى فالوا الزوجة
الثالثة لفيليب الثانى . وقد أعدها للطبع والنشر لوبيث دى أويوس ،
وكان ثريانتس تلميذا له .

١٥٦٩

فى روما فى خدمة المونسنيور أكوافيلا الذى رقى الى كاردينال فى
١٧ مايو عام ١٥٧٠ .

١٥٧١

بطولة عسكرية فوق سطح الماركيزا فى معركة ليبانتو فى السابع من
أكتوبر ، التى انتصر فيها دون خوان النمساوى ، الابن غير الشرعى
لشارل الخامس عاهل أسبانيا ، على الأتراك .
وفى هذه المعركة فقد ميغل استعمال يده اليسرى .

١٥٧٥

بعد إقامة مستمرة فى إيطاليا ، أبحر على ظهر السفينة « الشمس »
مع أخيه رودريجو .

أسرها القراصنة ورحلوهما الى الجزائر ضمن عبيد دالى مامى
• يونانى اعتنق الاسلام •

١٥٧٥ - ١٥٨٠

أسير فى الجزائر حيث دبر أربع محاولات للهروب مع رفاقه من
الأسرى الأوروبيين بسعة حيلة ودهاء وبطولة الا أنها باءت بالفشل •

١٥٧٧

إطلاق سراج رودريجو بعد أن دفعت أسرته فديته ، وغادر إسبانيا
ليدير عملية إنقاذ شقيقه بالقوة من السجن ، ولكنها فشلت •

١٥٨٠

دفع فدية ثريانتس بوساطة الراهب الثالوثى خوان خيل •

١٥٨١ - ١٥٨٧

بعد القيام بمهام سرية فى البرتغال وأوران ، حاول السير فى ركاب
الأدب فى مدريد ككاتب مسرحى فلم يلق الا نجاحا ضئيلا •

علاقة غرامية مع آنا فرانكا دى روخاس والدة ابنته غير الشرعية
• ايسابيل دى سابدرا •

١٥٨٤

• طبع «لجالاتيا» وهى رواية رعوية •

تزوج كاتالينا دى سالاثار بلاثيوس • فتاة تبلغ من العمر ثمانية
عشر عاما ، وكانت تصغره بما يوازي نصف عمره تقريبا •

١٥٨٥

١٣ يونيو : وفاة والد ثريانتس •

١٥٨٧ - ١٥٩٥

عين مأمورا للتعيينات فى الأرمادا ثم جابيا متجولا للمؤمن والأقوات
وأمضى معظم وقته فى الأندلس •

تورط فى مشاكل قانونية ومالية بخصوص حفظ حساباته •

١٥٩٣

١٩ أكتوبر : وفاة والدة ثريانتس

١٥٩٧

سجن فى أسبيلية على زعم أنه أساء استعمال وظيفته •

١٥٩٨

• وفاة آنا فرانكا دى روخاس •

١٥٩٩

التحقت ابنته ايسابيل بخدمة شقيقته ماجدالينا •

١٦٠٠

مصرع رودريجو شقيق ثريانتس في ساحة الوغى •

١٦٠٢

ريما دخل السجن مرة أخرى بسبب حسابات قديمة •

١٦٠٤

بدأت كلمتا دون كيخوتي تنتشران • فقد ذكرت عرضا في خطاب بعث به الأديب الشهير لويي دي بيجا في ١٤ أغسطس الى صديق له قائلا : « ليس هناك شاعر أسوأ من ثريانتس ، ولا شيء أسخف من أن تمتدح الدون كيخوتي » • وكان دي بيجا يبغض ثريانتس ولا يرى فيه إلا دعيا على الأدب • ولم تكن الرواية طبعت بعد ، ولكن يبدو أن الأيدي تداولتها مخطوطة •

منحت الرواية حق الطبع في ٢٦ سبتمبر •

١٦٠٥

نشرت رواية دون كيخوتي (الجزء الأول) وبيعت حقوق الطبع الى الناشر •
ظهرت طبعات مسروقة في البرتغال • وظهرت الطبعة الثانية في مدريد مؤخرا في نفس العام •
تفجرت فضيحة مخمة في باليادوليد توحي بأن شقيقته وابنته غير الشرعية يعيشن حياة سائبة • ولكن ثريانتس كان بريئا •

١٦٠٨

تزوجت ايسابيل زوجا ثريا ، ولو أن ذلك كان مشوبا بظروف من الخداع والجشع •

١٦٠٩

ثريانتس ينضم الى جمعية عبيد القربان المقدس في مدريد • وقد انضم بعض أفراد أسرته اليها •

وفاة أندريا الشقيقة الكبرى لثريانتس في التاسع من أكتوبر •

١٦١١

وفاة ماجدالينا الشقيقة الصغرى لثريانتس في الثامن والعشرين من

يناير •

١٦١٣

نشرت « قصص نموذجية » •
أصبح ثريانتس عضوا من الدرجة الثالثة في رهبنة الفرانثيسكان

في آلكالا دي أناريس • وعضو الدرجة الثالثة يشارك في حياتها الدينية ولكنه غير ملزم بما يلزم به أفرادها أنفسهم •

• معاش تقاعد من كونت ليموس •

١٦١٤

• نشرت « رحلة الى بارناسو » •

ظهرت رواية دون كيخوتي المزيّف وهي تتمة مقلدة كاذبة للجزء الأول من رواية ثريانتس ، طبعت في تاراجونا بوساطة شخص مجهول ، وربما تحت الاسم المستعار ألونسو فرناندث دي آبيانيدا •

١٦١٥

نشر الجزء الثاني من دون كيخوتي الذي طبع في ديسمبر • وأيضا نشر في نفس العام « ثمان مسرحيات وثعانية قواصل هزلية جديدة لم يسبق عرضها من قبل » •

١٦١٦

لفظ ثريانتس أنفاسه الأخيرة في مدريد يوم السبت ، الثالث والعشرين من أبريل ، تاركا أرملته وأحد الأخوة الرهبان كمنفذى وصيته •

١٦١٧

• طبعت بعد وفاته « أعمال برسيليس وسيجيسموند » •

الباب الثاني

دراسة تحليلية لنص الرواية

الفصل الأول : العناصر الرئيسية للرواية

الفصل الثاني : شخصيات الرواية

الفصل الثالث : عرض آراء الكتاب والنقاد في العمل

الباب الثاني

بلغ عدد الشخصيات ستمائة وتسع وستين شخصية وردت في رواية « الذبيل العبقري دون كيشوتي دي لامانتشا » التي صاغها ميغل دي ثريانتس في أربعمئة وواحدة وستين ألف كلمة ، فضلا عن أن ثريانتس كان ولوعا بالتلاعب بأسماء شخصياته فرأيناه يسمي تابعه سانتششي باسم بيرنخينا ، وكذلك يستخدم أسماء أصساقاته والديه • وليس هذا فحسب ، بل وصل التلاعب الى اسمه نفسه فأطلق على مؤلف رواية « دون كيشوتي » اسما عربيا هو ابن النجلى • وفي هذا ما قد يبعث على حيرة الباحث والناقد والمحلل ، اذ لو تصورنا اننا كتبنا صفحة واحدة لا غير عن كل شخصية لوصل عدد صفحات الباب الثاني في هذا الكتاب الى ٦٦٩ صفحة !

وقد اكتفينا في دراستنا التحليلية لنص الرواية بمناقشة العناصر الرئيسية لها في الفصل الأول من هذا الباب • ووقع اختيارنا في الفصل الثاني على الشخصيات الرئيسية التي رأينا أنها ذات أهمية ، ولها دلالتها ومغزاها ، فتناولناها بالتفصيل •

وأوردنا الفصل الثالث لمعرض آراء الكتاب والمعلقون والشراح والنقاد في العمل ، والذين وجدوا كل أنواع المعاني في الرواية رغم أن مؤلفها ميغل دي ثريانتس نفسه يحدث القارئ في مقدمة روايته على لسان صديق له بأن ألفاظها بسيطة صافية أمينة حسنة السبك ، وفواصلها رنانة ، ومعانيها مفهومة خالية من العبث والغموض ، وحكايتها مسلية ،

وقراءتها تثير الضحك في الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البسطاء ، وتدعو الى اعجاب الحاذقين بأبداعها ، ولا يرى الحكيم مندوحة من اطرائها • ويعترف مؤلف « دون كيخوتي » بأنه لم يقصد من روايته سوى شجب هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية وما فيها من عبث وهوس خيالي •

ولم نقتصر في عرض آراء الكتاب والنقاد على أسبانيا فحسب ، بل حرصنا على انتقائهم من شتى البلدان والدول لعل الصورة تصبح أوضح وأكمل •

الفصل الأول

العناصر الرئيسية للرواية

- ١ -

هذه السرواية

« دون كيخوتي » هي قصة نبيل ريفي عجوز يدعى دون ألونسو كيخادا أو كيسادا قضى عمره متعطلا كسولا في قرية صغيرة باقليم المانتشا . وكانت تسليته الوحيدة قراءة كتب الفروسية ومغامرات الأبطال . . . وقد امتلأ خياله منذ صغره ، كما امتلأ خيال ثريانتس الذي أبدعه ، بكل ما قرأ في قصص الفروسية ، وجن جنونه شغفا بها حتى باع أرضه ليشتري كتباً ، وامتلات نفسه خيالات وأوهاما ، وألحت عليه صور المعارك ومشاهد الحب والغرام .

وفي أثناء هذه القراءات يفقد الإدراك السليم ، ويتخذ من الخيال حقيقة .

رقة دفعه جنونه الى تنفيذ ما تصوره في خياله ، فيترك منزله ، ويختار لنفسه اسم دون كيخوتي دي لامانتشا ، وقرر أن يجوب هذه المقاطعة ممطيا صهوة حصانه الهزيل الأعرج العجوز مثله ، وقد ارتدى زي فارس متجول ، وأمسك رمحا طويلا ، وعلق السيف في حمائله . . . خرج ليلقى الظالمين وقلبه عامر بما خلقت من أجله الأقدار ، وهو اصلاح ما في العالم من شرور .

وتقص الرواية كل ما حدث لبطلنا خلال هذا المشوار الطويل ، وتتكون من مائة وأربعة وعشرين فصلا وتنقسم الى جزأين :

الجزء الأول :

ريمتد حتى الفصل الثاني والخمسين • وقد كتب في السنوات ما بين ١٥٩٨ ، ١٦٠٤ •

الجزء الثاني :

وينكون من اثنين وسبعين فصلا • وقد كتب فيما بعد ، وطبع عام ١٦١٥ •

وفي مقدمة الجزء الأول الذى نشر فى مدريد عام ١٦٠٥ يؤكد ثريانتس على أنه ليس الا مترجما للقصة التى وجدها فى كتاب باللغة العربية ينسب تأليفه الى رجل عربى يسميه سيدى حامد بن النجلى • ولكن هناك أمثله عديدة لما أجأ اليه ثريانتس لاضفاء صفة الغموض على الرواية ، وليخلع على كتابه طرافة وأصالة • الا اذا عثرنا على الدلة ووثائق تثبت ما يقوله مستقبلا •

ويؤكد ثريانتس فى المقدمة نفسها الحقيقة التاريخية لشخصية بطله •• دون كىخوتى ، ويقول ان جميع سكان مقاطعة المانتشا يذكرون عنه ان كان « عف عاشق وأشجع فارس شوهد فى هذه المنطقة منذ زمن طويل » •

وحتى نفهم هذا المديح والاطراء ، يجب أن نعرف أن روايات الفروسية فى اسبانيا فى القرن السادس عشر كانت هواية جماعية وفكرة قومية متسلطة أكثر مما تكون نوعا أدبيا • ان بطل هذه الروايات هو خليفة عالم الفروسية كما كان موجودا فى عهد الصليبيين • وكان ذلك انطلاقا الى عالم الأحلام الجميلة ، وخروجا من الجو الذى كانت تمرقه الأزمات السياسية والدينية التى شابت عهد فيليب الثانى • فهؤلاء الفرسان الشجعان الذين وهبوا أنفسهم للرب والوطن كانوا محبين الى عامة الشعب •

وبكانت اسبانيا تتمثل فى هذا الفارس الذى يستطيع أن يهزم المخلوقات الخرافية ، وأن يتسلق أعلى القمم ، ويواجه أعمال السحر والشعوذة ، وينحو من الأرض أخطار أعدائها لنصرة الحق والعدل •

وقد أدت هذه الهواية الى ظهور الكثير من قصص المغامرات التى كان الناس يتخاطفونها • ولم يسلم أحد من جاذبية هذا الأدب رغم تنبيهات الكنيسة التى لم تكف عن التذكير بتأثيرها الخطير على الشباب •

نقد أدرك ثريانتس ما تحمله هذه الهواية فى نفس الوقت من تفاهة وتأثير ضار ، فأراد أن يضع روايته فى قالب من السخرية اللاذعة ، فقدم لنا مغامرات بطله كما أمكن لخياله أن يقدمها ، ونراه يقول فى مقدمة

الجزء الأول من الرواية : « أيها القارئ الخلى ! تستطيع أن تصدقني دون أن تستحلفني إذا قلت لك انى كنت أود لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلى ، أن يكون أجمل وأزوع واطرف ما يمكن تخيله . بيد انى لم أقو على مخالفة نظام الطبيعة الذى يقضى أن يلد الشيء شبيهه » . بينما كان الكتاب الآخرون يكتبون قصص الفروسية بحماس وعن اقتناع : « ان الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجى السموات وخير الينابيع ودعة الروح - كل أولئك ترد عقم ربات الوحى خصباً بالغاً ، وتهب الدنيا ثماراً بملؤه رضى واعجاباً » .

شكذا سشرح لذا ميغل دى ثريانتس الظروف التى ولد فيها دون كيخوتى .

ودون كيخوتى مخلوق غريب الأطوار لم يكن فارساً ولكنه يريد التشبه بواحد من الفرسان كأنه مثل أعلى يصعب الوصول اليه ، وقصة حياته هى قصة الكفاح الذى ينبغى على الانسان أن يخوضه اذا أراد التوفيق بين المثل الأعلى وبين تفاهة الحياة اليومية الواقعية .

ولزيادة هذا التباين والتناقض خلق ثريانتس شخصية سانتشو بانثا السائس الذى يجمع بين البلاهة والتعقل ، الذى يجيب بصوت أرضى على خيالات سيده ، ويختتم ثريانتس مقدمته بهذه الكلمات : « أريد منك أيها القارئ أن تشكرنى عندما تتعرف بسانتشو بانثا وفيه سترى فيما أعتقد ، كل مناقب المهنة مجتمعة بعد أن كانت مشتتة فى هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية » .

٦ -

مولد قسارس

تبدأ المغامرة بكلمة عن دون ألونسو كيخادا أو كيسادا ، أحد النبلاء الريفيين الذين يعيشون فى ناحية من نواحي إقليم المانتشا . وكان صاحباً النبيل ينسarf الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكراً ، مولعاً بالصيد ، وهو ممن فى مسلحتهم رمح ، ولهم قرص عتيق وبرذون ضامر وكلب سلوقي . ويقضى الأوقات التى لا عمل فيها ، أعنى طوال

العام تقريبا في الانكباب على قراءة كتب الفروسية بلذة ونهم يبلغان حدا جعله يكاد ينسى الخروج للصيد وإدارة أمواله .

وغرق في قراءاته ، وامتلا خياله بكل ما قرأ في هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدى والمعارك والجروح ولقنات المجاملة ، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ، وامتلا وهمه يقينا بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها .

وأخيرا وقد فقد صوابه ، استبدت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه الدنيا : فقد رأى من اللائق بل من الضروري ، سوا ، لتألق مجده ولخدمة وطنه أن يصبح فارسا جوالا ، فيسعى في مزاكبتها ، بفروسه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه : فيصالح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار في كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحى أبدا .

وحتى نرى مدى امتلاء خياله بقصص الفروسية ، سذستمع الى ما قاله ردا على سؤال عن معنى الفرسان الجواله وجهه اليه سيد يدعى فيقلدو قابله في الطريق :

« أولم تقرأوا ياسادة أخبار انجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة ، والذي نسميه في لغتنا الأسبانية باسم أرتوس ، وما يقال عنه في السنة القديمة المروية في مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمت أيضا ، وانما تحول بفعل السحر الى غراب ، وأنه سيأتى ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه .

نعم ! في عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة المسماة « المائدة المستديرة » وجرت الوقائع الغرامية بين لونسولوت وبين الملكة جينغيرا .

وبعد ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر في شتى أصقاع الدنيا ، ففي أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أماديس الغالى بفضل مغامراته ، هو وإبنائه جميعا وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركاني ، ذلك الآخر انذى لن يبالغ المرء مهما أطلب في مديحه ونعنى به تيرانتى الأبيض ، وأخيرا وفي عصرنا هذا تقريبا ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذى لا يقهر دون بليناس الرومى . هذا ياسيدى معنى أن يكون المرء فارسا جوالا ، وتلك هى طريقة الفرسان التى حدثتك عنها ، واليها انتسبت وان كنت محملا بالخطايا ، مؤمنا بكل ما آمن به أولئك الفرسان الذين أثبت على ذكركم . ومن أجل هذا أسعى في هذه القفار الوحشة ، باحثا عن المغامرات ، عاقد العزم على المخاطرة بذراعى وحياتى في أخطر ماعسى

أن يلقى بى فيه المصير ، مادام فى سبيل اغاثة الملهوفين واسعاف المحتاجين » .

وراح صاحبنا النبيل ، نشوانا بهذه الافكار الحلوة وما فيها من اغراء لا يقاوم ، راح يبادر الى وضع هذه الامنية موضع التنفيذ . فكان أول شئ عمله هو أن ينظف مشكا (مجموعة من الأسلحة) كان ملكا لأجداده ثم ظل قابعا فى ركن من الأركان منذ قرون فريسة للمصيدة والرتوبة ، ففسله وحكه وأصلحه بقدر ما تهيأ له . ثم راح يفتش عن برذونه . . . وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء ، فإنه ترأى له أن فرس الاسكندر المدعو بوكفالموس لا يدايه . وظل أربعة أيام يتخيل أى اسم يعطيه لهذا البرذون . وكان العقل يقضى بأنه مادام سيده قد غير من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسما فخما رنانا حسبا يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التى اتخذها . وهكذا بعد أن استعرض أسماء ألفها ثم محاسا ، وقضىها ثم زادها ، وركبها وحلها فى ذاكرته وخياله ، توصل أخيرا الى تسميته باسم : روثينانتى .

ولما أعطى فرسه هذا الاسم الذى وافق مزاجه ، ود أن يعطى لنفسه اسما ، فأنفق ثمانية أيام أخرى فى هذا الأمر ، توصل فى نهايتها الى أن يسمى نفسه باسم دون كيخونى ! .

ثم تذكر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يلقب باسم « أماديس » فحسب ، بل أضاف الى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلبق بلقب : أماديس الغالى ، فشاء أيضا ، شأن كل فارس حقيقى ، أن يضيف اسم بلده الى اسمه ، ولهذا تسمى « دون كيخوتى دى لامانتشا » وخيل اليه بهذا أنه دل بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة اليه .

حين لدون كيخوتى أن المشك ينقصه شئ مهم وهو أنه لم يكن عنده خوذة كاملة بل ببصلة فحسب ، والخوذة غطاء حديدى للرأس مستدير نصف كروى يلبسه المقاتل ، أما البصلة فكانت بيضا مرتفع الجوانب . وقد عالج دون كيخوتى الأمر بمهارته بأن أتى بورق مقوى وصنع منه شبه نصف خوذة عشقها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة . وأراد أن يجرب اذا كانت ستصمد لحد السيف فأهوى به عليها بضربتين كانت الأولى كافية لأن تحطم فى لحظة عمل أسبوع . فتضايق من سهولة تمزيقها ، ولكى يطمئن على هذا الخطر شرع فى عملها من جديد ، وبطنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ، وأعتقد أنها خوذة من أدق الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى .

ولما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسما .

اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم الا البحث عن سيدة ليعشقها .
 وغلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب عندما وجد من سيعطيها اسم
 سيدته . ان يقال ان هذه كانت فتاة فلاحه مليحة الوجه تسكن في قرية
 مجاورة لقريته ، وكان يعشقها حيناً من الزمان ، وان كانت هي لم
 تعرف عن هذا الأمر شيئاً ولم يكن يعنيتها في قليل أو كثير . وكانت تدعى
 الدونثا لورنثي ، ناستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التي سيطرت
 على أفكاره . فبحث لها عن اسم لا يبعد كثيراً عن اسمها ، اسم يشتم منه
 ويمثل السيدة العظيمة والاميرة ، فلقبها بلقب : دولثينيا دل توبوسو ،
 لأنها كانت من قرية توبوسو ، وقد بدا له اسماً مرسيقياً نادراً ممتازاً ،
 لا يقل عمقا في التعبير عن سائر الأسماء التي أطلقها على نفسه وعلى
 أشيائه .

ولما تجهز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفذ ما
 انتواه . ودفعه الى الاسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير اذا تأخر ،
 فكم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء ، وأن يعالج
 من اهانات ، وأن يصحح من اساءات ، وأن يسدد من ديون ! ولهذا ،
 ودون أن يسر لأحد بما انتواه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم صار
 شديد القبط من أيام شهر يوليو قبل أن يمد الفجر لسانه الدقيق ، وتسليح
 بكل سلاحه ، وامتنطى صهوة روثنانتى ، وارتدى خوذته الغربية ، وأمسك
 برمح ، وخرج الى الحقول من باب خلفى ناحية فناء الدواجن فرحاً جداً
 ان شعر بالسهولة التي استهل بها تنفيذ غرضه النبيل وهو في طريقه ليبدأ
 مغامرته العجيبة .

والرواية تسلك في سردها ثلاثة طرق متشابكة في تناسق منتظم :

الطريق الأول :

يتابع مغامرات دون كيخوتى مع شيء من انحرافات بعض مغامرات
 الشخصيات التي يقابلها فارسنا .

الطريق الثاني :

يشمل مجموعة من اللقاءات التي من أهدافها إبراز صفات بعض
 الشخصيات ، والتي تنتهى بالأسلوب الأدبي الساخر .

الطريق الثالث :

عبارة عن القصص التي تقوم شخصيات مختلفة بسردها في أثناء
 فترة راحة أو في إحدى السهرات .

عالم الطسواحين الهسوانية

ان تصبة مغامرات دون كيخوتى الشخصية تقع في خمسة وعشرين فصلا من الجزء الأول ومثلها من الجزء الثاني ، وهى مليئة بالخيال تحكى أحداثا في منتهى الغرابة والأساس كل هذه الأحداث الجنون ، وهى جنون من نوع خاص تحدوه الرغبة في اصفاء رداء من النبالة والجمال على عالم تافه خشن فقط .

ارتفعت الشمس في كبد السماء ، وانتقدت أشعتها وظل فارسنا سائرا اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق الذكر ، حتى اذا ما وافى المغيب كان هو وحصانه يتساقطان اعياء ويموتان ظمأ . فراح يتفرس في المكان من كل ناحية على يجد المأوى والعلاج ، فلمح غير بعيد من الطريق الذى كان يسير فيه فندقا فحث الخطى حتى بلغه ، وحط رحاله أمام فندق ريفى عادى . وتصادف أن وقعت امرأتان من بنات الهوى عند الباب ، وكانتا في الطريق الى أشبيلية مع بعض البغالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة . وعندما اقترب من الباب وشاهد البنيتين ، بدتا له أنستين فانتبتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان . ولكنهما ما كادتتا تبصران هذا القادم المسلح بالرمح والبرس حتى أسرعتا الى داخل الفندق وقدر روعهما منظره . فاذا به يرفع حافة الخوذة الكرتونية ، ويكشف عن وجهه الجاف الأغبر ، قائلا في رقة : « لاتراعا يا صاحبتى العصمة ، ولا تهريا ، فان نظام الفروسية الذى انتسب اليه يقضى بعدم اهانة أحد ، خصوصا أن كان مثلكما أنستين من ذوات الحسب » . ولكنهما عندما سمعتهما يدعوهما باسم « أنستين » وهذا أمر بعيد جدا عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك الأمر الذى جعل دون كيخوتى يغضب ويقول لهما بلهجة جادة : « الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ، غير انى لا أقول لكما هذا لأضايكما أو أعكر صفو سروركما ، فسرورى انما هو بخدمتكما » .

فزادت هذه اللهجة التى لم يفهماها وعبوس وجه دون كيخوتى من ضحكاتهما ومن غضبه ، غير أن صاحب الفندق ظهر في تلك اللحظة ، وكان رجلا بدينا وديعا ، فقال : « أى سيدى الفارس ! ان كنت تبعث عن مأوى ، دون فراش فستجد سائر ماتبغى موفورا جدا » . وأجاب الفارس : « أى شىء يكفينى يا صاحب القصر » .

• وهنا يظهر خيال دون كيخوتى بأن يحول كل شىء ويخلق ما ليس موجودا كما توحى به قوة ذيباله ، فالفندق المتواضع يصبح قصرا لا ينقصه شىء ، وخاله قصرا له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ،

ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفصيلات توصف بها أمثال تلك القصور على غرار ما تراه .

أعدت لدون كيخوتى مائدة عند باب الفندق ، وأحضر له صاحبه قطعة من سمك البكلاه رديئة الطهي . ولكن الأمر الذى كان يقلقه هو أنه لم يسلم فارسا ، إذ خيل إليه أنه لاحق له شرعا فى المغامرة قبل أن يتلقى مراسم الدخول فى نظام الفروسية ، فعجل بالفراغ من عشاءه الهزيل ، والتمس دن صاحب القصر (الفندق) أن يسلمه فارسا .

يكتشف المحيطون بدون كيخوتى جنونه ، وكان صاحب الفندق خبيثا الى حد ما ، فقرر أن يتابعه على هواه لكى يهيىء زادا من الضحك تلك الليلة . وأجاب دون كيخوتى بأنه على حق تام فى أمنيته هذه ، وأن هذا القرار طبيعى ، وأردف قائلا أنه كان فى سنن شبابه يزاول هذه المهنة الشريفة ، فطاف بأرجاء الدنيا سعيا وراء المغامرات ، وفى النهاية جاء الى قصره هذا يعيش معتزلا ، ويستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشيء الا لأنه يحبهم حبا جما . وأسرع صاحب الفندق باجراء المراسم والطقوس ليمنع دون كيخوتى رتبة فارس ، فأمر هذا الأخير أن يجثو على ركبتيه ، ثم راحل يتلو من دفتره ، الذى سجل فيه ما أعطاه من تبن وشعير للسغالين ، كأنما يتلو صلوات ، وفى أثناء القراءة رفع يده وصنعه على قفاه صفعه قوية ، ثم ضربه بسيفه ضربة أخرى على كتفه ، وأمر إحدى السيدتين بأن تمنطقه بالسيف ففعلت ما أمرت به برشاقة وحشمة بالغتين حتى تتمالك من الضحك فى كل نقطة من نقاط هذه المراسم ، متمنية له من الله أن يجعله فارسا سعيدا وافر الحظ فى المعارك . ووضعت السيدة الأخرى المهماز فى قدميه .

ولما انتهت هذه المراسم ، شد دون كيخوتى السرج على روثينائتى فى عجلة ، ووثب ممتطيا صهوة جواده واحتضن صاحب القصر (الفندق) وأسرع راحلا بحثا عن المغامرات .

وهكذا تعود أسباب تعاسة الفارس الى رغبته فى عدم رؤية الواقع رؤية سليمة ، ولكن حسب خياله ، وكما يريد هو أن يكون .

رأى الطريق اكتشف حشدا من التجار ، وكانوا سبعة يحملون مظلاتهم ، ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسيرون على أقدامهم . ولم يكد دون كيخوتى يلحهم حتى خيل إليه أنه بأزاء مغامرة جديدة ، فوقف فى وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرسان الجوالين كما حسبهم . ولما وصلوا الى مرعى السمع والبصر صاح دون كيخوتى بلهجة ملؤها العجرفة : « فليقف كل فى مكانه ، إذا لم يعترف بأنه لا يوجد فى الدنيا بأسرها فتاة أجمل من امبراطورة المنتشا العديمة النظير دولثينيا دل توبوسو ! » .

ولما رفضوا أن يمتدحوا جمال فتاة أحلامه ، وجه لهم السساب
واندفع مرخيا رمحه في وجه أحدهم ، وكان مهذرا تمكن من اغاظته
واثارة غضبه ، ولولا أن روثينانتي كبا لأصاب التاجر ضرر بالغ .
وعندما هوى الفرس على الأرضلقى بسيده يدور بعيدا فوق التراب .
وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع أبدا لأنه كان مثقلا بالرمح والترس
والهاتين والبصلة وسلاحه العتيق . وفي خلال محاولاته اليائسة للنهوض
وجه حديثه اليهم قائلا : « لا تهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس
انتظروا ، فما بسببي ولكن بسبب فرسى وقعت » .

غير أن أحد خدم البغال من أتباع التجار ،الذين تبينوا من وجه
دون كيخوتي وكلماته جنون صاحبا ، لم يستطع أن يتحمل هذه الكلمات
المليئة بالتحدى والغرسة ، فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو
أربع قطع ، وأهوى بأحداها على دون كيخوتي وأنهال عليه بالضرب
المبرح في شدة وقسوة دون أن يستمع لنداء أسياده له بالألا يسرف في
الضرب وأن يدعه وشأنه . ولكنه لم يشأ أن يخلي عنه قبل أن يصب عليه
جام غضبه . ثم جمع سائر قطع الرمح ، وكسرها الواحدة بعد الأخرى
على جسم هذا الراقد المسكين الذي ظل طوال هذه العاصفة من الضرب
المتهاوى عليه فاغرا فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ، إذ خالهم
كذلك .

وأخيرا تعب البغال من الضرب ، وتابع التجار سيرهم ، رغم
يحملون في جعبتهم ما يصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا
الجنون المسكين الذي شيع ضربا . ولما رأى هذا نفسه وحده حارلا
النهوض دون جدوى . وأتى له أن يستطيع ذلك وقد طحن ومزق .
ورغم هذا كان مسرورا راضيا ، إذ رأى في هذه المحنة أمرا شائعا لدى
الفرسان الجواله ، ونسب الخطأ كله الى فرسه .

وشاء القدر في تلك اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضيعته وكان
جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . واستطاع الرجل
بمشقة بالغة أن يركبه على حماره إذ بدا له ركوبة أكثر وداعة . وبعد
ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها فوق روثينانتي
. وأمسك هذا من عنانه وحماره من مقوده وسار في اتجاه قريته الى
أن بلغها ساعة المغيب . انتظر الفلاح حتى يكتمل الظلام كي لا يرى الناس
هذا السيد المحطم على هذه الحال اليائسة . فلما أرخى الليل سدوله
دخل القرية وأوصل دون كيخوتي الى منزله .

استدعى دون كيخوتي أحد جيرانه وكان فلاحا طيبا يدعى سانتيشي
بانثا يمشى في فقر ، وراح يقص عليه ويحاول اقناعه بأذلا له الوعود
المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيرا أن يرحل معه وأن يعمل سائسا
له وحاملا لسلاحه . ومن بين ماقاله له أن يستعد لمصاحبتة بقلب سليم ،

اذ قد تقع له مغامرة فيستولى في لحظة على جزيرة ، يعينه حاكما لها مدة حياته . فأغرته هذه الوعود وأمثالها سانتشو بانثا فترك زوجته وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره . عندئذ احتال دون كيخوتى لكى يحصل على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغا هائولا . وتجهز بفرس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصبح ما استطاع خوذته المحطمة . ثم أخبر حامل سلاحه سانتشو باليرم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود بما يراه ضروريا . وأوصاه أن يحمل معه خرجا ، فوعد سانتشو بذلك وأضاف مستأذنا في أن يسير خلفه على حمار . فراح دون كيخوتى يفكر ليتذكر ما اذا كان أحد الفرسان الجوال قد اضطحب معه حامل سلاح بركب حمارا . لم يقرأ فارسنا ان تابعى الفرسان يركبون حميرا ، وشعر ان في ذلك مهانة لمقام الفروسية الجليل ، وبعد لاي وافق على السماح لسانتشو بالخروج معه على ظهر الحمار ، مقترحا في نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى واثقت الفرصة ، وذلك بأن ينتزع الفرس من أول فارس سىء الأدب يعترض طريقه . ودون أن يودع أى منهما أهل بيته ، خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد . وغذا السير طوال الليل حتى اذا ما أقبل الضيغ كانا على يقين من أن أحدا ان يكتشف امرهما ويلحق بهما حتى لو عدا في اثرهما .

وتبدأ المغامرة المأمولة ان يصادفهم جيايرة عتاة فقد اكتشفوا ثلاثين أو أربعين عملاقا ، لم يكن دون كيخوتى يراها حتى قال لحامل سلاحه :

— ان الحظ يسوق أهورنا خيرا مما تستطيعه رغبتنا . انظر يا صديقى سانتشو بانثا : أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة او يزيدون ، ارى أن أنزلهم وأسلبهم الحياة جميعا بلا استثناء . وبأسلأهم تبدأ ثررتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفي سبيل الله ابادة هذه العصاة الشريرة من وجه الأرض .

نسأله سانتشو بانثا قائلا :

— أى مردة ؟

فأجابه دون كيخوتى :

— أولئك الذين تبصرهم هناك بأذرعهم الطوال ان منهم من يبلغ طول ذراعه قرابة فرسخين .

واذا بسانتشو يقول محدثا :

— انتبه جنابك ، فذلك التى ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين

هوائية ، وما يبدو أنه أذرع ليس الا اجنحتها التى تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة •

فأجابه دون كيخوتى :

— هذا يدل تماما على أنك لست خبيرا بشئون المغامرات ، هذه مرده ، أقول لك • وإذا كنت خائفا فاهرب عنى وأقم الصلاة بينما أنازلها أنا فى معركة رهيبة غير متكافئة •

ولكن فرسه روئينانتى دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سانتشوس الذى صرخ مؤكدا له أن هذه طواحين هوائية وليست مرده تلك التى راح يهاجمها • أما هو فقد رسخ فى ذهنه أنها مرده الى حد جعله لا يسمع صراخ حامل سلاحه سانتشوس ، بل ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب • على عكس هذا راح يعدو وهو يصيح بصوت مدو :

— لا تهربى ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة ، فإن من يهاجمك ليس الا فارسا واحدا •

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دولثينيا ، داعيا اياها أن تعينه فى هذه المعركة الخطرة ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشعرا رمحه ، يركض بأقصى ما يستطيعه روئينانتى فى وجه أول طاحونة صادفته ، بيد أنه فى اللحظة التى خرق فيها الجناح بضربة قاسية من رمحه ، دفعت الريح بعنف حطم الرمح • وجذب الجناح الفارس وفرسه ليقتذف بهما ، ويرميهما شر رمية وتدحرج دون كيخوتى على التراب فى أسوأ حال •

== ٤ ==

فى الطريق الى الفندق المسحور

بعد هذا الحادث الذى نجا منه دون كيخوتى وتابعه سانتشوس يمشران على مرج مغطى بالعشب النضير ينساب فيه جدول عذب ، فيغريهما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك لأن وهج القيط فى الظهيرة بدأ ينتشر ويعنف • فترجلا وتركوا روئينانتى والحصان يريهان على مواهما العشب الغزير فى المرج النضير ، ثم انثيا الى الخرج يصبيان منه طعاما تناولا بلا كلفة فى هدوء وطيب صحبة •

وكأذت ترعى في هذا الوادى سساعتئذ بعض من الأفراس الاناث يسرح بها قانئو بغال من ينجواس ، كان من عادتهم القيلولة مع دوابهم في الأماكن التى يوجد بها عشب وماء ، فكان الموضع الذى نزل به دون كيخوتى مناسباً لهم . اقترب روئينانتي من اناث الأفراس وراح يغازلها ، ولكنها كانت في حاجة الى تناول الكلا الأخضر أكثر من أى شىء آخر ، فأعملت فيه رفسا وعضا وأسرع قانئو البغال بهراواتهم ، وانهاؤوا عليه ضرباً حتى رضوا عظامه .

وفي تلك الاثناء شاهد دون كيخوتى وسانتشو ما حل بروئينانتي فأسرعا اليه يلهاثان ، وقال دون كيخوتى لحامل سلاحه : « يخيلى الى يا صاحبي سانتشو أن هؤلاء القوم ليسوا فرسانا ، بل رعاا سافلة أخساء . لهذا تستطيع واثت مطمئن الضمير ، أن تساعدنى على الانتقام العادل للامانة التى الحقوها بروئينانتي أمام أعيننا » . فينصحه سانتشو بعدم التعرض لهم لأنهم أكثر من عشرين . فيرد عليه دون كيخوتى قائلاً : « اننى أساوى مائة مثلهم ! » وأمسك بسيفه وانقض عليهم وفعل سانتشو مثلاً فعل مقتدياً بمولاه . وفى الهجمة الأولى ضرب دون كيخوتى أحدهم بسيفه ضربة شقت صدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف ، ولما كان قانئو البغال عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا الى هراواتهم فأهروا بها عليهما فجنءلوا سانتشو فوق التراب ، وسقط دون كيخوتى ، رغم شجاعته ومهارته ، عند أقدام روئينانتي الذى لم يكن قد نهض من كبوته بعد . ولما شاهد قانئو الدواب آثار فعاتهم السيئة أسرعوا بدوابهم يرحلون ، تاركين المغامرين في أسوأ حال .

ويعلل دون كيخوتى ما أصابه من جزاء قاس بأنه عقاب من السماء لعدم أتباعه قوانين الفروسية حيث خالفها عندما شاهر سيفه في وجه أناس لم يسلحوا فرسانا .

يتوجه الفارس وتابعه بعد ذلك الى فندق قريب فيبلفاه بششق الأنفس . وهناك سيكون لجبرته عواقب وخيمة . فقد تخيل أن الخادمة ماريتورس هي ابنة سيد القصر . وكان هناك صاحب بغال من بين النزلاء قد اتفق معها على أن يقضيا ليلة مريحة معا اذ وعبته أن تأتي اليه بعد أن يأوى النزلاء الى هراشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل ما يطلب من ملذات . ولما حانت ساعة اللقاء أقبلت بقميصها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهي تتسلل على أطراف أصابعها في العنبر الذى كان يرقد فيه النزلاء الثلاثة . دون كيخوتى وسانتشو بانثا وصاحب البغال . ولم تكء تجتاز عتبة الباب متجهة الى صاحبها ، حتى أحس بها دون كيخوتى فنهض جالسا على سريره ، رغم ما به من جراح مضمدة وضلوع موجرة ، ومد ذراعيه لاستقبال ابنة صاحب القصر التى قهرها لطفه فالتهبت غراما به . وأقبلت الخادمة جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويذاها الى الأمام تتلمسان حبيبيها ، ف وقعت بين

ذراعى دون كيخوتى فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها اليه دون أن تجرؤ على التفوه بكلمة • ثم أجلسها على سريريه ، وتحسس قميصها - وكان من الخيش - فبدأ له من أفخر الديباج ، وكأنت في ذراعيها أسورة مؤلف من خرز زجاجى فبدت له كاللؤلؤ المنضود ، وكان شعرها يضرب الى لون الوبر وطبيعته فحسبه من غدائر من أنفاسها - ولم تكن رائحتها الا من رائحة سلطة الشم ذات التوابل والخل المصنة من الأمس - فقد حسبها تنشر شذى زكيا • وأخذ يرسمها في خياله بالمحاسن والمفاتن التى كانت لتلك الأميرة التى قرأ عنها في كتبه أنها جاءت لزبارة الفارس الجريح إبان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام • ولكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذى لم يستطع أن يبدد أوهامه شيء : لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التى تميز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استقراغ أحشاء أى انسان غير هذا البغال • ولكن دون كيخوتى حسب انه يحتضن بين ذراعيه الالهة حبه ، فضمها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبة وحنانا : « بودى لو استطعت أيقظها السيدة الجليلة الفاتنة . أن أجازى هذه النعمة السابغة التى أنعمت بها على برؤية جمالك الفائق •• لكن الحظ ، الذى ما فتئ يضطهد الاخيار ، قد شاء أن يقذف بى في هذا السرير حيث أرقد الآن محطما منهوكا ، فلو شأنت أرايتى أن تكون كفاء أرايتك لما استطاعت يضاف الى هذه الاستحالة أخرى أشد منها الا وهى العهد الذى قطعته على نفسى قبل المنقطعة النظير دولثينيا دل توبوسو ، فهى وحدها سيدة أفكارى وفتاة أحلامى • ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلهة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمر وقد أتاحتها فضلك العقيم ! » •

كانت ماريكورنس في أشد الجزع من ضم دون كيخوتى لها بهذه الشدة ، وبذلت كل جهد مستماع للتخلص منه ، دون أن تعير كلماته أدنى اهتمام وانتباه • وكان البغال الساذج - وقد أبقت شهبواته الخبيثة ساهرا - قد سمع هو الآخر وقع دخول خليلته لما اجتازت عتبة الباب • فأرھف أذنه ليستمع الى كل ما قاله دون كيخوتى • ودبت في نفسه عقارب الغيرة لأن الفتاة لم تف بوعدها واستبدلت به رجلا آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوتى ، وأخذ يراقب وهو هادئ الجأش ليرى الى أى شيء تفضى هذه الكلمات التى لم يفهمها • ولكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تحاول التخلص جاهدة ، بينما دون كيخوتى يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على طول امتداده وأهوى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابته فكه حتى سال الدم مدرارا من فمه • ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضربا تسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل • ولم يحتمل السرير ثقل البغال لضعف في تركيبه وفي قوائمه ، فاندك وهوى الى الأرض • فاستيقظ صاحب الفندق على قرعة السرير وتدخل لفض المعركة •

ويفسر دون كيخوتى تلك الأحداث لسانتشو بأن القصر مسحور ، وأن هذا هو سبب متاعبهم . وبعد أن استحلفه بأن ماسيقوله له سيظل سيرا الى مابعد وفاته قال : « فلتعلم أذن أنه وقعت لى فى هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التى أفخر بها ، ولأقص عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول انه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قادمة نحوى ، وهى أفنن وألفن ناة توجد على شطر عظيم من الأرض . وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفى لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتى أصون عهدى لسيديتى دولثينيا دل توبوسو ! وإنما أود أن أقول لك فقط ان السماء حسدتنى على النعيم الغامر الذى أرسله الحظ الى ، أو - وهذا أقرب الى اليقين - لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فانه فى اللحظة التى كان أجاذبها أعذب وأرق وأحر حديث ، انقضت على كف لم أرها ، كف مار ، رهيب ، فصربنى بقبضته على فكى خربة قاضية ولايزال الدم ينزف منهما بسببها . »

وقال سانتشو : « لكن قل لى ياسيدى كيف نسميها جميلة وناديه تلك المغامرة التى تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الأذى الذى أصاب سيادتكم لم يكن كبيرا ، لأنك حملت بين ذراعيك تلك الفتاة المنقطعة النظير . أما أنا ، فماذا لقيت يا الهى غير أبشع اللكمات التى تلقيتها طوال حياتى ؟ يا المشقائى وشقاء أمى التى ولدتنى ! لست فارسا جوالا ولا أحسب أبدا أنى سأكونه ، ورغم ذلك فان النصيب الأوفر من المصائب يكون تصديى ! »

وفى الطريق شاهدا قطيعا من الخراف تخيلها دون كيخوتى جيشا . وقال لسانتشو : « أو لاتسمع صهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبول ؟ » . ولم يلبث أن همز روئينانتي وأشروع رمحه وانقض كالصاعقة من أعلى الرابية . وعبثا حاول سانتشو أن يثنيه ان صاح فيه بصوت جهورى : « على رءسك ياسيد دون كيخوتى ! أقسم بالله انها أغنام رخراف تلك التى ستهاجمها . »

لم يكثرث دون كيخوتى لهذا كله ، وانقض بين النعاج وبدأ يطعنهما بالرمح غاضبا هائجا متحمسا كأنه يضرب فى ألد أعدائه . فصاح فيه رعاة القطيع أن يمسك عن هذه الدواب المسكينة . فلما رأوه لم يستمع لنصحهم حلوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بالحجارة التى أنهالت عليه كالطر ، ولكن دون كيخوتى لم يحفل بذلك وظل يجرى هنا وهناك حتى دكت أحداها ضلعين من أضلاعه ، واقتلعت أخرى ثلاث أو أربع أسنان من فمه ، وسقط الفارس المسكين من على فرسه . فاقبل عليه الرعاة وظنوه مقتولا فأسرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت ما بين ست وثمان ، وأسرعوا يلودون بالفرار .

نزل سانتشو من أعلى الرابية التي كان يتأمل منها حماقات سيده
واقترب منه فوجده على أسوأ حال ، وأن لم يكن قد فقد الشعور وقال
له : « ألم أقل لك أنك انما تهاجم قطعانا من الخراف لا جيوشا ؟ »
فأجابه دون كيخوتى بأن عذره الساحر قد رآه على وشك الظفر باكلايل
المجد في تلك المعركة فدبت في قلبه عقارب الحسد منه ، وإذا به يحول
كتائب الجنود الى قطعان من الخراف .

بعد قليل يظهر حلاق القرية وكان يضع على رأسه شيئا يلمع وهو
يركب حمارا رماديا . فظنه دون كيخوتى فارسا يمتطي صهوة فارس أغبر
أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب وقال لسانتشو أن الشيء الذي يلمع
هو خسوذة ممبرينو . بينما الواقع أنه كان في هذه النواحي بلدان
متجاوران . أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلى ولا حلاق ،
والآخر أكبر وفيه كلاهما . وكان حلاق البلد الأكبر يعمل أيضا لأهل البلد
الأصغر فيفصد هذا ويحلق لحية ذاك . ولأداء هاتين المهمتين كان يذهب
حاملا صحن حلاقة من النحاس الأصفر . وقد فاجأته الأمطار في الطريق ،
فلكى بحصى قبعته وضع عليها صحن الحلاقة وكان مصقولا فكان يلمع
من بعيد . ولهذا ظن دون كيخوتى أنه أبصر فرسا أغبر أرقط وفارسا
وخوذة من ذهب . لأن جميع ما يلفت نظره كان يرتبه بسهولة وعقا
لهذهيانه الفروسي وخواطره الشاردة . واندفع منقضا عليه بكل ما في وسع
روثينانتى من قدرة على الركض ، ورمحه مصوب ، وفي اللحظة التي
أوشك أن يبلغه صاح فيه : « دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو
سسلم الى عن طيب خاطر ما استحقه بجدارة » .

وشاهد الحلاق هذا الشبح ينقض عليه ، فلم يجد وسيلة للاحتماء
من ضربة الرمح الا أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتى
نهض راطلق ساقيه للريح ناركا صحن الحلاقة على الأرض . وكان هذا
كل ما يريده دون كيخوتى ، فأمر سانتشو بالتقاط الخوذة ، فلبى السائس
الأمر ، وناول الصحن لمولاه فوضعه على رأسه فى الحال . وبخيلاله
الخصب يعطى بطلنا تفسيراً يبدو منطقياً تماماً عندما قال لسانتشو :
« هل ترى ما أتصوره ؟ انى لا تخيل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة
المسحورة لابد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، في يد من لا يعرف
قيمتها ولا يقدرها حق قدرها ، فلما رآها من الذهب الخالص فكر في
صهر نصفها للأفادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقى النصف
الآخر على هذه الصورة التي تجعله يشبه صحن حلاقة ، كما تقول .
ومهما يكن من أمرها ، لكنى وأنا أعرفها لا أهتم بما جرى لها ، بل
سأصلح من أمرها عند أول حداد نلقاه فى أول قرية نمر بها » .

ويعود دون كيخوتى الى هذا الموضوع عندما يتوغل مع سانتشو
في جبال سيرا موريئا فنراه يقول لسائسه : « أو لم تدرك منذ الوقت الذي
صحبتنى فيه أن جميع أمور الفرسان الجواله تبدو كأنها خيالات وتهويل .

وأساطير وأنها تبدو كأنها مقلوبة ؟ السبب في ذلك ليس أنها كذلك في الواقع . بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائماً شذمة من السحرة تنقلب أمورنا . وهذا هو السبب في أن هذا الشيء الذي يبدو لك صحن حلقة يبدو لي أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئاً آخر » .

وسكنا يقلب دون كيخوتي كل الموازين . فالمجانين هم الذين لا يلاحظون الحقيقة التي لا تتضح إلا للفارس اليقظ والمتفتح الذهن .

- ٥ -

الأميرة المزيفة

عندما وصل دون كيخوتي وسانتشو الى قاعدة جبل شاهق من جبال سيرا مورينا توقفوا عند سفحه حيث يجري جدول رقيق حواليه مروج خضر وأشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار برية . كلف دون كيخوتي سائسه بحمل رسالة غرامية الى حبيبته دولثينيا وطلب منه أن يعود إليه برد حبيبته .

وعند قيام سانتشو بمهمته قابل أصدقاء لسيده : القسيس والحلاق اللذين أرادوا مقابلته لأقناعه بالعدول عن هذه الحياة المليئة بالأخطار . وتقدمات فتاة تدعى دوروتيا مبدية استعادها لمعاونتهما . ففكروا في حيلة لأقناع دون كيخوتي بالعدول عن هواجسه والعودة الى داره .

استقر الرأي على أن تقوم دوروتيا بدور الأمير ميكوميكونا ويقوم الحلاق بدور السائس وكان كل منهما يركب جوادا ، ويتنكر الحلاق في دور السائس بأن وضع لحية مستعارة من ذيل البقرة .

ويتم اللقاء فتنزل دوروتيا الى الأرض بخفة ورشاقة ، وتلقى بنفسها جائية عند قدمي دون كيخوتي ، وعلى الرغم من محاولة انهاضها رفضت وتحدثت قائلة : « كلا لن أنهض من مكاني هذا أيها الفارس الشجاع المروع ، الا اذا شاء فضلك السابغ أن تمنحني فضل يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد آنسة أهينت أبلغ اهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فان كانت قوة ذراعك التي لاتقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فانك

مضطرب الى أن تهب لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصى الدنيا اقتفاء لصيكتك الذائع لتجد لديك علاجاً لمصائبها » .

فقال دون كيخوتى : « أيتها السيدة الحسنة النبيلة ! لن أجب بكلمة ولن أسمع شيئاً مما جرى لك قبل أن تنهضى من الأرض » .

فقالت الأنسة : « وأنا لن أنهض قبل أن يتعطف على أدبك فتمنحنى ما أنا طالبة » .

فاجابها دون كيخوتى : « منحك سؤالك ، بشرط الا يكون في تحقيقه ما يضر أو يسيء الى شرف ملكى ووطنى وتلك التى بيدها مفتاح قلبى وحرىتى » .

عندئذ قالت الأنسة المذكودة : « كلا ، لن يضر أو يسيء الى شرف أحد ممن ذكرت » . ثم استطردت قائلة : « ان ما أسألك هو ان يتفضل شخصك العظيم فيأتى معى فوراً الى حيث اقتاده وأن يعدنى بعدم الدخول فى أية مغامرة ولا يتدخل فى أية مشاجرة قبل أن يثار لى من خائن اغتصب ملكى ، بغير حق من حقوق الأرض والسماء » .

فقال دون كيخوتى : « ياسمو الأمير الجميلة ، ان عظمتك الآن فى مأمن ولا تخشين الطاغية المستبد الذى اغتصب سلطتك واضطهدك » .
وأؤكد أنه بعون السماء ، وبفضل ساعدى هذا ، ستستردين مملكتك » .

وهنا تظاهرت الأنسة الراجية عونه بالرغبة فى تقبيل يده ، ولكن دون كيخوتى - وكان فى كل مناسبة فارساً نبيلاً مهذباً - لم يوافق على هذا أبداً . بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سائقه بشد السرج على روثينانتي وأن يحضر له سلاحه فى الحال . فانتزع تابعه الأسلحة وكانت معلقة كالغنيمة على فروع شجرة سنديان . وبعد أن رتب السرج على الدابة ألبس مولاه سلاحه ، وعندئذ صاح دون كيخوتى : « هيا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة - بعون الله » .

رقد حدث أن الحلاق كان يركب بغلة بالأجرة ، أى انها بغلة رديئة: وعندما نزل منها عارضا على القس أن يركب قمصت ورفسنت رفسنتين هزته بعنف فسقط على الأرض بشدة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر . فيخترع تفسيرات غريبة لدرجة أن هؤلاء الأصدقاء يبدون أكثر جنونا من دون كيخوتى . أما فارسنا فقد كان متحمسا للمهمة الجديدة التى هبطت اليه من السماء ، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى صحة ما سمعه . وهكذا تعود القافلة متجهة نحو منزل دون كيخوتى . ويتوقفون فى الطريق فى فندق صغير ويشاء سوء الحظ أن يدخل دون كيخوتى فى حجرة بها قرب ملأى بالنبيذ الأحمر مرصوصة عند رأس سريريه . وفجأة سمعت ضجة فى حجرة دون كيخوتى الذى

كان يصيح : « كف أيها اللص ، الصعلوك ، الخسيس ، أنت في قبضة يدى ، وسيفك لن يفيدك شيئا » . وكان يمسك في يده اليمنى بسيفه مسلولا ملوحا به مهددا وكأنه يحارب ماردا من المردة . والطريف في هذا أن عينيه كانتا مغمضتين ، لأنه كان ناعسا يحلم بأنه يصارع المارد وتسلطت المغامرة على خياله حتى راح ينفذها ، وخيل إليه أنه قد وصل فعلا الى مملكة ميكوميكون ، وأنه صار في مواجهة عدوه . وفي اندفاعه سدد الى قرب النبيذ طعنات متواليات وهو يعتقد أنه يسددها الى المارد حتى فاضت الغرفة كلها بالنبيذ المنسكب ظانا أنه دم عدوه .

وخلال اليومين التاليين يقع فارسنا ضحية تخيلات وأوهام قبيحى أنه في قصر عجيب . وقررت الجماعة الرحيل ووضع حد لقصة الملكة ميكوميكونا ليجنبوا دوروتيا مشسقة اعادة دون كيخوتى الى قريته ، فبحثوا عن وسيلة يتمكن بها الحلاق الأسطى نيكولا والقسيس من اعادته الى بلده كما أرادا ، ابتغاء محاولة علاجه . فتفاهموا مع سائق عمربة لاعادة دون كيخوتى وطلبوا منه صنع نوع من القفص ، مؤلف من قطع من خشب معشقة ، بحيث يوضع فيه وضعا مستريحا . ولما تم صنع هذا القفص دخلت الجماعة في صمت ، بعد أن تنكروا بأشكال مختلفة ، الى غرفة فارسنا وكان نائما مستريحا من متاعبه . وأمسكوا به وأوثقوا قدميه ويديه بشدة ، فلما استيقظ لم يستطع التحرك وظل حائرا عندما رأى هذه الوجوه الغريبة العجيبة . ففكر فيما صور له خياله المجنون باستمرار .

لقد اعتقد أن هذه الوجوه هى أشباح القصر المسحور ، وأنه هو نفسه مسحور ، لأنه لم يستطع التحرك ولا الدفاع عن نفسه . وهكذا تم كل شيء كما قدر القسيس الذى دبر الأمر بمكر ومهارة . ووضع دون كيخوتى في القفص ، وسمر القفص بشدة حتى لا يستطيع أن يزعرعه ، ثم حملوا القفص على أكتافهم . ولما أخرجوه من الغرفة نطق بصوت رهيب ، هو صوت الأسطى نيكولا ، بهذه العبارات : « أيها الفارس الحزين الطلعة ! لا تحزن على أسرك . . انه ضرورى لوضع حد في رقت مبكر ، للمغامرة التى حملك عليها شجاعتك العظيمة ، وستنتهى حين يصبح أسد المانتشا الرهيب وحمامة توبوسو البيضاء شخصا واحدا ، بعد أن يحنيا رأسيهما الشامخين تحت نير الزواج العذب الرقيق . ومن هذا الاقتران الذى لانظير له سيخرج ويلمع على نور الدنيا الأشبال الشجعان الذين لن يقلوا اشارة للرهبة عن أبيهم الشجاع الباسل » .

وقد واست وعود الوحي هذه دون كيخوتى خير مواساة . . وأدرك معناها تماما ، ورأى أنهم يراودونه بأمل ، الارتباط بالروابط المقدسة لزواج شرعى من حبيبته دولثينيا دل توبوسو ، وأنه من هذا الزواج سيولد أشبال ، هم أولاده ، في سبيل مجد اقليم المانتشا العظيم .

رفعت الأشباح القفص ووضعوه على عربة تجرها الثيران • وهكذا
بعد أن أدخلوا في روعه أنه يجب أن يظل بهذا الشكل للانتصار على عمل
سحري - وأمام هذا التفسير الذي لا يتطرق إليه الشك يعيدون دون
كيخوتى إلى منزله •

وهنا ينتهى الجزء الأول من الرواية •

- ٦ -

مسيدي دولثينيا

يبدأ الجزء الثانى من الرواية بمشهد دون كيوخوتى مريضاً وتعالجه
مربية عجوز وابنة أخته بوسساطة أنواع مقوية من الغذاء مفيدة للقلب
والمنع الذى منه جاء كل الداء •

وبعد انقضاء أكثر من شهر على هذا العلاج نرى صاحبنا الفارس
من جديد على ظهر حصانه مدججا بالسلاح يتبعه سائسه الوفى سانتشو
على أهبة الاستعداد للقاء أعظم مغامرات الفروسية • وهى تبدأ الآن في
طريق توبوسو ، كما بدأت الأولى فى سهل مونتيلى • وقد قرر دون
كيخوتى أن يذهب إلى توبوسو قبل أن يخوض أية مغامرة ليتلقى بركة
دولثينيا التى لا نظير لها ويودعها ، وبهذا التوديع يتأكد أنه سيفلح في
إنجاز أية مغامرة خطيرة ، لأنه كما قال لسانتشو : « لا شيء في العالم
يجعل الفرسان أكثر بسالة من أن يشعروا بعطف محبوباتهم » • ثم
يستطرد قائلاً : « لنذهب إلى هناك ، ومادام شعاع من شمس جمالها
سيبهر عيونى ، وينير عقلى ، ويقوى قلبى فسيبقى متفرداً لا نظير له فى
الحكمة والشجاعة » •

وفي اليوم التالى ، عندما وافى الليل ، شاهدا مدينة توبوسو العظيمة
التي أتعش مرأها نفس الفارس وأحزن سانتشو ، لأنه لم يكن يعرف أين
بيت دولثينيا ، ولم يره أبداً من قبل ، لا هو ولا مولاه : حتى كان كلاهما
مضطرباً • أحدهما لرغبته في رؤيته ، والثانى لأنه لم يره قط ، وسانتشو
لم يتخيل ماذا يستطيع أن يفعل لو بعث به مولاه إلى توبوسو • وعلى بعد
ميلين من القرية وجدا غابة اختبأ فيها دون كيوخوتى بعد أن أمر سانتشو
بالعودة إلى المدينة ، وبالأرجح ألا بعد أن يتكلم باسمه مع سيده دولثينيا

ليرجوها أن تتفضل فتسمح لبعدها الفارس أن يراها ، وأن تباركه بعد ذلك .
حتى يمكنه الرجاء في النجاح في مغامرته الخطرة العسيرة .

ولم يكذ سانتشو يخرج من الغابة حتى أدار رأسه ، ولما لم يشاهد
دون كيخوتي بعد ، نزل من فوق حماره ، وجلس عند جذع شجرة ، وراح
يحدث نفسه قائلا : « هيا . هيا . لكل داء دواء يستطب به إلا الموت الذي
لا مقر منه ، شئنا أو لم نشأ ، في نهاية أعمارنا . أن مولاي مجنون ، وأنا
لا أقل بجنونا ، بل أنا مجنون أكثر منه ، أنا الذي أخدمه وأتبعه ، إذا صبح
المثل الذي يقول : أخبرني من تصاحب ، أخبرك من أنت . فمولاي مجنون
بحيث يعتقد الشئ مكان الشئ الآخر ، الأبيض أسود ، والأسود أبيض ،
كما فعل حين قال أن الطواحين الهواء مرده ، وبغال الرهبان جمال ،
وقطعان الماشية جيوش معادية ، وأمور أخرى كثيرة مشابهة ، ولهذا لن
يكون من العسير أن نجعله يعتقد أن أية فلاحه تمر من هنا هي السيدة
دولثينيا ، فإن لم يشأ أن يصدق ، أقسمت له ، فإن أقسم هو بدوره ، كررت
القسم من جديد ، وإن أصر ، زدت أنا في أصراري . وبهذه الطريقة تكون
لى دائما الغلبة عليه ، وليكن ما يكون ، أو ربما يظن ، كما يخيل الى ، أن
ساحرا خبيثا ، من أعدائه ، قد غير وجه سديته على هذا النحو لاثارة
غضبه . »

هدأت هذه الفكرة من خاطر سانتشو ، وبدأ له أن المسألة قد سويت ،
ولكنه بقى مع ذلك وقتا طويلا في المكان الذي كان فيه ، حتى يعتقد دون
كيخوتي أنه كان لديه الوقت الكافي للذهاب والعودة . وأفلح كل شئ دبره
حتى أنه حين نهض ليركب حماره شاهد ثلاث فلاحات يمتلطن ظهور الحمير
فهرج للحاق بمولاه ، فوجده يتنهد ودار بينهما الحوار الآتي :

— ليس على سيادتك إلا أن تهمز روئينانتي ، وتخرج الى السهل
لتشاهد السيدة دولثينيا بل توبوسو التي قدمت لزيارتك مع اثنتين من
وصيفاتها .

— ما أعظم فضل الله ! ماذا تقول لى يا صاحبي سانتشو ؟ حذار من
التغوير بى ومن جلب حزنى بسرور زائف .

— وماذا أفيد من التغوير بك وأنت على وشك اكتشاف الحقيقة ؟
اركض يا مولاي وتعال لرؤية الأميرة سيدتنا ، مزينة بما يليق بها .

خرج سانتشو مع مولاه من الغابة فأبصرا بالمقرب منهما الفلاحات
الثلاث . فقال دون كيخوتي :

— انى لا أرى يا سانتشو غير ثلاث فلاحات على ثلاث آتانات .

— اسكت يامولاي ، لا تقل مثل هذا الكلام . افتح عينيك ، وتعال لتحيى سيدة أفكارك ، فهي قادمة .

ولما قال هذه الكلمات تقدم للقاء الفلاحات الثلاث ، وترجل ، وأمسك بخطام حمار احداهن ، وجثا على ركبتيه وقال لها :

— يا ملكة . . يا أميرة . . يادوقة الجمال ، لتتنازل سموك وعظمتك فتتلقى بالقبول والرحمة هذا الفارس ، عبدك الذى صار مثل تمثال من المرمر ، لا حراك فيه ولا نبض ، لما أن صار فى حضرتك الفخيمة . أنا سانتشو بانثا ، سائسه ، وهو الفارس الجوال دون كيخوتى دى لمانتشا ، الملقب بالفارس الحزين الطلعة .

وفى نفس الوقت جثا دون كيخوتى على ركبته بجوار سانتشو وراح يتطلع بعينين زائغتين مضطربتين فى تلك التى سماها سانتشو سيدة وملكة ، ولكنه لم ير غير فلاحه قبيحة فطساء منتفخة الوجه ، فارتج عليه دون أن يجرؤ على أن يفتح فمه . ولم تكن الفلاحات أقل دهشة لما أبصرون هذين الرجلين المختلفين كل الاختلاف راكعين يمنعهن من المرور . وأخيرا تحدثت تلك التى أمسك بخطام حمارها ، فقالت غاضبة : « ابتعدا عن طريقنا ، ودعانا نمر فنحن متعجلات » .

فقال سانتشو : « يا أميرة توبوسو وسيدتها ، لماذا لا يتعطف قلبك الرحيم وهو يرى راكعا أمام حضرتك السامية عمود الفروسية الجواله وسندها ؟ » . وإذا بأحدى الفلاحتين الأخريتين تصبح قائلة : « انظري يا حماره صبرى كيف يسخر هذان السيدان من الفلاحات كما لو كنا لا نستطيع أن نكيل لهما الصاع صاعين . سيرا فى طريقكما ، ودعانا نسير فى طريقنا ، ومساء الخير » . فقال دون كيخوتى : « انهض ياسانتشو ، انى اتبين تماما أن الحظ لم يرض بعد تماما عن بلانا . لقد أغلق كل الطرق التى يمكن أن يأتى منها السرور لهذه النفس الهزيلة التى يضمها جسمى . وأنت يا أعظم كمال يمكن التطلع اليه ، باغاية اللطف الانسانى ، أنت الدواء الوحيد لقلبي الحزين الذى يعيدك ! ومادام ساحر خبيث يطاردنى ، ويفشى على عيني بالغيوم والسحاب ، حتى حول جمالك المنقطع النظير الى مظهر فلاحه مسكينة ، اذا لم يعطنى ملامح تنين لأصبح كرها فى نظرك ، فتنازلى وانظري الى برقة وغرام ، واطلعي ، فى الخضوع والاحترام للذين أكنهما لجمالك المشوه . الى تواضع هذه النفس التى تعبدك » .

فقالت الفلاحه : « ياالجدى ! هل أنا اذن لسماع هذه الأباطيل ؟ ابتعد من هنا ، ودعنى أمر ، أرجوك » .

فابتعد سانتشو وتركها تمر ، وكان راضيا عن تخلصه من المشكلة بهذه الطريقة . ولم تكن القروية التى أريد لها أن تلعب دور دولثيذا

تتخلص ، حتى نخست أتاها بمسلة موضوعة في طرف عصا ، فانطلقت
تجري في المرج ، ولكن الدابة التي نخست أكثر من المعتاد ، أخذت ترفس
وتقمص حتى ألقت براكبتها على الأرض . فأسرع دون كيخوتي
لأنها ضياعها ، بينما أصلح سانتشو البرذعة التي استدارت حول بطن
الحمارة . ولما أعيدت البرذعة الى مكانها ، أراد دون كيخوتي أن يأخذ
بين ذراعيه سيدته المسحورة ، ليركبها على البرذعة ، ولكنها أعفته من
هذه المهمة . لأنها بعد أن قامت ، تراجعت بضع خطوات ، ثم استعدت
للوثوب ، ووضعت كفيها على مؤخرة الحمارة ، وثبتت على البرذعة
وهي أخف من الصقر ، وركبت كل رجل في ناحية مثل الرجال . فصاح
سانتشو : « سيدتنا أخف من الطائر . » أنها تستطيع أن تعلم الركوب
على الخيل أبرع السواس في قرطبة أو المكسيك ، لقد استقرت بوثة
واحدة فوق قبر السرج ، وبدون مهمان جعلت دابقتها تركض كحمارة
الوحش ، ووصيفتها لا تقلان عنها براعة ، لأن ثلاثين يعدون عدو
الريح . »

انطلقت الثلاث بسرعة هائلة ، ولم تكف عن العدو ، دون أن
تلتفتن ، طوال أكثر من نصف فرسخ ، وتابعهن دون كيخوتي بنظره حتى
غبن عن أعينه ، فالتفت الى سانتشو وقال : « ماذا ترى يا سانتشو ؟
ألا يسيء السحرة معاملتي ؟ أنظر الى أي مدى يذهب خبثهم وحقدهم
علي ، ماداموا يحرمونني من لذة رؤية سيدتي كما هي . ولدت لأكون
نموذجاً وقادة للبائسين ، وهدفا يرمى بسهام النحس . وهؤلاء السحرة
الخونة لم يكتفوا بتحويل دولثينيا ، بل غيروها الى شكل دميم ممسوخ
دنيء مثل تلك الفلاحة ، وانتزعوا منها خصوصاً ما هو من شأن السيدات
العظيمات ، وهو أن تنبعث منهن رائحة عطرة ، لأنهن دائماً وسط العنبر
والأزهار ، لأنني حين تقدمت لراكبها ، انبعثت منها نايحي رائحة ثوم
نبيء كادت منه روعي تخرج من بدني » .

فصاح سانتشو : « أيها الرعاع الملاعين ! أيها السحرة الأشرار
الأنجاس ! » .

سار دون كيخوتي مشغول الفكر بالمكيدة التي دبرها له السحرة
بتحويل سيدته دولثينيا الى فلاحه كريهة . أن بليتها ومحدثها نشأتاً عن
الحسد الذي يحمله الأشرار ضده . ثم قال لسانتشو : « انك رأيتها
في كل جمالها ، والسحر لم يحجب عنك وجهها ولا مفاتها . فضدي أنا
وحددي وضد عيني تفعل قوة السحر » .

قرر دون كيخوتي أن يحرر سيدته من السحر . وعندما سمع فيما
بعد من أحد العابثين الذين كانوا يحاولون السخرية منه والهزء به أن
سانتشو بانثا هو المسئول عما حاق بدولثينيا ، ولأن يزول عنها السحر
ألا إذا عاقب سانتشو بانثا نفسه بثلاث آلاف وثلاثمائة جلدة بالسوط

على ردفه الكبيرين ، وهما عاريان في الهواء . وأن هذا هو ما قرره كل الذين أسهموا في صنع محنتها . ويشكو سانتشو قائلاً : « انى لا ارى العلاقة بين الضربات وسعادة السيدة دولثينيا » . ولكنه غير رايه ووافق عندما عرض عليه دون كيخوتى أن يجزل له العطاء لقاء هذا الجلد . صنع سانتشو من خطام حمامه سوطا ، ودخل الاثنان الى دغل قريب ، ووقف دون كيخوتى في ناحية ، بينما اختبأ سانتشو خلف مجموعة متشابكة من الشجيرات ، وتعرى من خصره حتى قدميه ، وبدأ يضرب نفسه . وبعد ست أو ثمانى ضربات كف عن جلد نفسه ، وأخذ يسدد ضرباته الى الشجيرات ، وهو يتأوه بشدة عقب كل ضربة . أما دون كيخوتى فقد كان ينتفض شفقة على سائسه النبيل الذى ينزل بنفسه ذلك العذاب .

ويختتم سانتشو بانثا ضربات السياط بوابل من الأمثال .

- ٧ -

هزيمة دون كيخوتى على يد فارس القمر الأبيض

تقابل دون كيخوتى مع فرقة ممثلين يركبون عربة تجتاز الطريق ، وكانوا يرتدون ملابس التمثيل لأن هذه الفرقة التمثيلية المتجولة كانت ستمثل نفس المسرحية في هذا المساء ، في قرية أخرى قريبة جدا ، فوفروا على أنفسهم عناء خلع ثم ارتداء تلك الملابس . وكان أحدهم يمثل الموت ، وآخر يمثل ملاكا ، وثالث يمثل أميراطورا ، ورابع يمثل جنديا ، وخامس يمثل شيطانا ، وسادس يمثل الاله كيوييد يغير رباط على عينيه ، ومعه قوسه وجعبته وسهامه ، وكأنت معهم سيده هي زوجة مدير الفرقة وتقوم بدور الملكة . (وكان عنوان تلك المسرحية « محاكم الموت ») . ظن دون كيخوتى أنه أمام مغامرة خطيرة جديدة ، فوقف أمام العربة مستعدا لمجابهة الأخطار ، وسأل السائق الذى يمثل الشيطان وهو يصيح بصوت عال مهددا : « قل لى بسرعة من أنت ، والى أين هؤلاء الناس الذين تحملهم فى العربة ؟ » . فأجابه الشيطان بصوت رقيق ، وهو يقف بالعربة بأنهم ممثلون كوميديون ، وشرح سبب ارتدائهم للملابس التمثيل . فقال دون كيخوتى : « قسما بشرف الفارس الجوال انى حين رأيت هذه العربة ظننت اننى أمام مغامرة عظيمة ، وهانذا ارى الآن أنه ينبغى مس الظواهر بطرف البنان ، اذا شاء المرء الا يخذع ، اذهبوا فى سلام . وانى على

استعداد لتقديم أية خدمة عن طيب خاطر . منذ نعومة أظفاري كنت أحب
المسافر ، وكانت المهارة (الكوميديا) هوايتي المفضلة » .

ولكن لم يكن سمانتشو يترك حماره حتى ركبته ممثل يرتدى لباس
مهرج وأخذ يضربه بشدة بأذياب ثلاث منفوخة كان يحملها على طرف
عصا وهو يدق شخاشيخه . ولكن الحمار كبا به ، فمضى الشيطان
صاحب الأذياب على قدميه ، وعاد الحمار الى سمانتشو . فأراد دون
كيخوتي أن يعاقب الرجل على وقاحته . ولكن لحسن الحظ استجاب دون
كيخوتي لتوسلات سمانتشو بعدم التعرض للممثلين الذين كانوا على وشك
قذفهما بالحجارة بعد أن نزلوا من العربية واصطفوا للمعركة . فقال له
سمانتشو : « لاحظ أن كل هؤلاء الناس الذين تراهم ، وأن بدوا ملوكا
أو أباطرة أو أمراء ، لا يوجد بينهم فارس جوال واحد » . فقال دون
كيخوتي : « ياسمانتشو ! لقد حسست النقطة التي ستجعلني أعدل عن
قراري . . . إذ لا يجب ولا يمكن أن أسحب سيفي على من لم يسلحوا
فرسانا ، كما قلت لك من قبل مائة مرة » .

ركب الممثلون عربتهم وتابعوا رحلتهم . ولكن دون كيوخوتي يغتنم
الفرصة عندما يلتقي بعد قليل بفارس المرايا الذي قص عليه أنه انتصر
في مباراة فردية على الفارس الشهير دون كيوخوتي دى لامانتشا وأرغمه
على الاعتراف والاقرار بأن صاحبه كاسلديا دى ونداليا أجمل من
دولثينيا فقال دون كيوخوتي : « أن دون كيوخوتي هذا الذي تتكلم عنه هو
أحد أصدقائي - وهو رجل له أعداء كثيرون من بين السحرة . وقد اتخذ
واحد منهم شكله ليترك نفسه يهزم ، حتى يشوه بهذا سمعته التي اكتسبها
بأعماله الجلييلة في طول المعمورة . وكذا لعل على ما أقول لك عن خدث
هؤلاء السحرة ، أقول لك أنه منذ يومين حولوا دولثينيا الجميلة التي
فلاحة تبيحة حقيرة . . . فلا بد أنهم حولوا أيضا دون كيوخوتي . فان لم يكف
كل هذا الذي قلته لأقناعك ، فها هو ذا أمامك دون كيوخوتي هذا بعينه .
يؤيده ذلك السلاح في يده ، راجلا أو راكبا ، على أي نحو تريد » .

وفي الصباح اتخذ فارس المرايا المسافة التي حسبها ضرورية ،
وأدار عنان فرسه ، ولم يكن أحسن ولا أخف من روثينانتي ، بينما لكن
دون كيوخوتي جانبي حصانه بشدة هيجته فركض مقبلا على فارس المرايا
الذي كان يحاول عبثا أن يغرز المهمازين في بطن فرسه دون أن يستطيع
أن يحركه من المكان الذي وقف فيه مبهور الأنفاس . فارتبك على ركوبته ،
وارتبك من رمحه ، فلم يستطع أن يصوبه في وضع القتال . صدم دون
كيخوتي خصمه بقوة كبيرة حتى أنزله عن سرجه وألقى به على الأرض
بعنف ، حتى لم يحرك هذا يده ولا قدمه .

لم يكن فارس المرايا هذا إلا حائز الإجازة سانسون كاراسكو من
نفس قرية دون كيوخوتي الذي تنكر في هذا الزى لمحاولة هزيمته وأرغامه
كما تقضى قوانين الفروسية إلى متابعته حيث يريد ، ولم يكن ينبغي غير
إعادته إلى منزله .

ولما باءت محاولة كاراسكو بالفشل عاد دون كيخوتى الى الطريق بحثا عن المغامرات فيجد منها الكثير التى تجلب له المتاعب . فتراه يواجه أسودا فى أقفاصها كانت محملة على عربة حيث أهداها حاكم أوران الى الملك فيسيب . هدد دون كيخوتى حارس الأسدين بأنه سيسمره بالرمح فى العربة أن لم يفتح القفصين فى الحال . فلما شاهد السائق عناد هذا الشيخ المسلح قال له : سيدى ! سأطيع أمرك ، لكن بالله دعنى أحل البغال ، وأنجى بها قبل أن يخرج الأسدان . وقف دون كيخوتى وحده يتطلع الى الأسد داخل القفص الأول الذى فتحه الحارس على مصراعيه . انتظر دون كيخوتى خروج الأسد من قفصه لمنازلته واثقا من أنه سيمزقه اربا اربا فى سهولة ويسر وكان ذلك منه قمة الجنون المطبق . وطلب دون كيخوتى من الحارس أن يضرب الأسد بعصا لاهاجته واخراجه .

فقال الحارس : أنا لا أجرؤ على هذا ، لأنى لو فعلت ذلك كنت أول من يمزقه الأسد . ياسيدى الفارس ، صدقنى واقنع بما فعلت ، وهو اقضى حدود الشجاعة . ان الأسد فتح عليه الباب وله أن يخرج أو لا يخرج ، ومادام لم يخرج منذ قليل ، فانه لن يخرج طول اليوم وعظمة شجاعتك تجلت فى وضوح النهار وقد سمعت أن المحارب الشجاع ليس ملزما الا بتحدى خصمه وانتظاره فى مكان مكشوف فان لم يأت ، فالعار ينصب عليه ، ومن تحداه ينال النصر . ووعد الحارس برواية هذه المغامرة الباسلة للملك نفسه حين يصل الى البلاط .

فقال له دون كيخوتى : « وإذا سألك من قام بها ، فقل له انه فارس الأسود ، لأنى أريد من الآن فصاعدا اتخاذ هذا اللقب ، وأستبداله بلقب الفارس الحزين الطلعة . وفى هذا أنا أتابع العرف القديم الجارى بين الفرسان الجواله . فقد كانوا يغيرون القابهم حين يشاؤون ، أو حين تسنح الفرصة . واستأنفت العربة مسيرها ، وكذلك تابع دون كيخوتى وسانتشو طريقهما .

تراءت المغامرات فتارة يدخل دون كيخوتى مغارة سحرية ، وأحيانا يتدخل لحل مشكلة عويصة بين قريتين ، وتارة يبحر على ظهر سفينة مسحورة ، ومرة ينزل ضيفا على دوق ودوقة ثم يخاطر بالذهاب الى مدينة برشلونة ويخوض معركة غريبة مع شخصية جديدة هى شخصية فارس القمر الأبيض .

ولكن كما رأينا فضلت الأسود النوم داخل أقفاصها من أن تهتم بدون كيخوتى ، وفى كهف مونتسينوس تحدث له حكايات غير معقولة ، ومحاولاته فى التوفيق كادت تنتهى بكارثة ، والسفينة التى حملته كانت قاب قريسين أو أدنى من الدخول بين عجالات طاحونة مائية لطحن القمح لولا أن الطحانين هرعوا بعصى طويلة فاستطاعوا تحويل اتجاه السفينة . وسقط دون كيخوتى وسانتشو فى الماء تحت تأثير الصدمة ، ولكن

الطحانين نزلوا في الماء وأنفذهما • وفي القصر الذي استضافه فيه الدوق والدوقة يصبح أضحوكة الجميع • ومن أمثلة سخرية الدوق والدوقة منه هو وسائتشو أن أركبهما فرسا سحريا كبيرا من الخشب (يسمى كلايخيرو) ليطير بهما في الفضاء • كما أنهما جعلتا سائتشو حاكما على إحدى الجزر التي لم تكن غير أحسدى القرى في ممتلكات الدوق •

غير أن أشد مغامراته تعاسة هي الأخيرة التي التحم فيها مع فارس القمير الأبيض • فبينما دون كيخوتي كان يتريض ذات صباح على الشاطئ مدججا بالسلاح من قدمه إلى رأسه ، رأى فارسا مسلحا مثله مقبلا عليه ، وكان على ترسه رسما لقمر باهر • ولما اقترب هذا الفارس صاح : « أي دون كيخوتي دح لمانتشا المغوار ، أيها الفارس الشهير الذي لا يفيه الثناء حقه ، أنا فارس القمر الأبيض ، الذي ربما بلغت مسامحك أخبار أعماله الجيدة • وقد أتيت لامتحان قوة ساعدك ومنازلتك لأرغمك على الإقرار بأن سيدتي ، أيا من كانت ، أجمل من دولثينيا دل توبوسو صاحبك فان أقررت بذلك عن رضا ، أفلت من الموت ووفرت على مشقة اصابتك به ، أما إذا شئت القتال ، فهذه هي شروطي • • إذا انتصرت أنا ، فاني لا أطلب منك غير أن تلقى سلاحك ، وتتوقف عن الجري وراء المغامرات ، وأن تعزل في بيتك طوال عام ، حيث تعيش في سلام وراحة دون أن تمسك بسيف • وإن انهزمت أنا ، فان حياتي بين يديك ، وأسلحتي وعرسي ملك لك ، ومجد أعمالتي العظيمة ينسب اليك • فانظر ما تختار ، وأجبنى في الحال ، إذ لا وقت عندي للانتهاء من هذه المسألة غير اليوم • »

دهش دون كيخوتي من صلف فارس القمر الأبيض وموضوع تحديه ، فأجاب بلهجة جادة قاسية : « أي فارس القمر الأبيض الذي لم تصل إلى مسامعي أخبار أعماله ، سأجعلك تقسم بأنك لم تر أبدا دولثينيا الشهيرة ، لأنك لو كنت رأيته ، لما كنت طلبت هذا الطلب ، وسستدرك غلطتك ، وأنه لا جمال يعدل جمالها • ولهذا لا أقول أنك كذبت ، بل أقول أنك على خطأ ، وأنا أقبل تحديك بالشروط التي اقترحتها ، ولا استثنى منها إلا مجد أعمالك التي تريد أن تنسبها لي ، لأنني لا أعرف ماهي مغامراتك هذه ، واكتفى بمغامراتي أنا كما هي • وأوافق على أن يتم القتال في الحال ، حتى تسرى هذه المسألة في اليوم الذي اخترته ، والله يعين من يشاء • »

تأهب الفارسان للقتال ، فاستدار دون كيخوتي ليتخذ مسافة ، لأنه رأى خصمه يفعل نفس الشيء ، ثم ، وبدون إشارة البدء ، أطلق كل منهما العنان لفرسه • لكن لما كان فرس الفارس الغامض • فارس القمر الأبيض أسرع من روثينانتى ، فإنه أخذ وحده ثلثي الميدان ، وانقض على دون كيخوتي باندفاع شديد جدا ، دون أن يستخدم رمحه ، بل رفعه عن

قصد ، حتى أن روثينانتى وصاحبه تجندلا على الأرض بقسوة في أسوأ حال . وهنا اقترب الفارس الغامض من دون كيخوتي ووضع سحر رمحه في حافة خوذته ، وقال له : « أنك مهزوم ، أيها الفارس ، ستموت إن لم تقرر بما سألتك إياه » .

كان دون كيخوتي دائخا محطما من سقطته ، وليست لديه القوة لرفع حافة خوذته ، فأجاب بصوت ضعيف متكسر كأنه يخرج من قبر : « دولثينيا دل توبوسو هي أجمل النساء ، وأنا أشقى الفرسان . وشقائي لا يحملني على خيانة الحقيقة ، ادفع رمحك ، أيها الفارس ، وانتزع مني حياتي ، مادمت قد سلبتني الشرف » .

فأجاب فارس القمر الأبيض : « كلا ، لن أفعل . ليظل جمال السيدة دولثينيا ، ومجدك سمالين ، ويكفي أن يعتزل العظيم دون كيخوتي في بيته طوال عام ، أن طوال المدة التي أفرضاها عليه ، كما اتفقتا قبل المعركة » .

فقال دون كيخوتي انه مادام لا يطلب منه شيئا يضرب بدولثينيا فإنه سيقبل كل ما يطلب منه بدقة الفارس الصادق الأمين .

لم يكن هذا الفارس الغامض غير سانسون كاراسكو حائز الإجازة ومن نفس قرية دون كيخوتي ، وراه يقول : « أن أحوال دون كيخوتي الجنوبية تثير الرحمة في نفوس كل من يعرفونه . وأنا من أولئك الذين تأثروا لها أيما تأثر ، ولما كنت أعتقد أن الراحة وحدها هي التي يمكن أن ترد إليه عقله ، فقد بحثت عن الوسائل لاعادته الى بيته ، واستقراره فيه . ومنذ ثلاثة أشهر تقريبا ، قمت بجولة فارس جوال ، وأطلقت على نفسي اسم فارس المرايا ، بقصد منازلته وقهره دون الاضرار به . وقد وضعت شرطا للمقاتلة أن يكون المهزوم تحت رحمة الظافر ، ولما كنت أظن أنني سأنتصر عليه بسهولة ، فقد أردت منه أن يعود الى بيته ولا يخرج منه لمدة عام ، مؤملا أن يشفى في خلال هذه الفترة . لكن شاء القدر شيئا آخر ، لأنه هو الذي انتصر على ، وهكذا تبدد مشروعي . وعدت خجلان محطما من السقطة . وكأنت شديدة . لكني لم أياس ، واقسمت أن أعود وانتصر عليه ، وهي ما فعلته اليوم . ولما كنت أعلم دقته في مراعاة قواعد الفروسية ، فإني لا أشك أبدا في أنه سينفذ ما تعهد به » .

وتحاشى سانسون كاراسكو أن يعرف دون كيخوتي حقيقة ما حدث حتى لا تضيق جهوده ونواياه الحسنة سدى ، وحتى يستطيع هذا الرجل المسكين أن يسترد صوابه وعقله ، فدون كيخوتي عقله ممتاز حين لا تعكره تهاويل الفروسية الجواله .

وعند عودة دون كيخوتى يقع فريسة للحمى التى ألزمتة الفراش ستة أيام . وكان القسيس ، وحائز الاجازة ، والحلاق يعودونه مرارا . ولم يفارقه سانتشو ، السائس الطيب ، لحظة . وكان أصحابه مقتنعين بأن مرضه ناشئ عن ذكرى هزيمته وعن اغتمامه لعدم رفع السحر عن دولثينيا ، ولهذا اهتموا بالترويح عنه وتسليته وصرف الهموم عن خاطره . وحثه كاراسكو أن يتشجع ، وينهض ليبدؤوا الحياة الرعوية .

بيد أن شيئا لم يفلح في تسرية الأحزان عن دون كيخوتى . ودعى طبيب ، فحس نبضه ، ولم يرض عنه . وقال أن على المريض أن يعنى بنجاة روحه ، لأن حياته في خطر شديد . تلقى دون كيخوتى النبأ بهدوء ، بينما انخرطت ابنة الأخت ومديرة المنزل ومعهم سانتشو في البكاء . فقال الطبيب : « هذه الدموع ، وهذا الحزن ، ستجهز عليه » . وطلب منهم دون كيخوتى أن يتركوه وحده ، لأنه يريد أن ينام قليلا . فنام نومه متصلة طوال ست ساعات ، وخشيت السيدتان ألا يفيق أبدا . ولكنه فتح عينيه ، وصاح بصوت قوى :

« تبارك الله العلى القدير على ما أنعم به على ! ان رحمته واسعة لا تحد . » وخطايا الناس لا تضعفها ولا تطفئها » .

وأصغت بنت الأخت في صمت الى كلام خالها ، وقد بدا موثر العقل أكثر من المعتاد ، فقالت له :

« ماذا تقصد يا خالى العزيز . وعن أية خطايا ، وأية رحمة تتكلم ؟ »

فأجابها دون كيخوتى : « عن الرحمة التى وهبني الله أياها منذ قليل ، ولم تمنعها خطاياى وذنوبى . ان تمييزي الآن حر سليم ، دون أية سحابة من ذلك الجهل الذى نشرته على قراءتى المستديمة للخطرة لكتب الفروسية » . ثم استطرد قائلا : « انى أشعر باقتراب أجلى ، يا بنت أختي العزيزة ، وبودى أن اموت دون أن أحمل معي الى القبر لقب مجنون ، وان كنت كذلك طوال حياتي . نادى ، أى بنت أختي العزيزة ، أصدقائى : القسيس وحائز الاجازة ، والأسطى نيكولا الحلاق » . ولم تحتج ابنة الأخت الى السعى لاحضارهم ، لأن ثلاثتهم جاءوا .

ولم يكذ دون كيخوتى يلمحهم حتى صاح : « هئؤنى يا أصدقائى ، على أنى لم أعد بعد دون كيخوتى دى لامانتشا ، بل ألونسو كيخانو الملقب بالطبيب » . ثم قال . « انى أشعر بالحياة تفر منى ، انى في حاجة الى من يتلقى منى الاعتراف ، والى موثق لاملأ وصيتي . في الموقف الذى انا فيه ، ينبغى على المرء ألا يسخر من روحه . وهكذا أرجوكم أن يذهب أحد لاحضار موثق ، بينما يتلقى القسيس اعترافى » .

وراح الحاضرون يتطلعون الى بعضهم البعض ، وقد أخذتهم الدهشة من سلامة عقله ، وان كانوا لا يكادون يصدقون . ثم أنه اضاف الى كلامه الاول كلاما آخر كثيرا يبين عن عقل وتقوى ، حتى لم يعد ثم شك في شفاء عقله ، وطلب الفسيس من الجميع أن يخرجوا ، وبقي معه ليتلقى منه الاعتراف .

خرج حائز الاجازة لبحث عن موثق . واتي به بعد قليل مع سانتشو بانثا . ولما علم سانتشو المسكين من كاراسكو سوء حال مولاه ، ووجد المرأتين تبكيان ، أخذ يتنهد ويسفح العبرات . ولما انتهى الاعتراف خرج القسيس وهو يقول : « أنه يموت فعلا ، وقد حان الوقت ليملى وصيته » . أطلقت هذه العبارات زفرات المرأتين وسانتشو ، وانهلثا منهما دموع غزار ، فقد كان الرجل دائما رقيق المزاج حلو المعشر ، جميل الشمائل ولهذا أحبه أهل بيته ، وأحبه كل أهالى قريته .

وعندما انتهت الوصية ، أصيب بنوبة ، وتمدد فى فراشة ، فأسعفوه . . . ولم تمض سوى ثلاثة أيام لفظ بعدها أنفاسه الأخيرة .

- ٨ -

يموت ليموت

لقد كتب الكثير عن هذه الوفاة المفاجئة لدون كيخوتى الذى عاد الى رشده . فبالنسبة الى أصحاب المذهب الرومانتيكى كان طبيعيا أن يموت البطل وهو يحس بالعالم الحقيقى بعد أن تعذر عليه الحياة خارج عالمه الخالى .

ويذهب بعض النقاد الأكثر واقعية الى القول بأن ثريانتس أراد أن يموت بطله لتجنب سرقات أدبية جديدة ، ففضل أن ينهى حياته على أن يرى مؤلفا مزيفا . يحل محله (وبصورة أرى) .

ويبدو أن ثريانتس أعطى سندا لذلك الرأى الذى طرحه بعض النقاد ، عندما طلب فى خاتمة الرواية من السارق أن يترك عظام دون كيخوتى تترقد فى سلام فى مثواها الأخير ، ولا يحاول ، ضد قرارات الموت ، أن يعرضه على قشتالة القديمة .

ان ثريانتس يشير هذا لما جاء في نهاية الجزء الثانى المزيف عن
دون كيخوتى الذى ألفه مجهول باسم مستعار هو أبيانيدا وفيه يقول :
ان دون كيخوتى بعد أن خرج من بيت المندوب ، الذى حجز فيه مدة من
جرائم جنونه عاد الى قشتالة القديمة على ظهر فرس آخر اشتراه ،
وخاض هناك مغامرات رائعة ليس لها نظير ، واتخذ لنفسه سائسا وجده
عند قلعة لودونى ٠٠ ولم يكن الفارس الطيب يعلم أن سائسه امرأة في
زى الرجال الا بعد أن جاءت آلام المخاض ، وولدت وهما في الطريق ٠٠
فرحل بغير سائس الى شلمنقة وآبله ، وباليادوليد ، ولقب نفسه بلقب
فارس الأعمال ٠

ومن المحتمل أيضا أن يكون ثريانتس ، وهو المسيحي التقي
والتمسك براحة نفس البطل الذى أبدعته مخيلته ، قد وجد أنه من الخير
أن يدفن هذا البطل سليم العقل ومزودا بالأسرار المقدسة ٠

الفصل الثاني

شخصيات الرواية

إنها البشرية بأجمعها التي تدور بجوار الفارس دون كيخوتي وسائسها سانتشو ، بكل ما فيها من خيلاء وزهو وغرور وتفاهة ، وبما فيها من ثرثرة وفراغ وخواء ، وبما فيها من خيالات ويوتوبيات (مدن فاضلة) بمثالياتها .

- ١ -

الفارس الفيل

إن شخصية دون كيخوتي ، وسائر الشخصيات الأخرى ، ليس لها حقيقة تاريخية . ولم يوجد فارس باسم ألونسو كيخادا أو كيساندا ، أي على الأقل لم تكتشف حتى الآن ، أية وثيقة تثبت وجوده . لقد خلق ثريانتس شخصية بطله ، ولكنه رسمها كأنها قد عاشت حقاً . بل إنه بجزء أيضاً أنه استعار هذه الشخصية من كتاب المؤرخ العربي سيدي حامد بن النجيلي . ويؤكد أن سكان لاسانتشا يعرفون الفارس ، وأن سانتشو بانثا والقسيس وحائز الإجازة وكثير من الشخصيات الأخرى كانوا موجودين فعلاً .

وهناك بعض كتاب السير يقولون أنهم اكتشفوا أن دون كيخوتي هو صورة طبق الأصل من دون ألونسو كينتانا عم كاتالينا زوجة ثريانتس . وربما لغرابة هذا الشخص استحق لقب « الفك » ، وكان يسكن أيضاً في أحد منازل اسكوبيبياس . ولكن ليس هناك دليل على ذلك . ولا يستبعد أن يكون هناك تقارب في الوصف بين بعض الشخصيات التي قابلها ثريانتس في حياته في أثناء تجواله وبين شخصيات الرواية . وكان ثريانتس يمتاز بقوة الملاحظة فلم يترك مشهداً من المشاهد التي رآها . رحلات ، حروب ، اختطاف ووقوع في الأسر ، إقامة داخل السجن ،

معاشية فناني المسرح ، العمل في خدمة الملك ، جولات عديدة فوق الحصان ، مضايقات ، بؤس .. كل ذلك أعطاه فرص لقاء أغرب نماذج البشر .

صحيح أن دون كيخوتي بطل لكل العصور ولجميع الأقطار والامصار ، إلا أنه لا يخرج عن كونه سيد ريفي نبيل . ولا شك أن ثريانتس قد قابل شخصيات من هذا النوع تتجول في أراضيها عبر القرى التي تلحقها الحرارة ، ويمكن أن نتخيلهم بياقاتهم الكبيرة وأرديتهم وسيوفهم التي تتدلى دائماً على جوانبهم ، وسيرهم البطيء ، ووقتهم الموزع بين القراءة والنزهة وسط قرويين يملقونهم ، وخدم مخلصين ولكن جهلاء ثقلاء .

ويحاول السيد أن يكون نبيلاً كما تراه أسبانيا القرن السادس عشر .. إذ يتصف بعدد من صفات معينة .

يكون الشخص نبيلاً بالميلاد والعقلية ونوع الحياة التي يحيها . ويجب أن يكون من سلالة مسيحية نقية ، وتكون النفسية ذات علو ورفعة لا يشغلها إلا الأفكار السامية ، وأن يزدري كل ما هو سوقي فظ مبتذل ، ونوع الحياة التي يحيها يجب أن تخلو من العمل ، وطبعاً هذا النوع صعب وغير منتج . ويجب ألا يعيش النبيل إلا من إنتاج أرضه . ولكن لسوء حظ صاحبنا فإن هذه الميزة لم تعد سائدة ، والأجزاء الصغيرة من حقوقه لا تكفي لكي يعيش حياة كريمة ، ومع ذلك لن يلجأ إلى العمل . ذلك الذي سيجعله تحت رحمة كرم الآخرين . وعليه أن يعيش من دخله المتواضع مهما كان الأمر .

ولقد أحس ثريانتس أكثر من غيره بسخرية هذا الموقف عندما قدم لنا بطله .

فالنبالة بالنسبة للنبيل لا تظهر عن طريق الحلى أو سخاء المائدة أو امتلاك الأراضي والخدم والقصور الفخمة ، إنما النبيل هو ذلك الذي تجرى الفروسية في دمه وقلبه . ويجب أن يكون ، قبل كل شيء ، كبيراً يعلو فوق التوافه والصغار والسوقية والفظاظة والابتذال والخساسة والدناءة ، أي أن يكون بحق نبيلاً . يقول دون كيخوتي لسائسه سانتشو « لتعلم أنه بإرادة الله ولدت في هذا العصر الحديدي لأبعث العصر الذهبي .. اننى جئت للمخاطر والأعمال البطولية العظيمة » . ذلك هو قانون الايمان بالنسبة للفارس الذي يحلم بآفاق لانهاية لها . ولكي يبرز هذه المثل التي يصعب الوصول إليها ، وضع ثريانتس أمام بطله شخصية سانتشو وطريقة تفكيره المختلفة وهو يرد على سيده : « سيدى .. اننى لا أعرف لماذا تريد مواجهة هذه المغامرة الخطرة .. ان الوقت ليل ولا أحد يرانا ، ويمكننا أن نسلك طريقاً آخر يبعدنا عن الخطر . وماذا منا

لا يرانا أحد ، فلن يصفنا انسان بأننا جبناء » • تلك هى تفاهة الشخصية ،
فان رأى الآخرين هو بمثابة قانون لمثل هذا الرجل • وطالما ان الناس
لن ينعته بالجبن فهو ليس جبانا • انه لا يحس بأخلاقيات القروسية ،
ولن يتبادل مع دون كيخوتى الا الأحاديث الصماء التى يعوزها هذا
الاحساس •

- ٢ -

سانتشو بانقا الذى ولد لينام

كيف نفهم هذه المثالية •• مثالية دون كيخوتى الأثرية بروحيتها؛
وشقوقها ونقاؤها اذا كنا مثل سانشو لا نهتم الا بأجسادنا ولا نشعر
الا بالرغبة لشد حاجتنا الأساسية فى الحياة • انه وهو المتعب والجائع
والذى يكاد يموت عطشا لا يمكنه أن يفهم الجنون الغريب الذى يدفع
سيده الى الانطلاق بجواده نحو مخاطر جديدة ، فنراه يقول لسيده : « ألا
تفضل النزول من فوق جوادك والاستلقاء على العشب طلبا للراحة والنوم
بدلا من الجرى وراء المغامرات ؟ » •

ان ثريانتس لا يطيل فى وصف سانشو بل يتركه يعيش تحت
بصرنا •

سانتشو يترك أحلام المجد والبطولة لدون كيخوتى ، أما السائس
فلا يتمنى الا أحلاما هادئة ، وكل ما يأمله هو أن يحظى بفضل اخلاصه
لسيده الفارس بمكان متواضع تحت الشمس • ولكى يفوز بالجزيرة التى
وعده سيده فهو مستعد لمواجهة كل أنواع المخاطر والمتاعب والانقطاع
عن الطعام والتعرض للسب والشتم وحتى الضرب • ومن بين هذه
المتاعب يوجد شيء وحيد لا يتحمله هو تلك الليالى البيضاء العزيرة
على سيده والتى يقضيها فى مناجاة حبيبته وتأمل النجوم • ومنذ الليلة
الاولى وبينما دون كيخوتى يسهر وأفكاره متجهة الى محبوبته نرى
سانتشو يستغرق فى نوم عميق لا يوقظه منه الا نداء سيده •

ترى هل استمد ثريانتس شخصية سانشو من أنموذج حى ؟
لا يمكننا معرفة ذلك ، غير أن العالم مليء بهذا النوع من الرجال الذين
لا يهتمون الا بملء بطونهم ، ويتعطشون الى الفراش الوثير الذى يجعلهم

يستغرقون في النوم ، ان مثاليتهم عادية جدا ، أما مثالية دون كيخوتى .
فقد كانت غريبة وتفرق كل حد .

- ٣ -

الدوافع الطيبة للجامعى كاراسكو

ان لقب جامعى أو حائز الاجازة كان يطلق فى عهد ثربانتس على كل من تردد على الجامعة لدة لا تقل عن سنتين . . مستوى مشرف في بلد كانت معرفة القراءة والكتابة تعد أمرا فيه ترف . وكان سانسون كاراسكو صديق دون كيخوتى رجلا مثقفا سليم التفكير اعتاد أن يشحن ذكاه بقراءة المؤلفات الفلسفية والأدبية الضخمة التى كانت تعتبر وقتئذ أهم ما يقتنيه الطلبة .

ولكن هذا العلم لن يساعد كاراسكو على فهم صديقه ، بل انه سيكون عنيفا في مصاربة جنون دون كيخوتى بكل السبل . وهو الذى ينجح بحيلته في اعادة الفارس الى مخدعه . والخدمة التى سيؤديها له ستكون قاتلة : أولا لتخيلات الفارس المسكين ، وثانيا لجسده الذى لن يتحمل الصدمة . فليس سانتشو هو الشخص الوحيد الذى لم يفهم أحلام دون كيخوتى . وصحيح أن هذه الأحلام قد بهرت ، ولوانه لا يقاسمه متاعبه وهواجسه الا وهو متأثر قليلا بجنونه وعظمته . ونحن نراه يتحدث عن دون كيخوتى فيقول : « سيدى روحه بسيطة ، ليس فيه أى شر ، وقلبه مفتوح ، لا يسىء الى أحد ، بل يصنع الخير لجميع الناس . ولا يعرف الخبث ، ويستطيع أى طفل أن يوهمه في رائعة النهار أن الوقت ليل . اننى أحبه كأنسان عينى لبراءته ، ورغم كل تهويلاته فاننى لا أقوى على النصميم على تركه » .

ولم يكن هذا رأى الجامعى كاراسكو الذى يرى في جنونه داع لا بد من علاجه بأسرع مايمكن فهو القائل : « أعتقد أن الراحة التامة في قريته وفي منزله ستؤدي الى شفائه » . ولذلك تنكر في زى فارس الماريا ثم في زى فارس القمر الأبيض لمبارزة دون كيخوتى وارغامه على العودة الى المنزل

ترى ماهى دوافع هذه الشخصية العنيدة ؟

ان ثريانتس يقدم لنا شخصية سانسون كاراسكو كشخص ماهر واسع الحيلة ويتمتع بفكر ايجابي . فهو لا يعتقد بصحة أى شيء الا اذا وجد له برهانا . وهو لا يشك لحظة واحدة في أنه على حق عندما يريد انتزاع دون كيخوتى من هواجسه الجنونية . ان كاراسكو يعمل من أجل سبب وجيه ، ولا أحد يذكر أن نبيلًا يتجول على ظهر حصانه يدرع الفياق والقفار ان هو الا مجنون يجب أن يوثق ويحبس .

ولا يمنع هذا من أن يأتى الظرف الذى ينزع غصن النصر من يد العاقل كاراسكو . فالمرت يعيد الى دون كيخوتى هذه الأبعاد الخيالية المخلدة التى تستحقها دون شك هذه النفس الكائنة فوق الوجود المادى والخارجة عن نطاق المألوف .

ويذكرنا هذا الانتصار بانتصار آخر أحرزته بطة مسرحية « الأنسة جوليا » للكاتب المسرحى الروائى السويدى الشهير أوجست ستريندبرج (١٨٤٩ - ١٩١٢) وفيها صراع اجتماعى بين خادم وفتاة أرسوقراطية متناولا ثورة الرجل على طغيان المرأة . ولكن رغم انتصار جان كرجل فى معركة الجنس عندما غرر بجوليا ، فقد انهزم كخادم . فعندما انتزعت بطة المسرحية الموسى من يده لتنتهى حياتها أحسنا بها تقول له : « أرايت أيها الخادم أنك لا تستطيع أن تموت ! » . ومضت جوليا فى حزم وعزم لتلقى الموت فى حين كان جان يرتعد فى حقارة فوق السلم بجوار أحذية الكونت (والد جوليا) ! وهكذا تتضح لنا فى الخاتمة ثنائية المسرحية فقد ظل ستريندبرج طوالها يصور لنا رؤيته التى لا تخلو من غموض عن النبيل والخسة ، والروح والمادة . وهو إذ يحاول أن يفر من الحياة الى آفاق النقاء الروحى لم يستطع أن يقاوم جاذبية الجسد التى تشده الى لحم العالم المادى !

ولكن الطريف فى رواية ثريانتس أن هذا الصراع بين المثالية والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين ، وانما يتداخل الأمر مما يجعله أقرب الى طبيعة الحياة والأحياء ، فدون كيخوتى المثال ، لا يحركه حب الخير وحده مجردا ، بل أنه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة . وسسانتشو بانثا على واقعيته وأطماعه وجشعه يستفز حب العدالة والرغبة فى الخير أيضا . والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى والفكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة .

« ن »

اللس ٠٠ روك جينار

عرفت أسبانيا الكثير من اللصوص ذوى المواهب المتعددة . وقد ذاع صيت بعضهم وظلوا يتمتعون بشهرة كبيرة مثل ديبجو كورينتس الملقب باللس الكريم ، والشهير قرانشسكو ستيفانو وكذلك جوسيبى ماريا « ملك » السيسيرا مورينا . وقد تناقل المغنون أعمال هؤلاء الرجسالى المشهورين الأقوياء .

وهذا لا يعنى أن أسبانيا كانت تحمى هؤلاء أو تعطف عليهم ، ولكن حياتهم فى الخفاء كان لها لون من الاثارة بالنسبة لشعب يعانى الكثير من ألوان الظلم والاضطهاد .

تجمع خدم والدها للعمل فى الحقل فصعدت فوق قمة الأجراس وصاحت وكان من السهل أن يجد ثريانتس فى الحياة نموذجا حيا لللس الشريف والمخلص .

لقد عاش روك جينار فعلا ، وكان لصا من كتالونيا ، الا أن ثريانتس يصوره لنا وفق الخيال الشعبى على أنه لص بطل وكريم ، وعن الصعب أن نتخيل لصا يتحلى بهذه الصفات . ويصبح روك أحد أبطال رواية سون كيخوتى ويتحدث اليه بكل احترام ويمنع رفاقه من تفتيش مانتشر بطريقة جافة ، ويهب لنجدة فتاة حتى نجده فى النهاية يبكى ممها موت خطيبها . ثم نراه بعد أن يجرد بعض المسافرين من أموالهم يحتفظ بجزء من الغنيمة لرجاله ويرد الباقي حفاظا على المظاهر الاخلاقية . . . وكان هذا العمل من النبيل بمكان حتى أن إحدى السيدات المسافرات بلغ من تأثرها أنها أرادت أن تنزل من العربة لتقبل يدى وقدمى روك العظيم ، ولكنه يأبى أن يسمح لها بذلك ، بل ويعتذر لها عما سببه لها من ازعاج .

وشخصية روك هذه فيها الكثير من التناقضات فتتأرجح بين الأدب والعنف ، والدمائة والتوحش . وقد عرف كيف يجذب اهتمام وصدائة دون كيخوتى .

وقد ذكر الكاتب والمفكر الاسباني الكبير ميغل دى أونامونر (١٨٦٤ - ١٩٣٦) أن هذين الرجلين يشتركان فى تعطشهما للعدالة فيدفع ذلك كلا منهما بطريقته الخاصة الى البحث عن السبل التى يغير بها وجه العالم .

دولثينيا .. الفاتنة التي لا وجود لها

ان دولثينيا شخصية غير حقيقية ، وهى لا تظهر على الاطلاق فى الرواية ، واذا ظهرت فتحت شكل مجسد آخر مثل شخصية الدونثا لورنثو التي جعل منها فارس دى لامانتشا فتاة احلامه .

وهذه الفتاة ، وبالمسوخية ، فتاة قوية البنية ، شديدة القوة ، سليطة اللسان تثير اعجاب سانتشو .. ويحكى أنها أرادت ذات يوم أن فيهم كالبوق .

وهكذا ليست هناك أية قرابة بين هذه الفتاة القوية المزعجة وسيدة توبوسو .. ففتاة الاحلام ليست الا فكرة عن المرأة نابغة فى خيال دون كيخوتى ولا نتعرف عليها الا من حركات المقيم الولهان .. فمن اجلها يندفع البطل نحو الصعاب ويخاطر بحياته ويتلقى الضربات ويهزم ويؤكد أنها هى التي تحارب وتتنصر بذراعة ويعيش ويتنفس فيها ويتلقى منها الحياة والوجود .

وقل أن يوجد فى الأغنية أو القصيدة مثل هذا المؤلف الذي يسمى بالمرأة حتى يجرداها تماما من الجسد ويجعل منها شبحا يقع فى هواه البطل .

وقد نجح ثريانتس فى أن يجعل جنون دون كيخوتى كبيرا ومؤثرا لدرجة تؤثر فيها . فتصبح فتاة الاحلام هذه أكثر حياة من الأحياء لدرجة أننا نتخيلها ونتساءل عنها ونخلع عليها ملامح وصفات . ومن الممكن أن نرى هذه الفتاة التي لا وجود لها انما تمثل لنا مثالية المرأة وتمجيد الحب ، ذلك الحب الذي يعتبر الوسيلة الوحيدة للشعور بالحياة ، فالفارس المتجول ، كما يقول دون كيخوتى ، الذي تخلو حياته من الحب كالشجرة الخالية من الأوراق والثمار .. كالجسد بلا روح .. وبالنسبة لثريانتس فان دولثينيا هذه ليست امرأة بل هى صورة للحب ، ذلك الحب الذي يسيطر على الانسان ، وبه تصبح للحياة معنى ، فاذا شفى منه الانسان فإنه يموت كما مات دون كيخوتى .

- ٦ -

تيريسا .. الحكمة التى تتكلم بالأمثال

« لكل داء دواء ماعدا الموت الذى ليس له دواء » بهذه الكلمات، ترد تيريسا على سانتشو الذى يفضل أن يموت من أن يتخلى عن إدارة الجزيرة .

انها تفكر فى المحسوسات الواقعية وليس فى الترهات ، وهما الأول تربية الأولاد . يبلغ ابنها سانتشيكو الخمس عشرة من عمره فتقول : « لقد أن له أن يذهب الى المدرسة اذا أراد خاله الكاهن أن يجعل منه قسيسا . وهنا أيضا سانتشيكو أو مارى سانتشا التى ينبغى أن تتزوج . . . ليصبح سانتشو محافظا أو حتى ملكا اذا شاء ، ولكن لبيتعد عن فكرة أن تتزوج ابنته أحد الفرسان . أن مايلزمها هو رجل من مستواها ، . . . وكما تقول الحكمة تيريسا « نصبح عائلة واحدة : الوالدان والأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد ونعيش فى سلام ببركة الله بيننا » .

ويبتسم ثريانتس من سذاجتها ، ولكنه يرسم لنا صورة جميلة كلها رقة ويجعلها تتحلى بالتواضع والبساطة .

وهنا تهب عاصفة من الضحك يثيرها جنون سانتشو الذى يرغب فى اصطحاب الزوجة والابنة الى الجزيرة التى ينبغى حكمها فتجيبه تيريسا بطوفان من الأمثال للبرهنة على أن الفرغ النسائى فى العائلة قادر على المقاومة .

وبعد هذا الهجوم بالالفاظ تلجأ أخيرا الى إحدى حكمها : « أقفل سانتشا .. أننا معشر النساء نولد وعلينا التزام الطاعة لأزواجنا مهما كانوا حمقى بلهاء » .

- ٧ -

ماريتورنس المسكينة ذات القلب الكبير

يبدو من الوهلة الأولى أن ماريتورنس تجسد بحزن عبث الحياة وتفاهتها . أن هذه الخادمة الشابة التى تتفجر أنوثة وحيوية موضع

اهتمام سائقى الدواب وطائفة كبيرة من الذين على شاكلتهم • ولولا الوصف القبيح الذى وصف به ثريانتس هذه الخادمة لكانت القصة متافية للأدب ، ولكنها واقعية •

أضف الى هذا الوصف أنها تعبر عن الجهل التام ، وربما شعرت هذه الخادمة بهذا التخلف فنراها لا تتكلم فى معظم الوقت وتتحمل مضايقات سائق البغال الذى ينظرها فى سريره ، وحركات دون كيخوتى الذى يرى فيها احدى آلهات الجمال ويعتقد أنها مغرمة به ، وتأنى سيدها رغم أنه لايعبأ قط بما يبدىه الزبائن من اهتمام نحو خادمتها •

وهناك تناقض بين هيئة الخادمة الجسدية وبين وظيفتها مما يجعل موقفها غير طبيعى •

وهذا التناقض هو مبعث الكثير من المواقف الكوميدية لدرجة يشعر وأن فكرة التناقض والهزل مجرد الهزل تغلبت على الثقافة البشرية • وهناك الكثير من المواقف المضحكة فى هذه القصة ومنها مشهد الخادمة وهى تدخل بقميصها عارية القدمين الى العنبر الذى يرقد فيه النزلاء وهى تتحسس طريقها متسللة على أطراف أصابعها بحثا عن عشيقها فتقع على دون كيخوتى •

تلك هى شخصية مارييتورنس الغبية التى تبعت أعمالها على السخرية • • خادمة بائسة لا تتردد عن الانفاق من جيبها الخاص لتخفيف الآلام الآخرين • وهذا العمل الجميل المفاجئ من مارييتورنس يصطبغها بصبغة الانسانية •

- ٨ -

انطونيا •• الرقيقة الشعور أكثر منها قاسية

استوقفتنا انطونيا ابنة شقيقة دون كيخوتى حين قرأنا الفصل السادس من الجزء الثانى من الرواية رغم أنها شخصية عابرة مر بها المؤلف ثريانتس مرور الفرافير • فحين تعرفت هى والمربية على دلائل وعلامات أن خالها يريد استئناف مهنة الفارس الجوال التعيسة عليهما ،

حاولتا بكل الطرق الممكنة أن تثنياه عن عزمه ، إلا أن ذلك كان بمثابة طرق الحديد وهو بارد . وفى أثناء الحوار الذى دار بين دون كيخوتى وابنة أخته ومربيته انبرت أنطونيا تقول له : « اه ياسيدى ، لاحظ أن كل ما تقوله عن الفرسان الجواله ليس الا كذبا وخرافة ، وإذا لم تحرق هذه التواريخ ، فانها تستحق على الأقل أن تلبس لباس المحكوم عليه بالاعدام من الديوان المقدس ، أو أية علامة أخرى تدل على أنها كتب شائنة تفسد الاخلاق » .

فإذا بفارسنا يقول لها وهو يتنهد متحسرا فى اكتئاب ، وقد أحزته أن صلة الرحم لم ترجمه من قسوة الفتاة الشابة : « بحق الله الذى يعيننى ! لو لم تكونى ابنة شقيقتى ، شقيقتى أنا مباشرة ، لعاقبتك على التجديفات التى تفوهت بها عقابا تسمعه الدنيا بأسرها » .

ثم صاح ساخطا مغتاظا : « كيف يمكن لفتاة بلهاء لاتكاد تحسن إدارة اثنى عشر مغزلا لعمل شبكة ، أن تتدخل وتتكلم لتعيب توارىخ الفرسان الجواله ؟ » .

قالت الابنة الأخت : « كان الله فى عونى ! أعتقد ياخالى أنك تستطيع عند الحاجة أن ترقى منبرا أو تخطب فى الطرقات ، ولكن عماك عظيم ، وهذيانك وخطك معروف بين ، حتى لتظن فى نفسك أنك شجاع قوى وأنت عجوز ، قوى البنية وأنت مريض ، مصصح للمظالم وأنت نفسك قد أخذنى عليك الدهر ، وفوق هذا كله فارس مع أنك لست كذلك » . لأنه لو أن النبلاء يمكن أن يصيروا فرسانا ، فإن الفقراء منهم لا يمكن أن يصيروا كذلك » .

فقال دون كيخوتى : « أنت على صواب فيما قلت يا ابنة شقيقتى ، وفى وسعك فيما يتعلق بهذه الفوارق فى الأصول ، أن أعلمك أمورا تخلب لبك وتنتزع أعجابك » . ثم استطرد قائلا : « هناك جنس فى هذا العالم كان أوائلهم متواضعين ، ثم انتشروا وتزايدوا حتى بلغوا قمة العظمة »

وفى موضع آخر نراه يقول : « وثم طريقا للوصول الى العظمة والجاه : الآداب والأسلحة وأنا أكثر تضلعا فى الأسلحة منى فى الآداب » . وقد ولدت ذا ميل فطرى الى الأسلحة ، تحت تأثير النجم المسمى المشتري .

وهكذا فأنى مضطر الى سلوك هذا الطريق ، وساتبعه على الرغم من كل العالم بأسره . فعبثا أذن تحاولان اقناعى بالسير ضد مشييده السماء ، وضد أمر القدر ، وأمل العقل ورغبة نفسى . وأنا أعلم أنه إذا كانت أعمال الفروسية الجواله لا تعد ولا تحصى ، فإن الخيرات التى تجلبها هى أيضا لا نهاية لها ، وإذا كان طريق الفضيلة ضيقا ، فإن طريق الرذيلة واسع رحب فسيح . وأن هذين الطريقين مختلفان كل الاختلاف ،

لأن طريق الرذيلة ، وهو مفتوح وميسور ، يقضى الى الموت ، وطريق الفضيلة ٠٠ القاسى الشاق يقضى بنا الى الحياة ، لا الى حياة فانية ، بل الى تلك التى لم تنتفد أبدا وأنا أعلم ، كما قال أحد كبار شعرائنا الأسبان (وهو جارشيلاسو دى لاييجا ١٥٠٣ - ١٥٣٦) ، أنه عن هذه الطرق الشاقة يذهب المرء الى عرش الخلود ، حيث لا يصل اليه أبدا من يتخذ طريقا آخر » .

قصاحت ابنة الأخت : « آه ! يا لشقائى ! ان خالى شاعر أيضا ٠٠ انه يعرف كل شىء ، ويفهم كل شىء ، وأراهن أنه لو شاء أن يكون بناء لبنى منزلا كالقفص » .

وفي الحقيقة ان الفتاة الشابة ٠٠ انطونيا كانت ذات فطرة سليمة ، وممتلئة بالعفة والفضيلة وتخشى الله ٠ ونحن لانلومها على اخلاصها ٠

بيد أننا اذا أردنا أن نحلل هذه الشخصية علينا ألا نجزيء غضب دون كيخوتى ، وذلك الذى تذهت به تلك الفتاة ، التى نعتها خالها بالبلهاء ، حتى لا نبدو أمامها أشخاصا سريعى التصديق ٠

ولاريب أنه فى هذه المرة أيضا قد تسلى إلينا ذلك الجنون النبيل ٠٠ جنون دون كيخوتى من طول معاشتنا له حتى أصابنا بالعدوى دون أن نعلم ٠ ومن فرط ترددنا على عالمه حتى ألفناه وصانقناه ، جاءت اللحظة التى أصبح فيها الآخرون ، الذين كنا نعتقد أنهم من ذوى العقول السليمة والتفكير السوى ، وقد بدوا لنا قصيرى النظر ، عاجزين عن أن يقاتلوا بشىء غير خوايى النبيذ والفراش الوثير (حلم سانتشو) أو يهتزوز لغير مهنة تخريم الدانتلا (تلك التى تلخص حياة انطونيا) ٠

ان هذه الفتاة الشابة التى ترهبها الأعمال المنزلية ، ورغم ظهورها العابر الذى لم يستغرق سوى لحظات خاطفة فى الرواية ، تجسد لونا رماديا رسمته فرشاة ثريانتس الفنان عن الحياة الرتيبة المملة التى تعيشها العديد من النساء ، غير أنهن بقدر ما يعانونه من تعب وسأم وملل وضجر بقدر ما يتمتعن بقطرة سليمة ، وعفة وفضيلة ٠

وهى أيضا صورة أصيلة ونموذج للكثيرين من ذوى الفكر الهزيل ٠

وهكذا نجد أن انطونيا التى تمثل اللون الرمادى ، انما هى رمز لأولئك الذين يعيشون عيشة الكفاف ، ويحيون حياة خاملة ٠

الفصل الثالث

عرض لآراء الكتاب والنقاد فى العمل

(١) تفوق ثريانتس فى الميدان القصصى

كان ثريانتس شاعرا وكاتبا مسرحيا وقصصيا يكتب القصة القصيرة والرواية .

أما من شعره فإن ثريانتس نفسه يعترف بأن مقدرة فيه متوسطة وفى خطاب مؤرخ فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٦٠٤ ذكر الكاتب المسرحى الكبير لوبى دى بيجا أنه لا يوجد فى أسبانيا شاعر « سىء مثل ثريانتس » .

وقد كتب ثريانتس كمية وافرة من الشعر الذى شغف به طوال حياته . فمنذ كتب أولى قصائده بمناسبة وفاة الملكة ايزابيلا دى فالوا عام ١٥٦٩ حتى نهاية حياته تعددت المناسبات التى نظم فيها شعرا فكتب القصائد عن الأحداث المعاصرة ، والحب ، ومدح الشعراء المعاصرين ، وكتب قصيدة عن القديس تريستا دى آبيلا ، وتغنى بالارمادا . . الأسطول الأسباني الذى لا يقهر . وكثيرا ما تتضمن رواياته ومسرحياته أشعارا دينية . وقد تخللت رواية دون كيخوتى بعض المواقف الشعرية . وفى قصيدته الطويلة « رحلة الى بارناسوس » التى تقرب من ثلاثة آلاف بيت امتدح ثريانتس شعراء عصره البارزين ، وعرض أعماله وانتاجه الأدبى فخورا بها ، وبعض النبذات عن تاريخ حياته .

وكان ثريانتس يعلق آمالا كبيرة على مؤلفاته المسرحية . ولكنه لم تلق حظا أكثر من شعره لأسباب عدة منها نظريته التقليدية للتمثيل وخضوعه المبالغ فيه لقواعد أرسطو فى التأليف المسرحى ، وعدم توفيقه فى تطوير الحدث ، كل ذلك لم يسمح له بمناقسة الأعمال الخلاقة التى قام بها لوبى دى بيجا .

ومن أحسن مسرحيات ثريانتس « حصار نومانثيا » ٠٠ مأساة حدثت في أسبانيا في أثناء حصار الرومان انومانثيا عام ١٣٤ ق م. وفيها يشيد ثريانتس ببطولات الأسبان حيث فضل أربعة آلاف منهم الموت على الاستسلام ، وقاوموا ثمانين ألفا من جنود الرومان وعانوا حصاراً طويلاً انتهى بإبادة المحاصرين وإفنائهم عن بكرة أبيهم . ومن مسرحياته أيضاً : « تجارة الجزائر » وقد استمد مادتها من أسره في الجزائر ، و « سجون الجزائر » و « الزوج العجوز الغيور » و « بدرو المحتال الماكر » و « كهف سالامانكا » .

ويشير ثريانتس في مقدمة كتابه « ثمان كوميديات وثمان فواصل كوميدية جديدة » الى أنه كتب من عشرين الى ثلاثين مسرحية في الفترة من ١٥٨١ الى ١٥٨٧ .

أما الميدان الذي تفوق فيه فهو ميدان القصص والروايات . وقد اثبتت رواية دون كيخوتى وجودها لكونها شيئاً جديداً . لم تخيد شهرتها منذ ذلك الحين .

الا أن رواية « لاجالاثيا » التي تتبع أسلوب الرواية الرعوية لم تعش طويلاً رغم أن هذا الانتاج كان أكثر أصالة في نوعه وفي زمنه ، فمنذ أن ألف الكاتب الايطالى جاكوبو سنانازارو قصصته الرعوية « الأركاديا » أصبحت نموذجاً لكل القصص الرعوية من بعد . وامتلات السوق الأوروبية بهذا النوع من الروايات ، والذي لم يلبث أن انتشر في اسبانيا في العصر الذهبي (القرن السادس عشر) . ولم يكن هذا النوع من المؤلفات يروق لثريانتس . فبالرغم من أن قصة الحب الريفى التقليدية بية راعية الغنم الجميلة والراعى الشاب ايليثيو يقدمها مؤلفها كبداية لكتاب مقسم الى ستة أجزاء فان هذه الرواية لم يكن لها بقية . وقد فسر ثريانتس سكوته هذا في قصته القصيرة : « حوار الكلاب » . ونحن نراه يدلنا لنا برأيه محكما مقتضيا عن ذلك النوع الأدبى . ان يقول الكلب برجانبنا الى صديقه الكلب ثيببون : « ان أصحابى الرعاة كانوا يعضون أحسن أوقاتهم في تنظيف شعر بعضهم البعض وفي ترقيع أحذيتهم » . وعن الأركاديا يقول الكلب الفيلسوف : « تلك أشياء ترى في الحلم وتقدم لتسلية العاطلين ممن ليس لهم عمل ولا تحمل أدنى ظل من الحقيقة » .

واذا كان ثريانتس قد زج بنفسه في هذا النوع فانه كان يحلم بطبيعة مثالية . وكما عبر في « لاجالاثيا » عن أسفه للعصر الذهبى حيث كان الجميع يجهلون هاتين الكلمتين : « ما تملكه أنت وما أملكه أنا » . وفى هذه الكلمات نرى هجومه على الملكية الشخصية وبداية لمذهب روسو . فجان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) نراه فيما بعد يعزو الشر والخطيئة الى المجتمع ، وينادى بالعودة الى الطبيعة والحياة الطبيعية البسيطة حيث يجد فيها الانسان سعادته .

وقد أصبحت مثالية ثريانتس ركنا أساسيا في أعماله التالية . ولما كانت رواية « لاجالانثيا » قد ارتبطت بالأسلوب الشائع في ذلك الحين ، لذا عاشت حياة قصيرة ولم تكن لها أصداء . بينما نجد أن مؤلفاته التي تعدت هذه الحدود مازالت تقدم للقراء ثروة لا ينضب معينها .

وتحتل القصص النموذجية مكانا خاصا في مؤلفات ثريانتس لا يتكشف فيها من عناية بالأسلوب ، وإبداع في فن التأليف . ولقد اعتبرت لمدة قرن من الزمان تحفة المؤلف ، وكثرت طبعاتها حتى فاقت في القرن السابع عشر طبعات دون كيخوتي . والقصص النموذجية معاصرة لرواية دون كيخوتي تحفة ثريانتس الرائعة ، والتي لو لم يكتبها أصلا لكانت قصصه القصيرة كافية ليرتبع مؤلفها عرش عمالقة الأدب ، فكلها من إبداعه شأنها شأن رواية دون كيخوتي . وهو لم يأخذ سوى الشكل من القصص الإيطالية الرومانتيكية . وقد قال ثريانتس بحق في تقديمه لهذه الأثنى عشرة قصة أنه أول من كتب قصصا قصيرة في قشتالة ، ويعود ثريانتس المبدع الحقيقي للقصة السيكولوجية القصيرة في أسبانيا .

وبرغم أن ثريانتس قد أطلق على مجموعته القصصية : قصص نموذجية إلا أن نمونجيتها ليست مثل القصص التعليمية القديمة كتلك التي كان يكتبها خوان مانويل . ولكن ثريانتس قد أضاف صفة « نمونجية » إشارة إلى أن قصصه القصيرة ليست من النوع اللا أخلاقي كما في القصص الإيطالية .

ولما كانت أسبانيا وطن القديس اجناثيو دى لويولا ، والقديسة تريسا دى آبيلا ، والقديس خوان دى لاکروث ثم لمحاكم التفتيش ، فتت كان لزاما على ثريانتس أن يسمى قصصه بالنموذجية أو المثالية ليبرهن على شرف مقصده . وهي تتكون من اثنتى عشرة قصة . وقد بنى بعضها على حبكة رومانتيكية معقدة . تلك التي تروق لثريانتس ككاتب مسرحي . والبعض الآخر منها استمد من خبراته الشخصية . ولما كان الأسبان يستمتعون بالقصص التي يسخر فيها الخدم الأوغاد من ههنا أسيادهم ، فقد كتب ثريانتس قصصا تصور حياة الأفاقين والمقشردين واحداها كانت حوارا بين كلبين ينطقان بلسان هؤلاء الأفاقين وعنوانها : « حوار الكلاب » . ومن قصص المجموعة أيضا : « الغجرية » ، « الغيور الاكستريمادوراوى » ، « حائز الاجازة » ، زجاج » وغيرها .

وقد أدخلت هذه المجموعة القصصية الواقع فى الأدب ففيها صورة حقيقية لأخلاقيات العصر ، وأسلوب حى ، وفن عميق . وتبين عن مواهب عظيمة فى الإبداع وعن ثراء فى التعبير ، وتعد شيئا جديدا فى ذاك العهد الذى كانوا يكتفون فيه بترجمة القصص التى تصل اليهم من ايطاليا ثم من فرنسا ، وكانت من النوع الذى يتميز بالاثارة واستغلال موضوعات تكاد تكون إباحية ، وترسم صورا واقعية لبعض المظاهر غير السليمة فى أخلاقيات ذلك العهد .

وأصبح من المسلم به أن كل ما كتب من قصص منذ القصص
النمذجية لثربانتس ينبع من هذه الأرض الفنية . وكل النقاد يجمعون
على ذلك .

وقد خلع الكاتب المسرحي تيرسو دي مولينا (١٥٨٤ - ١٦٤٨)
على ثربانتس لقب بوكاتشو الأسباني . وذلك إشارة الى الكاتب الايطالى
جوفانى بوكاتشو (١٣١٣ - ١٣٧٥) الذى احتل مكانة هامة في تاريخ
الأدب ومن أهم أعماله الديكاميرون التى تشمل مائة قصة .

وقبل أن يغادر ثربانتس دنيانا بثلاثة أيام أنجز السطور الأخيرة من
روايته « أعمال برسيلس وسيجسموندا » . وقد طبعت عام ١٦١٧ . وهذه
الرواية زاخرة بمغامرات مختلفة من الخيال . وهى تحكى مغامرات
عاشقين يهربان من بلادهما ، ويتعرضان لمغامرات مثيرة لينتهى بهما
المقام في روما حيث يتزوجان . وهذه القصة لا يقرأها اليوم الا
المتخصصون الذين تعجبهم صفات الرواية القديمة .

أما رواية دون كيخوتى فهى أعظم عمل فنى في الأدب الأسباني .
وقد أفردنا لنقدنا بقية هذا الفصل الثالث من الباب الثانى .

(ب) فيض حماسى من التفسيرات

ترتبط شهرة ثربانتس بالاستقبال الحافل ، والترحيب المنقطع النظير
الذى لاقتة تحفته الأدبية دون كيخوتى منذ نشر الجزء الاول من هذه
الرواية . وما زالت مغامرات « الفارس الحزين الطلعة » وسائسه الغليظ
الحركة تلاقى الاعجاب والتقدير من قراء العالم أجمع لمدة ثلاثة قرون
متصلة .

وكما يحدث بالنسبة للمؤلفات ذات الاهتمام العالى صارت هذه
التحفة موضع تفسيرات عديدة . وكانت كل حضارة تلتقى فيها بكل
ماتحدث عنه . وهذا الفيض الحماسى من التفسيرات لم يتوقف منذ القرن
السابع عشر حتى يومنا هذا . ومهما تغيرت الأذواق وتنوعت الأفكار
فمن الميسر أن نجد في التاريخ حقبة لم تهتم بهذه التحفة . بل تحولت
أهم شخصياتها مع مر السنين وكر الأعوام الى خرافات عالمية وصمدت
أمام تجربة التفسيرات العديدة المتضاربة .

حازت هذه الرواية نجاحا ساحقا فى حياة مؤلفها ، وليس أدل على ذلك من تلك الطبعات الست عشرة التى ظهرت فى ذلك الوقت • وقد اعتبر هذا العمل أطرف قصة فى عصرها ، وأخذت شعبيتها تزداد فى اضطراب مستمر •

ومن الأقوال الأسبانية الماثورة عن دون كيخوتى أنها قوبلت بالضحك فى القرن السابع عشر ، ثم بالابتسامات فى القرن الثامن عشر ، وبالدموع فى القرن التاسع عشر ، ويحتوى هذا القول رغم اقتضاسه على بعض الحقيقة • إذ أن مضمون هذه الرواية لم يزد عمقا الا بالتدريج ، ولم تظهر نفائس هذه الرواية الا مع مرور الزمن •

ويجدر بنا الآن أن نعضى فى رحلة عبر المراحل المختلفة التى مرت بها هذه الرواية التى خرجت من يد المؤلف لتسلك طريقا غير متوقع •

٩

ملهاة للمكتئبين

لاحظ أول قراء هذه الرواية ما أعلنه ثريانتس نفسه عما كان يريد إدخاله فى هذا العمل : نقد أدبى يسخر من هذا النوع الذى بدأ يأفل وهو روايات الفروسية • وفى نفس الوقت أراد المؤلف أن تكون روايته ملهاة للمكتئبين والغاضبين وتمدهم بالتسلية الطريفة والبريئة • وقد سلك المؤلف المجهول ، الذى أكمل الجزء الأول من الرواية ، هذا الاتجاه • فرأيناه يعطى لأبطال ثريانتس تفسيرات كاريكاتورية ، وجعل من دون كيخوتى مجنونا مضحكا ومن سائسه مخلوقا بالغ الحقارة • إن ضيق العقلية البشرية فى دون كيخوتى مؤلفه آبيانيدا تبين لنا كم كانت قراءة دون كيخوتى ، تحفة ثريانتس ، سطحية • لقد بدت مغامرات الفارس الحزين الطلعة كوميدية ومسلية قبل كل شيء • والدليل على ذلك أعدادها العقيم المسرح الذى قام به جويين دى كاسترو (١٥٦٩ - ١٦٣١) وهو من أبناء بالانثيا • ولم يستطع المثقفون فى ذلك العصر ، ولا حتى الشعراء السمو والعلو والارتفاع عن هذا المستوى الظاهرى • وقد كتب لوبى دى بيجا يقول : « الأحمق فقط هو الذى يمتدح دون كيخوتى » •

ولكن فى مقابل ذلك نرى أن بساطة الرواية ووضوح أسلوبها

وتوازنها المنسق أشاع شعبيتها بين الجماهير الأقل ثقافة . وفي هذا ما يفسر خلق الطبقات التي ظهرت من الحواشي والتعليقات . وقد تكون الأفكار والتعليقات التاريخية والعواطف واللغة التي تناولت كل ذلك من الوضوح بمكان بحيث لم تكن الرواية في حاجة الى تفسير في نظر قراء هذا العصر . ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للأجيال التالية التي لم تدرك بعض المصطلحات والاشارة الى عادات وتقاليد أو شخصيات طواها النسيان . ولذلك أضحت هناك حاجة الى ضم ملحق تفسيري مناسب للرواية .

- ٢ -

الثار من شارل الخامس

إن مشكلة تفسير رواية دون كيخوتي تفجرت في أوروبا بمناسبة الترجمات الأولى لها .

وفي البلاد التي كانت إسبانيا على علاقة مباشرة بها عرفت رواية دون كيخوتي منذ الربع الأول من القرن السابع عشر . ويرجع الاستقبال الذي قوبلت به في فرنسا على أقل تقدير نتيجة للموقف المعادي لإسبانيا الناشئ عن ظروف سياسية . وقد اعتبرت شخصية دون كيخوتي تقليدا ساخرا حيا للمثاليات البطولية التي كانت سائدة في عهد الامبراطورية . فأشبعت قراءة مغامرات هذا الفارس النبيل رغبة الانتقام في نفوس أبناء عمومة هؤلاء الذين انتصر عليهم شارل الخامس . إذ وجد القراء الفرنسيون في تفتت الأحلام التي تمجد الفروسية اشارة واضحة لنهاية فكرة العظمة والصمود الخرافية التي كانت سائدة منذ أكثر من قرن .

ومهما يكن من أمر فقد اعتبر ثريانتس في فرنسا منذ القرن السابع عشر أحسن من مثل الفن القصصي الإسباني .

كهل وجندى ونبيل وفقير

وهناك قصة طريفة نقلها ماركس دى توريس ناقد رواية دون كىخوتى والذي كان كاهنا فى حاشية كاردينال توليدو تبرهن عن المكانة التى حققها ثريانتس فى فرنسا ، وفى حياته • كان ذلك فى أثناء المفاوضات الجارية بمناسبة حفلات الزواج الاسبانية التى ستجمع بين لويس الثالث عشر وان دوتريش (ابنة الملك فيليب الثالث) وكذلك زواج ايزابيل ابنة هنرى الرابع وفيليب الرابع • فقد توجه كاردينال ورئيس أساقفة توليدو مع حاشيته فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٦١٥ لرد زيارة سفير فرنسا الذى حضر خصيصا لابرام الزواج • ويقول الناقد والكاهن : « لقد اقترب منى بعض النبلاء الفرنسيين الذين كانوا فى حاشية السفير ومن أصدقائى يستفسرون عن الكتب التى كنا نوليها اهتماما خاصا • وما ان طرق مسامعهم اسم ثريانتس حتى أخذوا يذكرون المكانة المرموقة التى كانت تحظى بها مؤلفاته فى فرنسا وفى الدول المجاورة لها • وكان أحدهم يحفظ لاجالاتيا عن ظهر قلب تقريرا ، والقصاص النموذجية • وقد بلغ مديحهم حدا جعلنى أعرض عليهم مصاحبتهم لمشاهدة مؤلف هذه الكتب ، فقبل هذا العرض بحماس شديد ، وراحوا يسألوننى عن عمره ووظيفته وصفاته ومركزه ، فاضطرت أن أقول لهم انه عجوز وجندى ونبيل وفقير • فقال أحدهم كيف لا تمنح اسبانيا الثراء لهذا الرجل ، وتجزل العطاء مقدقة عليه من المال العام ؟! وأنبرى آخر يقول : اذا كانت الحاجة قد دفعته الى الكتابة فقد شاعت الارادة الالهية الا يكون فى رغد من العيش حتى يخذى وهو الفقير العالم أجمع بمؤلفاته » •

ترى هل تم اللقاء المنشود ؟ لم يدل ثريانتس بأية تفصيلات عن ذلك الا اذا أردنا تفسير ما ذكره ثريانتس فى مقدمة الجزء الثانى من روايته كاشارة لهذا اللقاء عندما قال ان دون كىخوتى كانت موضع التقدير فى الصين نفسها ان كتب مايلى : « والذى أظهر أكبر رغبة فى مشاهدته هو امبراطور الصين العظيم ، ذلك أنه بعث الى قبل أقل من شهر برسالة عاجلة مع رسول خاص ، مكتوبة باللغة الصينية ، يطلب منى فيها ، أو بالأحرى يتوسل الى ، أن أبعث به اليه ، لأنه يود أن ينشئ كلية تدرس فيها اللغة الاسبانية ، وأن يكون النص المستخدم فى التعليم هو قصة دون كىخوتى » •

الفرنسيون يبهرون أسلوب الرواية

إن الأسلوب الروائي الذي كتبت به تحفة ثريانتس قد بهر الفرنسيين * وقد استعرض أودوريه دي أورفيه (١٥٦٧ - ١٦٢٥) هذا الأسلوب في روايته « آستريه » وهي رواية رعوية إلا أن أهميتها ترجع إلى أنها طورت تذوق التحليل الرقيق للمشاعر والأحاسيس الذي استوحاه مؤلفها من رواية سون كيخوتي * وكذلك شارل سوريل في روايته « الراعي الأخرق » التي ظهرت عام ١٦٢٧ *

وكان الكاتب المسرحي راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) يحتفظ بالقصص النموذجية ، وبرواية دون كيخوتي في مكتبته * وأبدى الشاعر الفرنسي لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥) ، الذي اشتهر بخرافاته ذات المغزى ، إعجابه بهذه المؤلفات * كما أخذت الكاتبة الفرنسية مدام دي سيفينييه (١٦٢٦ - ١٦٩٦) تقص الرواية على أصدقائها في إحدى نزعاتها * وكان كثير من الفرنسيين قادرين على قراءة ثريانتس في النص الأصلي والحكم على مقدرة المترجمين * ومن الطريف أن أحسن ناقد في ذلك القرن، وهو سان أفريمون (١٦١٦ - ١٧٠٣) كان يوقع على خطابات له ، التي يرسلها إلى مدام دي مازاران بهذه الكلمات : « الفارس الحزين الطلعة » وكانت الدوقة تجيبه برسائل مبهورة بتوقيعه : « دولثينيا » * وكان سان أفريمون يقول : « من بين الكتب التي قرأتها تمنيت أن أكون مؤلف كتاب دون كيخوتي » *

ووسط هذا المديح سنتوقف أمام الكاتب الفرنسي لى ساح (١٦٦٨ - ١٧٤٧) مؤلف رواية « الشيطان الأعرج » ، والذي يدين بالكثير إلى ثريانتس ، اجترأ على وضع دون كيخوتي المزيف ، والذي ترجمه للقارئ الفرنسي (١٧٠٤ - ١٧٠٧) قبل دون كيخوتي الحقيقي * إلا أن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وهو من أعظم كتّاب فرنسا ومن زعماء الفكر الحر، أعاد التوازن لميزان النقد عندما قارن رواية دون كيخوتي الأخيرة بالأوديسا *

الإنجليز والرواية

بينما وجد قراء الدول اللاتينية في رواية « دون كيخوتي » ملهامة لطيفة ، نجد أن النقاد الإنجليز في القرن الثامن عشر ، وكذلك نقاد الماديا قد نظروا الى الرواية نظرة أكثر جدية .

لقد انفعّل الجمهور الإنجليزى بهذه الرواية بحساسية أكبر حيث كانت هناك ظروف ملائمة في الثقافة الإنجليزية لتقبل رسالة ثريانتس . ولكن هناك أسباب أخرى أسهمت في الحكم السليم على هذه الرواية لاسيما حب التدقيق والبحث السيكولوجي الذي يتصف بالواقعية . وانجلترا هي أول دولة تقوم بترجمة « دون كيخوتي » منذ عام ١٦١٢ . كما يعود إليها الفضل في محاولة التفسير الحرفي الدقيق لهذه الرواية

وفي عام ١٨٧١ قام كاتب إنجليزى يدعى ج . بول بتأليف كتاب قيم عن ثقافة ثريانتس الواسعة ، واستخرج منها تفسيراً علمياً ذا صبغة أدبية وتاريخية ولغوية ، ولكن بقدر أقل لا يرقى الى مستوى رواية « دون كيخوتي » للمؤلف الأسباني .

إن نشاط العلماء اللغويين في القرن السابع عشر هو الذي دفع النقاد الأسبان الى وضع مذكرات تفسيرية . كما تأثر كتاب الرواية الإنجليز في ذلك العصر بأسلوب ثريانتس . فقد وجد دانييل ديفو ، مؤلف رواية روبنسون كروزو ، في رواية دون كيخوتي نية مقصودة في النقد الاجتماعي اللاذع . كما نرى في رواية « تريسترام شاندى » لمؤلفها لورنس ستيرن الكثير من الآثار الكيخوتية : الاجتماعات التي لا تنتهي ، ورحلات الفروسية ، والتخيلات الروكامبولية والوصف الدقيق للمشروعات الجنونية . ولم يكن ستيرن هو الوحيد الذي أعاد شخصية « دون كيخوتي الشمال » بل قام توبياس سموليت بتقليد الرواية في روايته « رودريك راندوم » التي نشرت في عام ١٧٤٨ . كما أن له رواية بعنوان : « مغمرات السير لونسيلوت جريفز » وهي قصة دون كيخوتي من القرن الثامن عشر .

وأخيراً قام هنرى فيلدنج بكتابة نص ساخر عنوانه : « دون كيخوتي في إنجلترا » .

الركض وراء النوايا الخفية والمقاصد السرية

ظلت رواية دون كيخوتى هى القراءة المفضلة لدى جمهور أسبانيا كبير طوال القرن الثامن عشر . ولكن بتأثير فلسفة التنوير التى جاءتهم من فرنسا فسرت الرواية على أنها نقد لاذع وأن مؤلفها كانت له نوايا خفية ومقاصد سرية ذات صبغة سياسية واجتماعية .

وكلما أتت ظروف النشر كانوا يحاولون الكشف عن الأسباب الحقيقية التى دفعت ثريانتس الى كتابة الرواية . ومن هنا بدأت الحقبة الطويلة التى يمكن تسميتها بالجرى وراء نوايا المؤلف الخفية . فندى عام ١٧٨٠ قام الناقد بيتنتى دى لوس ريوس بالمسير فى هذا الاتجاه ، وحول الصورة الانسانية الواسعة التى تتضمنها الرواية الى مجموعة من التلميحات والاشارات الى شخصيات وأحداث وقعت فى القرن السادس عشر . ولم يتردد فى ذكر تلميحات دقيقة تشير الى الامبراطور شارل الخامس وللدوق دى ليرما والى عظماء آخرين عاشوا فى هذا العصر . ولائسبات رؤيته هذه يؤكد الناقد وجود تكلمة لدون كيخوتى هى البوسكابييه (أو بالون التجريبية) أماط فيها المؤلف (يقصد ثريانتس) فى أواخر حياته اللثام عن مفاتيح هذه الايام القديمة ، مزيجا النقباب عن خفايا روايته .

ومن أغرب ماحدث عام ١٨٤٨ أن أدولفو دى كاسترو ادعى أنه عثر على البوسكابييه فآثار عندما نشره معركة نقدية عنيفة ظلت حامية الوطيس حتى اللحظة التى افتضح فيها هذا التلاعب والادعاء .

وظل اتباع ثريانتس فى أسبانيا ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يسيرون بطويلا فى هذا الطريق الذى اختطه النقد الرمزي وسمة رواية دون كيخوتى سيرة ذاتية عن حياة ثريانتس متسرولة بالرمزية تصد هجاء وفضح العديد من مختلف الشخصيات . وقد شعر احد النقاد عن مساعد الجد والاجتهاد بحثا عن العلاقة بين حياة المؤلف وبعض مغامرات الفارس الحزين الطلعة . وكذلك تناول أسسماء الشخصيات مسعيا وراء التغييرات التى أجريت فى ترتيب أحرف تلك الأسماء لعله يكتشف اسما مستترا ومحجوبا . وراح تابع آخر من اتباع ثريانتس يحاول اثبات أن المؤلف عندما كتب دون كيخوتى كان مدفوعا برغبة لتخليص مجتمعه فى ذلك العصر من عيوبه وآفاته ونقائصه محاولا تصحيح مساوئه وأخطائه ، وأن يبني مجتمعا آخر .

وهناك رؤية أخرى كاثوليكية لهذه القضية بطلها هيجل كورتاثيرو

في كتابه « ثريانتس والانجيل » وفيه يريد أن يرى في بطل لامانتشا صورة تحيط بها هالة من القداسة ، ويختتم كتابه معلنا ضرورة تفسير دون كيخوتي من منطلق الانجيل .

وكان رد الفعل لكل هذه التفسيرات والاتجاهات أن تكونت في إسبانيا ذاتها مجموعة قوية من الشراح المدققين المتمكنين راسخين الأقدام وقد فضل هؤلاء العلماء البحث من النواحي التاريخية والسيرة الذاتية واللغوية بدلا من التفسيرات الاعتباطية التي قد لا تخلو من تعسف وجموح في الخيال .

- ٧ -

هوميروس الجديد كما يراه الرومانتيكيون

يرجع الفضل الى الرومانتيكيين الألمان في إيجاد التفسير الجاد لتحفة ثريانتس التي راوا فيها نموذجا للرواية الحديثة أو على الأقل مؤلفا يفي بالتزامات الفن القصصى في القرن التاسع عشر . فقد اكتشفوا فيها مرضا مكتملا ومتوازنا للاتجاهات المتعارضة التي تشغل العقل البشري ، وبهذا تصبح مغامرات فارس دى لامانتشا ذات مغزى عميق .

ويعود الفضل الى الفيلسوف الألماني شيلينج (١٧٧٥ - ١٨٥٤) الذي وجد أن ثريانتس قد نجح في تحويل رواية الى صورة عامة وجميلة للحياة . ولولا عبقرية هذه لأصبحت هذه الرواية مدعاة للنقد الساخر لنوع معين من الجنون . ولذلك فهو يعتبر دون كيخوتي النموذج الكامل للرواية ويدعو الى ضرورة اتباع قواعد تأليفها على أن نأخذ في الاعتبار فيما يختص بالموضوع حقيقة القرن التاسع عشر .

ويعتبر شيلينج أن ثريانتس أكبر عبقرية أنجبتها الحضارة الأوروبية . وأن تأثير تحفته الشعرية لا يمكن أن تقارن الا بتأثير هوميروس بالنسبة للحضارة الكلاسيكية . فرواية دون كيخوتي في نظره تجمع أفضل ما فيها من حساسية فنية حديثة ، بين النوع الملحمي والنوع الدرامي فدون كيخوتي ليست فقط رواية عظيمة فحسب ، انما هي الرواية بمعنى الكلمة في براعتها وشفوفها .

ويؤكد الكاتب فيلهلم فون شليجل (١٧٦٧ - ١٨٤٥) على المعنى الرمزي للرواية التي تعبر عن الصراع الأزلي بين الشعر والنثر في الوجود الانساني .

- ٨ -

ادخال الشعبي في الرواية

وقد رأى الشاعر الألماني هينريش هايني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) أن رواية دون كيخوتي قد أدخلت الشعب وقدمته في ثناياها ، وكان هذا بالتالي بدء الأدب الحديث .

ومن ثم نجد أنه في القرن التاسع عشر استرعت الرواية انتباه أكبر شعراء وكتاب أوروبا واستلقت أنظارهم . وبالمثل يتغلغل تأثيرها في فرنسا . وقد أصر شاتوبريان . . أحد رواد الحركة الرومانتيكية الفرنسية عند زيارته لاسبانيا أن يتجول في إقليم المانتشا الشهير ، وكان دون كيخوتي بالنسبة إليه « آخر الفرسان » . ونراه يقول « لقد بلغت الموهبة حدا أن جعلت من النقد اللاذع للفروسية اطراء ومدحا خالدا لأخلاقيات وفضائل وآداب الفروسية في العصور الوسطى » .

أما الروائي الفرنسي ستندال (١٧٨٣ - ١٨٤٢) فقد قرأ دون كيخوتي وهو في العاشرة من عمره ، وكان يكتف ضحكاته خوفا من أن ينتزع والده المتزمت الرواية منه . وفي سن الثالثة والخمسين كان يريد أن ينسى ، في كل شهر ، كبرى أعمال ثريانتس حتى يجد لذة في إعادة اكتشافها .

وعرف الناقد الفرنسي الكبير سانت بييف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) كيف يستخرج ما أتى به الكاتب من جديد وأساسى . فأشار الى الفكر الممحض الحر الذي أوحى به المؤلف الاسباني ، والذي نجده منعكسا في نفسية البطل الرئيسي .

ويقول فيكتور هيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) : « يجب معرفة قراءة كتب القرن السادس عشر . ففي أغلبها ، بسبب ما تتعرض له حرية الفكر في ثناياها من تحذيرات وتهديدات ، يوجد سر يجب الكشف عنه ومفتاحه غالبا ما يكون مفقودا » .

ويعلق الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير (١٨٢١ - ١٨٨٠) على رواية دون كيخوتي بهذه الكلمات : « ياللكتب الضخمة أنها تكبر كلما تأملناها مثل جبال البرانس وينتهي بنا الأمر بأن نحشاها » .

وكتب الشاعر والروائي والناقد تيوفيل جوتييه (١٨١١ - ١٨٧٢) عندعودته من إحدى الرحلات : « لا يمكن أن نخطو خطوة في اسبانيا دون أن نجد ذكرى دون كيخوتي ، فرواية ثريانتس قومية بصورة عميقة ،

وشخصيتنا دون كيخوتى وسائسه يلخصان السمات الاسبانية : تعظيم وتمجيد القروسية وروح المغامرة التى يجمعها رهاقة الحس والذكاء والفكر العملى السليم ونوع من البساطة والبشاشة التى تفيض رقة ولطفا مع القدرة على القول اللاذع » .

وقد حاول جوتيه والناقد جيوم دى هامبولت أن يبيننا قيمة الرواية من الوجهة التاريخية فقد وجدنا فيها قمة السمات الاسبانية فى عصر النهضة التى تتصف بحب المغامرة والقروسية ، ولكنها سمات تتحدى بالفكر العملى وبالسخرية الخصبة .

وبالنسبة لاميل مونتيجو (١٨٢٥ - ١٨٩٥) وهو ناقد آخر فى ذلك العصر ، نجده يرى أن ثريانتس يمتاز بالرمزية التى تسيطر عليه . . فقد رسم صورة لاسبانيا فى عصره . . اسبانيا بايمانها الرهيب . . التى تطغى عليها محاسن التفتيش التى هزمتها البحارة الانجليز ، والهولنديون .

وقد اوجت رواية ثريانتس للفيلسوف الفرنسى أوجست كوندت مؤسس الايجابية الفرنسية بعض الانعكاسات الهامة عن أهمية الفكر والروح البطولية فى كل مجتمع . وعند ملاحظته للأوجه الايجابية لظاهرة القروسية تمنى كوندت بناء ما أسماه « القروسية الصناعية » لكى نعلى لعصرنا قيما بدونها لا يمكن للبشرية أن يكون لها أبعاد ذات قيمة .

ومن ديكنز الى فلوبيير ، ومن تولستوى الى ستندال ودوستويفسكى كثر روائيو القرن الماضى الذين وجدوا فى دون كيخوتى منبعاً للوحى .

— ٩ —

دون كيخوتى فى ملابس نسائية ، وملامح الأسطورة فى أشكال أخرى

وقصة « مدام بوفارى » التى كتبها فلوبيير هى أحد البراهين على مدى تأثير رواية « دون كيخوتى » فى الأدب كما ذكرنا سابقا . وقد اعتبرها خوسيه أورتيجا جاسدت تجسيدا نساويا للأسطورة الكيخوتية فى العصور الحديثة .

وقد عثرت على رواية بعنوان : « الكيخوتي الأثني أو مغامرات آرابيلا » حيث كتبها مؤلفها شارلوت لينوكس عام ١٧٥٢ كتقليد لرواية دون كيخوتي .

كما أن هناك ملامح لنفس هذه الأسطورة في أشكال متعددة في رواية « تارتاران التاراسكوني » للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه (١٨٤٠ - ١٨٩٧) أو في رواية « بيكوك » لديكنز ، كما لا ننسى رواية « العبيط » لدستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) وهي الصورة الأكثر تجسيدا للأسطورة في الأدب الروسي . وقد أعطت الملتخولية أو الانقباضية الملحمية لدون كيخوتي الفرصة للروائيين الروس للتأملات العميقة .

وقد حاول الكاتب ذو الاحساس المرفه تورجنيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) أن يرسم بكل دقة الملامح الانسانية لبطل دي لامانتشا في مقال بعنوان : « هاملت ودون كيخوتي » حيث يضع هاتين الشخصيتين اللتين عاصرتا نهاية عصر النهضة الأوروبية وجها لوجه فيخرج من هذا الى ما تحتويه شخصية دون كيخوتي من ثروة انسانية .

فدون كيخوتي يجسد بالنسبة لتورجنيف مشكلة الايمان . . الايمان بشيء ازلي لا يتغير ، ووجودها مرتبط بالصراع الكريم في سبيل نصرة الحق والعدل على وجه الأرض . وعلى خلاف هاملت الذي يضع نفسه في مركز العالم لا نجد في شخصية دون كيخوتي أي أثر للانانية والغرور ، فالشخصية كلها عامرة بانكار الذات والتضحية .

ومن الأشياء المؤثرة في هذا المقال الفريد هو إعادة تقييم شخصية سانتشو بجانب البطل الرئيسي . ان القيمة الأساسية لهذا السائس هي اخلاصه المطلق وهذا الاخلاص نابع من الصفة العظيمة التي يتصف بها الشعب باقتناق كل هدف نبيل وسام .

وقبل أن نترك هؤلاء الكتاب الروس الكبار يجدر بنا أن نذكر أنه عندما طلب بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) من جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) أن يكتب « النفوس الميتة » اقترح عليه أن يخلق دون كيخوتي روسي . وتبل أن يمسهك جوجول بالقلم أخذ يعيد قراءة الأوديسا بصوت عال ودون كيخوتي في نص مترجم الى الفرنسية . ليس بطل قصة « المعطف » ألما هو دون كيخوتي بأسلوبه وتصرفاته أكثر انسحاقا .

ومن بين المؤثرات التي أثرت بها رواية ثريانتس في القرن الماضي يجدر بنا أن نذكر تأثيرها على الفنون التشكيلية ذلك الذي سنفرد له كتابا بأكمله . وتحتل فرنسا في هذا المجال مكانا مرموقا بأعمال جوستاف دوريه وأونوريه دوميهيه . وقد زار الأول أسبانيا لفترة طويلة قبل أن يبدأ عمله .

كما أعدت الموسيقى تبعا للعصور المختلفة الموضوعات المستوحاة من رواية ثربانتس التي يتطلبها التأليف الموسيقى كالتأليف المتكامل للماسينييه ، والقصيد السيمفوني لريتشارد شتراوس ، ورقصات الباليه الرقيقة التي صممها مانويل دي فابيا .

وقد توالى العروض الأوبرالية في مختلف العواصم العالمية ومنها :
* أوبرا المانية عن دون كيخوتى وضع موسيقاها جان فيليبى فروتش عام ١٦٩٠ .

* أوبرا انجليزية عن دون كيخوتى وضع موسيقاها بورسيل عام ١٦٩٤ .

* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته في بلاط الدوقة » وضع موسيقاها كالدارا عام ١٧٢٧ وعرضت في فيينا .

* كوميديا من فصل واحد بعنوان : « سانتشو باثنا في جزيرته » وضع موسيقاها فيليدور عام ١٧٦٢ وعرضت في ايطاليا .

* أوبرا ايطالية بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها بيتشيني وعرضت في نابولى .

* أوبرا ايطالية بعنوان : دون كيشوته « وضع موسيقاها تاركى عام ١٧٩١ وعرضت في باريس .

* أوبرا بعنوان : « دون كيشوته » وضع موسيقاها جارثيا عام ١٨٢٧ وعرضت في نيويورك .

ونود أن نشير أيضا الى تأثير رواية دون كيخوتى في الأدب المسرحى حيث استلهمها العديد من الكتاب في أعمالهم ، ومنهم الكاتب الأسباني خاينتو بنابنتى في مسرحية « خالقو المصالح » التي عرضت في القاهرة عام ١٩٧٤ . وقد استمد مؤلفها فكرتها الى حد ما من رواية دون كيخوتى لثربانتس حيث نجد صراعا بين المثالية التي يمثلها لياندرو والواقعية التي يمثلها تابعه كريستين . بيد أننا نجد القابع يتألق نجمه ويتفوق على الفارس . فلياندرو فارس عصرى، ليست رومانسية الفروسية بالنسبة اليه الا أصداء باهتة من الماضى ، ولا تمثل حقائق حية كما كان الحال بالنسبة الى دون كيخوتى . الفارس الحزين الطلعة . وكذلك كريستين فهو أيضا سانتشو باثنا عصرى فقد كثيرا من بشره ومرحه في ثنايا العنف والقلق والتمزق والضياع الذى يعيشه الانسان وسط حضارة القرن العشرين . ولكن طموحه فاق طموح سيده .

وهناك مسرحية غنائية « خرافة » لمؤلفها بويرو بايخو وفيها أيضا فكرة الصراع بين المثالية والواقعية مستلهما شخصية دون كيخوتى وتابعه سانتشو . وقد عرضت في القاهرة عام ١٩٧٥ بعنوان « دون كيشوت » .

وقصتها تدور عن مغنٍ مغمور في فرقة أوبرا يدعى ايلوى يشعر بالظلم وأنه لم يأخذ حقه مثل رودولفو المغنى الأول للفرقة الذى منحه الدولة وسامين عن تمثيله الغنائى ، فيختل علق ايلوى ويعيش فى أوهام وخيالات تصور له أن أهل المريخ سيزورون كوكبنا الأرضى فى أطباقهم الطائرة ليرفعوا الظلم ويقيموا العدل والحرية بين الناس . ويسخر بأقوى الممثلين منه ولايتعاطف معه سوى الممثل « سيمون » الذى يتقمص شخصية سانتشو بانثا . غير أن ايلوى انسان سلبى يقف مكتوف اليدين مستسلما لأوهامه وخيالاته منتظرا زيارة رجال كوكب المريخ لأقامة العدل ورفع الظلم . فأين هذا من دون كيخوتى لثربانتس الذى حمل رمحه وترسسه ومضى على صهوة جواده يدافع عن الحق بقوة ذراعه .



وبينما لم ينقطع تأثير رواية « دون كيخوتى » عن الانتشار فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، فإن النقد العلمى استمر فى تحقيقاته الدقيقة حولها . فقد تناولت الأبحاث الرواية ومؤلفها من زاوية علم اللاهوت ، والموسيقى ، وعلم الاجتماع ، والطب . ويستوقفنا فى هذا المجال الأخير أن الطب وصل الى استنتاج أن الشخصية كان يعترئها جنون زائف . وبعض الأبحاث نراها فى تحليلها تعتبر أن ثربانتس كان متدينا ، وتارة أخرى تعتبره معارضا للكليروس . وبالنسبة للبعض تحتوى الرواية على بذور ليبرالية ، وبالنسبة للبعض الآخر تحتوى على ميول رجعية .

- ١٠ -

قلق باروكى تحت ستار المرح

تحتل رواية ثربانتس منذ بداية القرن العشرين مكانا مرموقا فى النشاط النقدى والأدبى فى العالم أجمع .

ان الذين ينتمون الى ماسمى فيما بعد بجيل ٩٨ (وهو جيل عميق الاحساس بكارثة عام ١٨٩٨ الذى انهزمت فيه الامبراطورية الأسبانية أمام الولايات المتحدة وفقدت ما تبقى لها من مستعمرات) والذين كانوا من أشهر شُعراء ومفكرى أسبانيا الحديثة احتفلوا بدون كيخوتى بحماس متجدد مكتشفين فى الرواية أساس وحيهم والهامهم .

لقد بين أونا مونو في كتابه الشهير عن « حياة دون كيخوتي وسانتشو » البطلين وهما يتماسكان مع الحقيقة ، يدفع أحدهما التعطش الأبدي للمجد والخلود الذي يسكن في داخله ، ويدفع الآخر الاخلاص البسيط ، الذي يكاد يكون حيوانيا نحو المثالي الكبير .

ويرى أونا مونو أن موت دون كيخوتي هو تنوير للرواية ، ويعبر عن الانتقال النهائي من المثالية البطولية الى الايمان بحياة فوق أرضية . انه ليس استسلاما ولكنه احلال مثالية أكثر دواما محل مثالية خيالية وهمية . وبقلم الكاتب العصري الكبير تأخذ صورة الفارس المتجول وسائسه ابعادا خرافية كبيرة . وينطلق الاثنان يتجولان على غرار أبطال العهد القديم الى نبع لا ينضب من السلوى ومن التجدد الأخلاقي .

ويقول الكاتب الصحفي راميرو دي ماثثو ان تحليل دون كيخوتي وتحليل ثريانتس ورفاقه يدل على أن التعاليم التي يستقيها الشعب من هذا الكتاب ليست غير معقولة ، لأن قراءة دون كيخوتي تعزى أسبانيا في مصائبها وتغسل رءوسها من الأوهام ، ولأن ماهدف اليه ثريانتس في كتابه أن يعزى نفسه ويضحكنا من ويلاته التي كان يعتبرها قد تولدت من الجلام . فاقت الحد ، ولأن أسبانيا في تلك الساعة كانت متعبة بسبب الأعمال البطولية الفذة والشاقة في القرن السابق ، فقد كانت الشعوب الأسبانية تحارب في جميع أنحاء العالم ، فكان صراعا يفوق قواها لم تنتصر فيه الا نصف انتصار ، وقد وجدت أسبانيا في دون كيخوتي الايحاء الذي تحتاج اليه للشفاء والراحة اللازمين لروحها ولجسدها . ويصف ثريانتس لنا هذه الخاتمة للحمة أسبانيا بطريقة رمزية بوساطة شبحين كان ينبض فيهما قلب ذلك العصر الذي فك عنه السحر ، ويجب أن ننظر الى دون كيخوتي بمنظار القرن السادس عشر لرؤية عظمتة الحماسية ولنجذب أنفسنا اىحاء يأس الكتاب وقنوطه .

ويقول الكاتب والفيلسوف الأسباني خوسيه أورتيجا جاسيت ان ثريانتس يؤكد أنه ألف كتابه ضد الفروسية ، ولكن في الأزمنة الحديثة لم يعد يلتفت في مجال النقد الى ما قاله ثريانتس والى هدفه من وراء هذا القول . وقد يظن أن كلامه هذا ما هو الا أسلوب من أساليب الكلام ، وما هو الا مقدمة معادة مقلدة يقدم بها كتابه . وهذا هو ما حدث عندما أطلق على مجموعة قصصه القصيرة لفظ نموذجية أو مثالية .

من هو دون كيخوتي ؟ وماذا نعلم عما يرغب أن يوحيه اليها من الحياة ؟ فالأنوار الضئيلة التي سلطت عليه جاءت من أقوام من الخارج أمثال شيلينج ، وهابني ، وتورجنيف ، وتلك كانت أضواء وقتية وغير كافية ، ان لم يكونوا ينظرون الى دون كيخوتي كمسألة مصيرية كما هي في نظرنا .

ولا يوجد أى كتاب له قوة التلميح الرمزي للمعنى الشامل للحياة أعظم من هذا الكتاب . . . وعندما يجتمع بعض الاسبان المثاقرين من بؤس ماضيهم تحل بينهم روح دون كيخوتي فتوحد الحرارة المذابة في شخصيته الغربية بين تلك القلوب المتفارقة وتدخلها في خيط روحى كحبات عقد وتسكب فيها مشاعر الوطنية ، وتضع وراء مرارة شخصياتها ألما وطنيا مشـتركـا .

ان الواقع في حد ذاته مناقض للشعر ، وإذا لم توفق جولات دون كيخوتي وتحركاته الكثيرة الى ارشادنا الى أى من الجهتين نضع القارس قاننا بجانب الصواب اذا ملنا الى ناحية دون الأخرى ، اذ أن دون كيخوتي هو الخط الفاصل بين هذين العالمين .

ولا يجب أن نغضب اذا قيل لنا ان دون كيخوتي واقعى اذ علينا فقط أن نأخذ بعين الاعتبار أن اردة دون كيخوتي التى لا تتزعزع أصبحت تشكل معه قسما من الواقع . وهذه الارادة كان يملؤها عزم ثابت أكيد وهو أنه لا بد من المغامرة . فدون كيخوتي الواقعى يرغب رغبة أكيدة في المغامرات ، كما يقول بنفسه : « قد يستطيع الرقاة والسحرة أن يحولوا بينى وبين المغامرة ، ولكن يستحيل عليهم أن ينتزعوا منى القدرة الفائقة ورباطة الجأش » .

وهكذا فان الواقعية نفذت في مضمون الشعر لكى تسمى بالمغامرة الى مقدرة جمالية أكثر سموا من الشعر خاليا من الواقعية . فالواقعية تتفتح لكى تستوعب العالم الوهمى ولكى تكون لهذا العالم سسندا ومرتكزا .

وقد ذكر الكاتب والروائى خوسيه مارتينيث رويث الشهير باسمه المستعار آثورين أن قيمة هذه الرواية قد تزايدت بسبب الاضافات المتتابعة من تعليقات القراء عليها لدرجة أنها مازالت تقدم امكانية تكوين رأى يتفق مع التزامات كل عصر وكل ثقافة .

وفي بحث رئيسى وهام لجيلنا الحاضر وعنوانه « فكر ثريانتس » (١٩٢٥) درس أمريكى كاسترو يتعمق الوجه الايديولوجى للرواية يعتبر اعلانا عن الحساسية الاسبانية ورقة شعورها في عصرنا .

وهكذا احتلت رواية دون كيخوتي مكانها في الواقع الثقافى الحديث ، وهى منتج من نتاج صهر جميع التقاليد القشتالية ، واتخذت مكانها عند تلاقى التيسارين الواقعى والمثالى ، وظهرت في الفترة الدرامية للتدهور السياسى والعسكرى الذى عانت منه اسبانيا .

ويبدو أن ثريانتس قد عرف ببصره الثاقب الازمة الحقيقية التى

كان المجتمع يمر بها في عصره ، وعرف كيف يعبر عن القلق النفسى تحت ستار المرح الذى يسبق القلق الباروكى .

وبفضل ما قام به الكتاب والمؤرخون والنقاد من اعادة تنظيم الجو النفسى والروحى الذى صيغت فيه رواية دون كيخوتى اكتسبت الرواية ابعادا واضحة ، وأصبح القارئ الحديث يستطيع أن يقدر الأوجه التى لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

- ١١ -

دون كيخوتى كما نراه اليوم

ما أقل الشخصيات التى جسدت دراما مجتمع قلق خائف غير مستقر ، ودائم البحث عن القيم مثل بطل ثربانتس .

لقد وجدت عصور بدا للإنسانية ، فى الطبقات المثقفة على الأقل ، أنها وجدت حلا للصرع الأبدى بين المثالية والواقعية ، بين الخبز والورود ، بين ما يلمس بالأصبع وما يكتب له الخلود بعد الفناء .

وقد وجدت العصور الوسطى وعلى طريقتها الخاصة حلا للمشكلة بايمانها . فيما وراء الطبيعة ، وأما الباقي فهو الشر أو الخطيئة دون أدنى تمييز .

ووجد المذهب الانسانى فيما بعد حلولا أخرى فى طريق مضاد يصبح فيه الانسان محور ومقياس كل شئ .

واعتقدت بعد ذلك فلسفة التنوير أنها وجدت سر التوازن فى ممارسة الفكر .

ثم جاءت الفلسفة الايجابية المتفائلة التى وجدت فى العلم سلاحا لا يخطئ لضمان الحرية الذاتية للانسان الذى تخلص أخيرا من هذه الثنائية المزعجة : النفس والجسد أو المثالية والواقعية . وكما نرى هناك عصور بنيت على تأكيدات أو على الأقل على اعتقاد بأنها تمتلك أو هاما .

وقبل هذه الفترات المضيئة وبعدها نكتشف مناطق ظلال يملؤها القلق من كل نوع ، يقع فيها الضمير الانساني فريسة للشك ، ويعتبر عصرنا الحالي عصر الأزمة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان • ومن بين المتناقضات المتعددة التي تحاصر العالم الحديث تظهر مرة أخرى تلك الثنائية : المثالية والواقعية • ونسأل كل يوم : الى أى حد حضارة حياة الرفاهية الرغدة تكفى انسان اليوم ؟ وإلى أى مدى تظل عنده الحاجة الى اللامحدودية والخلود الأبدى ؟ يبدو أننا نعود دائما الى هذا الموضوع الأساسى : موضوع الانسان وحدود الانسان وأسباب صراعه •

ان الأحاديث التي يتبادلها دون كيخوتى وسانتشو توضح جيدا تمردنا على الذين يريدون احتجازنا داخل واقعية تحددها أبعاد الأشياء المادية •

وهاهو ذا دون كيخوتى يصيح دائما أمام طواحين الهواء أنها عمالقة صانعا منها أعداء كما صورتها له مثاليته ، ولكن سانتشو ، وهو الرجل الذى يرى الأشياء كما هى يؤكد له أنها طواحين هواء • فهو أذن على حق ، ومع ذلك فأننا نفضل عليه الآخر • • الشاعر المجنون الذى يواجه العمالقة طالبا في السر مساعدة حبيبته دولثينيا • انه دون كيخوتى الذى يلازمنا كلما وجدنا الواقع هزيعا أمام أحلامنا • وهو الذى ينعكس فيه تعطشنا الى الجمال في عالم يبدو أنه يجهل هذا التعطش وهذه الرغبة الكامنة فينا • وهو الذى يصاحبنا عندما تراودنا الفكرة بأن آبار البترون وأحواض السباحة الرخامية لا تكفى لصنع الانسان • وهو أيضا الذى يحول لنا أصحاب الفنادق المتراضعة الى ساكنى قصور ، والفنادق نفسها الى قصور ، والأراضى الجرداء الى واحات تكسوها الخضرة اللينة •

ان الفارس وسائسه هما مرآيا حية لصراعنا اليومى أمام عالم يزداد اضطرابا يوما بعد يوم • وهناك في رواية دون كيخوتى موضوع آخر عزيز على انسان الجيل الحاضر وهو الاعتراض •

ولما كان ثريانتس يعتقد مذهب تحطيم التماثيل الدينية أو مقاومة تقديسها ، فانه كان يهدف الى هدم الأصنام والنظم الاجتماعية التي لا فائدة منها ، والتي تقيد الانسان أو تثقل كاهله • ان سخريته اللاذعة تتناول بقايا عالم فروسى كان عظيما فيما مضى ثم أصبح الآن مجرد خيال ، وتفردت عبقرية ثريانتس في أنه جمع في شخصية واحدة تبحث عن العظمة الحقيقية كل الهواجس العصرية ، وكل التطلعات نحو هدم الأيديولوجيات القديمة التي عفا عليها الزمن ، والعرف والمظاهر والأمجاد الزائفة ، حتى يبنى مكانها عالما يسود فيه الحب والشعر والنبالة الساعية في خير الانسانية •

فاذا نزعنا من دون كيخوتي كل مايتحلى به من ملابس القسرن السادس عشر ، فلن يتبقى من الفارس الدامى الجسد مما أصابه من ضربات على طرق لامانتشا الا صرخة اعتراض حية ومؤلمة ضد تفاهة العالم وعيبه .

ومهما بحثنا فى ماتنتهى اليه هذه الاعتراضات ، وهذه الاحلام ، فلن نجد حكمة أو خاتمة محددة أو نوعا من الحلول . ويجتهد ثريانتس بكل السبل الممكنة أن يعيد بناء الانسان من الأجزاء المتألمة من بطله الذى أثخنه الجراح .

ولكن ليست هناك تذكرة طبية تحوى تركيبات معينة لمثل هذه العملية التى تشبه العمليات الكيميائية . ويبدو أن المؤلف كان مقتنعا بذلك لدرجة أنه يفضل أن يقذف بفارسه من الحلم الى النوم الأبدى بدلا من أن يرغمه على الحياة فى عالم يريد أن يسود فيه هؤلاء الذين يدعون أن عندهم حولا حسب المقاس لكل التساؤلات . فدون كيخوتي لا يعرف الا ألمه الشخصى ، وطريقه الخاص . وهو يجهل أين يتجه حتى أنه عندما تسلىح وامتطى ظهر جواده روسينانتى ترك له العنان فلم يكن يعرف الى أين يمضى . وحيث أن ثريانتس ليست لديه حولا فلم يستطع أن يقترح حولا . وربما جاءت صفة العصرية هذه من أعراض تلك الأزمة .

فهو مؤلف عصرى ، ليس فقط بموضوعيته المجردة ، ولكن أيضا بأسلوبه . فليس من المعتاد أن نجد أنفسنا دفعة واحدة وعلى مستوى واحد مع مؤلف من القرن السادس عشر ، لابتعدنا عنه لا اللغة ولا الأسلوب ولا حذقة فى استعمال التعبيرات المتقعة والكلمات المهجورة من التى كانت مستخدمة عند القدماء رغم جمالها ورسوخها التقليدى فنراه مثلا يكتب : « أشسرت الشمس » بدلا من الجملة التقليدية المعتادة : « جذب فيبو عنان جواد مركبته النارية » . (وفيبو فى الاسسبانية هو الاسم الخرافى للشمس) .

أضف الى ذلك أن القارئ الحديث متعود على نغمة معينة ، ونوع معين من السخرية ، والصدق فى التعبير عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجربة بلا اسراف ، ورفض أساليب البلاغة والكلام المزخرف المتصنع المنمق، والمصطلحات الرنانة . ان هذا النوع من العرض أفضى الى استبعاد عدد لا يستهان به من الأعمال القديمة .

ومن النادر ، حتى فى أيامنا هذه ، أن نجد نثرا يمثل هذا الصدق ، وهذه اللغة التى تخضع دائما لسيطرة المؤلف ، واستعمال هذا الأسلوب الهزلى المرح يمثل هذا الحذق والتفرد الذى جعل من ثريانتس ، مؤلف دون كيخوتي ، عصريا الى الأبد .

« كان ضاسمر الجسم ، نحيف الوجه ، يصحو مبكرا ، مولعسا بالصيد » . تلك هى الصورة المقتضبة التى رسمها المؤلف فى بدء روايته لبطله دون كيخوتى والتى تمكننا من تخيله .

ان تجريد الملامح ورقة اللمسات من شأنها التقريب بينها وبين أفضل الأعمال الابداعية الحالية . وماذا نقول عن اللوحات التى تجمع بين الملحمية والكوميديا لبطلنا . . انها لوحات باقية فى جميع الأذهان ، ولن تبلى من ذاكرة الأجيال .

بعض الناس الذين ولدوا بالأمس يبدون لنا وكأن عمرهم خمسة قرون ، أما دون كيخوتى فإنه يحتفظ بالشباب لدرجة أنه بمجرد ظهوره يتسم ونتأثر حتى يخيل إلينا كأننا نحن الذين خلقناه ، مع اعتذارنا لشربانتس .

وفى ختام هذا نترك الكلمة لأحد كبار المتخصصين الفرنسيين فى الثقافة الإسبانية ، فقد قال جان كاسو فى مقدمة طبعة لابلياد : « أن دون كيخوتى لا يهم فقط أسبانيا والذين يبحثون فيه عن أساس العقلية الإسبانية فحسب ، بل انه يعتبر أحد التواريخ الهامة بالنسبة للعالم الغربى : أصل الفكر المعاصر ، والتمرد فى عالم منظم ومقاطعته ، وتجريد العالم من الأساطير الخرافية . بيد أنه بعد نشر ما كتبه مونتانى وعنوانه : « مقالات مونتانى » ظهرت عزلة الانسان . الا أنه من خلال مقالات مونتانى هذه يبدو الأمر أكثر وضوحا ، فهذه العزلة تسمح بتجميع أحسن المراهب وأكثرها كفاءة اجتماعية التى يذبض بها القلب البشرى . فمهما كانت هذه الرواية محزنة ومؤلمة ، فإنها تفيض بالمحبة ، وتشع ضوءا قدسيا ، فطوية قلب دون كيخوتى ، والانسانية التى تنبعث من أحاديثه مع سانتشو ، والمركة الجميلة التى تقوم بها ماريثورنس وهى تقدم جرة الماء لهذا الأخير ، واللمسات المؤثرة ، والحكمة المستمدة من آيات الانجيل ، والنبالة القشتالية ، والضحكة التى تحتفظ دائما بوقارها ، وأخيرا الطريقة التى يسمو بها سانتشو ودون كيخوتى شيئا فشيئا تحت بصر مؤلفهما . كل ذلك يخلق جوا حول هذه الرواية لا تكف الأجيال عن استنشاق عبيره الزكى » .

خاتمة

لعل من الواجب علينا في ختام بحثنا أن نوجز في شمول ما عسى أن يكون قد أسهم في الالمح إليه :

١ - عاش ميجل دى ثريانتس حياة كانت عبارة عن سلسلة من التشرد والتجوال والتعاسة والعذاب ٠٠ امتحنته فيها الأيام ٠٠ ويا لها من أيام طويلة مملوءة بالشقاء ، حافلة بالآلام ، تجرع فيها مرارة الحزن الى أقصاها ، واصطلى نار الالم الى أشدها ، فصمد للمحن والخطوب ٠ والرواية لا نلمح فيها أشخاص عصره ومن قابلهم من شتى صنوف البشر فحسب ، بل ذكريات حياته الخاصة وطموحه وأحلامه وما عاناه من شقاء وشظف العيش ٠ وربما أعانته كثرة أحلامه على احتمال آلامه ٠

ومن داخل أسوار السجن عندما بدأ يكتب رواية « دون كيخوتي » تذكر كل ذلك ٠٠ مع ما خاضه في حياته من معارك ، فقد كان ثريانتس وطنيا متأجج الوطنية ، وفقد في معركة ليبانتو البحرية استعمال يده اليسرى ، كما طاف بذهنه مامر به من محن ، ووقوع في أسر القراصنة ذائقا ذل العبودية والاسترقاق ، ثم مرارة الفشل في حياته الزوجية ، وما لقيه من متاعب عائلية ومالية ، ومن حسد أبناء مهنته من الكتاب (مثل لوبى دى بيجا ، وآبيانيدا) وكيدهم مما نغص عليه بعض حياته ٠

وكأنى بميجل دى ثريانتس من خلال حياته المثيرة يقول لنا ينبغى أن نحتمل حياتنا في شجاعة واصطبار لأن الحياة نفسها كالموت قدر محتوم ٠

٢ - يرى البعض رواية « دون كيخوتي » قصة ساذجة ممتعة فيستمتع بها ، بينما يراها آخرون لغزا محيرا رغم اعتراف مؤلفها أنه إنما أراد أن يهاجم قصص الفروسية التي فتن مواطنيه حتى أفقدتهم الاحساس بالواقع ٠ بيد أن قصص الفروسية كانت قد دالت دولتها من

قبل أن يؤلف ميجل دى ثريانتس رواية « دون كيخوتي » بل نشعر بها تحيي عصر الفروسية وتمجده رغم السخرية الظاهرية من عالم الفرسان، وجعلتنا نتعاطف مع دون كيخوتي ونتجاوب مع آماله وأهدافه النبيلة رغم قسوة ثريانتس عليه .. مما دعانا الى البحث عن سبب آخر أكثر عمقا دفع ثريانتس الى تأليف روايته .

ان ملامح الفارس تشبه الى حد كبير ملامح المؤلف الذي خلق هذه الشخصية ، فقد كان دون كيخوتي كما جاء في بداية الرواية كهلا من نفس سن ميجل دى ثريانتس ، وكان له نفس المظهر والهيئة . وكذلك كان مثاليا متفائلا آلى على نفسه في عناد واصرار أن يصلح العالم بقوة ذراعه ولكنه أخفق . ألم يكن ذلك معبرا عن وجهة نظر ثريانتس كما رأينا في تاريخ حياته في الباب الأول ؟ ولكن مهلا فان أوجه التشابه هذه تصاحبها أوجه اختلاف كثيرة . غير أن هذا هو ما ننتظره من الروائي حين يجعل بطله يتقمص شخصيته .. فعندما يخلق الروائيون شخصا تمثل أشياء عميقة في نفوسهم فانهم يبدؤون بتصوير شيء مختلف كثيرا . فالكاتب حين يرتدى الأقنعة يجد حرية في التعبير عن نفسه ولا يستبعد أن رواية « دون كيخوتي » بجانب إنسانيتها الأسيرة ، استمدت روعتها من نبع آخر يكمن فيه سر قوتها هو ذلك الاسقاط الذي طرحه علينا ثريانتس كجزء من نفسه ، أي بعبارة أخرى ما أسقطه على بطله من نواياه وأهدافه النبيلة ، ومالاقاه من معاناة وقشل واحباط في حياته . ولهذا السبب فان السخرية اللاذعة في هذه الرواية لها وقع سخرية المؤلف من نفسه . وهي تفسر لنا أيضا ذلك العداء العجيب ضد بطله ، فهو كلما فكر في الاذى الذي لحقه من جراء أوهامه ومثالياته ونبالة أهدافه كلما أحس بمرارة العلقم فيتحامل على الشخصية التي تمثلها ويهاجمها .

والرواية بهذا تعالج التحرر من الوهم .. وهو من الموضوعات والأفكار الكلاسيكية في الأدب الأسباني .. فأمال الأسبان وطموحاتهم فاقت امكانياتهم فصدمتهم الحياة . وهكذا كان ثريانتس وبطله فتخلى كلاهما في النهاية عن أوهامه .

ويبدو أنه كما أراد شكسبير أن يشعر الانجليز بانجليزيتهم بما ألفه عن تاريخهم من سلسلة مسرحياته عن ريتشارد الثاني والثالث ، وهنري الرابع والخامس والسادس ، فذلك استطاع ثريانتس أن يشعر الأسبان بأسبانيتهم عن طريق « دون كيخوتي » .. ذلك الفارس العبقري النبيل الذي انفصل عن الواقع بخياله .. فتعالى نفسه وتتسامى الى الافاق ثم يردى الواقع المتمثل في سسانتشو حيث يرتطم بالأرض ، ولكنه في اصرار على المقاومة ، غير عابىء بالآلام والمصائب ، يعاود التحليق عاليا في سماء المثالية ليعود فيرتطم من جديد بأرض الواقع الذي حجب عنه الشيال رؤية حدوده وطاقاته .

وهكذا استطاع المؤلف في براعة أن يقيم توازنا رائعا بين شخصيتي بطليه الرئيسيين فاستقامت له بذلك واقعية رائعة كان يحرص عليها .

وهذا التناقض الذى يظهر بين البطلين في بداية الرواية يأخذ في التلاشى ويحدث ما أسماه الأديب والمفكر الأسباني المعروف سالبادور دى مادارياجا بتسنشيب دون كيخوتى وتكوخت سانتشو وذلك يؤدى الى لحظات يكاد البطلان يبدوان فيها وقد تبادلا موقعيهما . وهذا من أبداع ما وصل اليه فنان في رسم شخصه .

٣ - دون كيخوتى سيد نبيل يشارف الخمسين ، ضامر البدن ، شاحب الوجه ، يصحو مبكرا ، مولع بالصيد ، لا يعمل شيئا طوال العام تقريبا . انكب على قراءة كتب الفروسية ، فلم يقتنع بحياته الرتيبة ، وانطلق متحمسا ، كفارس جوال ، يعيش حياة مخالفة لتلك التى يحياها .

ويرجع خطأ دون كيخوتى ، اذا كان ما فعله خطأ ، الى أنه اعتبر قصص الفروسية تاريخا أكثر منها خيالا روائيا ، فكان يعتقد مثلا أن أماديس الغالى قد عاش كما كان يوليوس قيصر أو الاسكندر عاثشا . ان كل شخص في أسبانيا قرأ روايات الفروسية ، ولكن أحدا لم يعتقد ما اعتقده دون كيخوتى ، بل كانوا يرون أنها كتبت للتسلية ، وأنها تقرا للاستمتاع بما فيها من هزل ، ولكن منطق صاحبنا افترض شيئا آخر . . . فقد وصل الى نتيجة مختلفة . . . ان حياة الفارس يجب ان تبعث وتعايش مرة أخرى ، فالعالم الآن قد أصبح من السوء كما كان في زمن أماديس .

وهو لم يعتقد أنه فارس ، ولكنه فكر في أنه يمكن أن يصبح أحد هؤلاء الفرسان . فألحى على نفسه أن يقوم بأعباء الفروسية ومتاعبها مجابهة الأخطار لإصلاح الأخطاء . وسار في ذلك السبيل بخطى واعية عامدا متعمدا في اصرار وعزم . فسلح نفسه ببعض أسلحة قديمة ، وأطلق على حصانه اسم روثينانتى ، وسمى نفسه باسم دون كيخوتى . ولم يكن له محبوبة فاختلق في خياله واحدة أسماها دولشينيا . ولو أنها لم تكن كلية من صنع الخيال ، فقد سبق أن راقى له ذات مرة فتاة من جيرانه تدعى آلدونثا لورينثو . وعلى أية حال فأنها كانت تفى بالغرض ، كما كفاه حصانه الأعرج الهزيل ، والأسلحة التى علاها الصدا وكانت ملكا لأجداده . وهكذا أصبح على أهبة الاستعداد لتقليد قدامى الفرسان .

خرج ثلاث خرجات ، ورجع مرة من تلقاء نفسه ، ولكنه في الثانية والثالثة أعاده الى منزله أشخاص من قريته اقتفوا أثره لهذا الغرض . وكان في كل مرة يرجع متعبا مكدودا منهوك القوى مثخنا بالجراح ، إذ ان ما يقوم به الفارس الجوال من مغامرات يكبده جهدا عنيقا . وسرعان ما لزم الفراش بعد عودته الثالثة الى بيته ، وكتب وصيته ، واعترف بخطاياهم ، وسلم بأن كل ما أقدم عليه كان ضلالا ثم مات .

وقد اعتقد كل شخص ،سواء من أهل بيته أو من خارجه ، انه أما أن يكون غريب الأطوار أو مجنوناً • وهذا يقودنا الى التساؤل هل كان دون كيخوتى مجنوناً أم عاقلاً ؟

لقد زادنا ثريانتس حيرة وشكاً في الجزء الثانى من الرواية في الفصل الثالث والأربعين عن تلاوة نصائح دون كيخوتى لسانتشو بانثا أن يقول المؤلف :

« من ذا الذى يسمع أقوال دون كيخوتى هذا ولا يظنه امرءاً حكيماً مزوداً بعقل كبير ؟ والواقع أنه لم يكن يخرف ، كما رأينا مراراً في هذا التاريخ الكبير ، الا حين يتعلق الأمر بالفروسية • وفيما عدا ذلك كان يكشف عن عقل سليم ، وفكر نير • • حتى أن أفعاله كانت في كل لحظة تكذب أقواله ، وأقواله تكذب أفعاله • وفي تلاوة النصائح التى أسداها الى سانتشو كشف عن استقامة في الحكم ووقرة في العقل » •

ولنعاد قراءة الرواية علنا نجد اجابة عن سؤالنا • من النادر أن نجد دون كيخوتى وحده معنا ، لنرى ماذا سيكون عليه حاله اذا لم يكن محاطاً بجماعة من النظارة • وهو اذا لم يكن معه أحد ، فأننا سوف نجد سانتشو ملازماً له • ولكن هاهو ذا سانتشو يتركه في جبل « سسيريا مورينا » ويمضى برسالته الى دولثينيا دل توبوسو • ما أشد دهشتنا عندما نكتشف ذلك الهدوء والسكون الواضح الذى حط على بطلنا ، واتسمت به تصرفاته وسلوكه ! انه لم يعد يتصرف كرجل مجنون • • فعندما اختلى بنفسه ، أصبح رصينا منضبطا مسيطرا على نفسه يتحلى بالهدوء والصفاء ، مستقلاً بذاته •

ودون كيخوتى كفرد له أسرارهِ الخاصة ، وصفاته المميزة ، فمثلاً انه متواضع ، ولم يدع أياً من وصيفات وخادمات الدوقة تعاونه في خلع ملابسه • لا أحد غير سانتشى يفعل ذلك • وعندما رحل الأخير ليحكم جزيرته رأى دون كيخوتى من واجبه أن يتولى ذلك بنفسه •

الا نستشف بعد هذا أننا أمام شخص سليم العقل يمضى معظم أيامه مستخفياً متنكراً في أهاب رجل مخبول ؟

نحن لا يسعنا الا القول بأن الرواية وشخصية دون كيخوتى قد أثارت فيضا من التعليقات والتفسيرات طوال ما يقرب من أربعة قرون • ومازالت رغم ذلك تحيرنا ، وتحفز تفكيرنا وتدفعنا الى التساؤل حتى الآن • وهذا يدلنا على مدى عبقرية كاتبها • وقد زاد الغموض الذى يكتنف الرواية من ثرائها ، واكسبها تلك الهالة من المجد والخاود • • وكلما قرأناها استمتعنا بها • ولا أجد هنا أبلغ مما قاله الكاتب الفرنسى الكبير أندريه جيد من أن العمل الذى يستمتع به هو ما يحتاج الى تفكير ، ويعاد قراءته عدة مرات •

٤ - عندما انطلق دون كيخوتى فوق صهوة جواده شامرا رمده في يده ليقوم ما أعوج ، وليملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا ، كان يهتف باسم دولثينيا دل توبوسو ، فقد كان يرى ضرورة أن يكون للفرسان الجواله عرائس يقدمون لهن الحب . لقد عشقها عشقا عقيفا ، ولعله ارتجف فرقا من أن يقتل بين ذراعيه طهارة دولثينيا . لم يختلس النظر اليها سوى أربع مرات فقط طوال اثنا عشر عاما دون أن تلمح مرة واحدة أنه كان يتطلع اليها . وهانذا قد تجاوزت الخمسين من عمرك وظللت أسير سحرها ، ولم تستطع التغلب على حياكك النبيل ، فمزق هذا الحب المسكين ، الذى لم تدر هى به ، نفسك ، وكان ينبوع حناك البطولى . . وهكذا لم تعد دولثينيا امرأة بالنسبة اليك ، بل أضحت صورة للحب . . ذلك الحب الذى يجعل لحياة العائشين في هذه الدنيا معنى .

٥ - لما كانت ملاهى شكسبير تكاد كلها تنتهى بالزواج ، فإن الاعتقاد السائد أن هدف الملهاة هو تشجيع روح التفاؤل ، أو على الأقل بث المرح كما يقول ل . ج . بوتس في كتابه عن الملهاة في المسرحية والقصة . ولكننا نجد أن ثريانتس رغم انتهاء روايته بموت بطله استطاع أن يثير ضحكنا دون أن تسف فكاهته الى التماس الاضحاك ، بل تقف عند الحد الذى يسبغه الذوق السليم ، فكانت الضحكة التى تحتفظ بوقارها . ولم يخرج كاتب مثل هذا القدر من البشر والمرح من ثنايا الشقاء والحرمان كما أخرج ثريانتس . وقصد من رواية « دون كيخوتى » أن تكون مرآة للمجتمع بكل عيوبه الاجتماعية والسياسية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعوى زائفة في الآداب والأخلاق ، معالجا كل ذلك في سخرية ليست حزينه ، بل بهجة ، تنظر الى العيوب والنقائص بترفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات .

٦ - عندما تخفى سانسون كاراسكو أحد جيران دون كيخوتى في زى فارس المرایا ثم فارس القمر الأبيض ، وانتصر على دون كيخوتى حكم عليه بأن يتخلى عن الفرسان الجواله والعودة الى المنزل . وهناك مات دون كيخوتى معلنا أن الفرسان الجواله هراء ؛ دون أن يدرك قط أنه شخصيا كان فارسا حقيقيا وسيدا نبیلا شهما شجاعا . وكأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسى : « نحن أمواج أن تسترح تمت » .

مات دون كيخوتى بعد كفاح تعزى بنبل غايته عما لقيه من مصائب وآلام . مات بعد أن باء كفاحه بالفشل ولم يعد بقادر على استئناف حياة بليدة رتيبة كالتى يحياها الملايين من الخاملين . وسبقى دون كيخوتى في عقولنا رمزا للنبالة الساعية في خير الانسانية والفناء في سبيلها . . . وستظل حياته درسا نتعلم منه أنه ليس من الضروري أن نلقى نجاحا ماديا واقعيا لاصقا بالطين لنجاهد في سبيل مثل عليا نؤمن بها ونفنى دونها .

٧ - لقد ضحكت أسبانيا مع كاتبها ثريانتس من ذاتها حتى لا تجهش بالميكاء في ساعات الازلال والاندحار ، شاعرة بضرورة بعث الوطن من كبوته ، وأن ذلك لا يتم الا باقتباس مثالية دون كيخوتى وعطائه . وإذا كان ميكل دى ثريانتس قد شجب الهوس الخيالى في قصص الفروسية في رواية « دون كيخوتى » ، الا أنه كما يقول الناقد الأسباني الشهير آثورين لم يشجب أبدا ذلك الحب . حب ماهو مثالى ، ولا ذلك الأمل ولا تلك البساطة ولا ذلك الاحترام ، ولا هذه الثقة بالنفس ولا تلك الأحلام التى يعجب بها عند فارسنا النبيل ، فكلها لازمة لانجاز المشاريع الجبارة للشعوب والأفراد .

وثريانتس يهاجم كتب الفروسية لأن أسلوبها مفتعل وكله تكلف وتعقيد ، وهو يرى أن يكون الأسلوب بسيطا وخاليا من الصنعة . كما أنه يأخذ على مادة هذه الكتب ما تحفل به من كذب وزيف ، ومافيه من خيال جامح ، ومواقف غير معقولة . وثريانتس يهتم بالصدق الأدبى ، والىبعد عن الخوارق والتهاول ، وأن يكون الأدب واقعيًا قدر الامكان . فقصص الفروسية فيها من المغامرات مالا يخطر على بال ، فهناك بطل يدعى أماديس دى جاو لا كان يضرب القلعة الهائلة بسيفه فتنهار ترابا ، وآخر يدعى فيليثيانو دى سلفا حمل بيديه تالا وضرب به سفينة في عرض البحر ، وثالث هو دون بليانس حارب وحده جيشا من عشرة آلاف مقاتل وهزمه اذ قتل خمسة آلاف منهم بسيفه ، فلما بلى السيف من كثرة الضرب حتى لم يبق في يده الا مقبضه ، أمسك بشجرة ضخمة فانتزعها وقتل بها الخمسة آلاف الباقين !

وثريانتس يتطلع من خلال شخصية دون كيخوتى نحو هدم الايديولوجيات القديمة والعرف والمظاهر والأماجد الزائفة حتى يبني عالما يسود فيه الحب والشعر وانكار الذات ، والتحلل بالاخلاق الفاضلة ، والطهر والنقاء ، والقبالة التى تمد يد المساعدة للانسانية المعذبة . وثريانتس ليست لديه حلولا فلم يستطع أن يقترح حلولا ، حتى أن دون كيخوتى عندما تسلخ وامطى صهوة روثينانتى ترك له العنان اذ لم يكن يعرف الى أين يمضى .

وقد كتب ميكل دى ثريانتس روايته « دون كيخوتى » في بساطة آخاذه ، ووضوح يمتاز بشفوفه وصدق الهزان ، مبتعدا عن الحذقة في استعمال التعبيرات المتقعة والكلمات المهجورة ، معبرا عن الأحاسيس والعواطف من خلال التجرية . وجعل شخصه يتكلمون ويعملون بالطريقة التى يعمل ويتحدث بها الناس . وقد وصف كل شخصية بنفس الاهتمام الموضوعى دون أن يحفل بالطبقة أو المركز والجاه . كل هذا كان يشكل علامة نحو التغير الثورى الذى حدث من اتجاهات الفنان ازاء العالم اذ لم يسبقه كاتب صور الناس كما هم في الواقع .

كما لا ننسى أنه عرف المونولوج الداخلى وعلى سبيل المثال تلك الخواطر التى مرت فى رأس دون كيخوتى وهو ينظر الى جواربه المحروقة فى الفصل الرابع والأربعين من الجزء الثانى من الرواية .

ودون كيخوتى رواية ايجابية فهى أول كتاب يحتضن كل مسالك الحياة وطرقها المتشعبة . . . وهكذا جاء مرآة للعصر وعاداته وتقاليده . ولكن ميغل ترك القارئ يكون رأيه فجاءت روايته نادرة زمانها ، وفريدة عصرها وأوانها . فنحن أمام رواية حديثة إذ أنه تحت الفكاهة ، وتمت قصة التجول والجرى والركض ، وتحت ما قدمته من انعكاس للحياة كما هى نجد أنها درست أيضا شيئا آخر : كل طبيعة الواقع والوهم . وهذا بشكل أو بآخر هو ما تعنى بدراسته كل رواية حديثة . واستعماله للأسلوب الهزلى المرح بحذق وتفرد جعل من ثربانتس ، مؤلف دون كيخوتى ، عصريا الى الأبد .

٨ - غير أننا نأخذ على ثربانتس فى روايته « دون كيخوتى » وجود بعض المصادقات المفتعلة ، والسهو والخطأ الذى ينشأ عنه أحيانا خلط بين الوقائع والأحداث كحادث سرقة حمار سانتشوش ثم نراه رغم ذلك يظل يتحدث عن الحمار فى مواضع أخرى وكأنه لا يزال فى حوزة سانتشوش . . . ومثل قوله فى الفصل الثانى والأربعين من الجزء الأول من الرواية : « بدأ النهار ينحدر والليل يقبل . . . » ناسيا أن الليل قد أقبل من زمن طويل ، وأنهم تناولوا العشاء ، وأن الأسير قضى زمنا طويلا وهو يروى تاريخه الحافل .

وكذلك المواعظ المتناثرة فى الرواية كان من الأوفق احسرتام نكاء القارئ ، وترك الحدث يتكلم عن نفسه .

وفى أحيان أخرى نرى المؤلف يتدخل شخصيا فى بعض مواضع الرواية ، وكان الأجدر أن يفصل شخصيته عن العمل الفنى .

كما أن استباقه مقدما لما تسفر عنه بعض الأحداث يفقدها عنصر التشويق ، وذلك كقوله فى الفصل الثانى عشر من الجزء الثانى من الرواية عن دون كيخوتى وفارس المرايا : « كان الحديث يجرى بينهما هكذا وهما جالسان الى جوار بعض على الأرض ، فى تفاهم جميل ، دون أن يقدرا أنه حين ينقشع الظلام سيكسر كل منهما رأس الآخر » .

وقد راقنا ما جاء على لسان دون كيخوتى فى الفصل الثامن والخمسين من الجزء الثانى للرواية عندما قال : « أن ما يسميه العامة باسم الفأل والطيرة ، هو أمر لا يقوم على النظام الطبيعى للأشياء » حتى أننا نرى ثربانتس كان يفكر بالأسلوب العلمى ، إذ ربما اطلع على آراء جاليليو وأسلوبه التجريبي فى البحث ، بيد أننا رأينا فى مواضع أخرى يتحدث عن

الجنيات والسحر والسحرة ، ويبدو أن ثريانتس قد اقتبس ذلك من قولكلور العصور الوسطى .

ومع ذلك نعود فننتدرك ما ذكرناه من مآخذ ٠٠ فمن التعسف أن ننظر الى ذلك العمل نظرة عصرية بعين رجل العلم الذي يعيش في عصر الفضاء ، وإنما يجب أن نعزل العمل الفني ونقيمه في حدود عصره ومقاييسه . وعلى سبيل المثال فالحديث عن السحر والسحرة وحكايات الجن كان مألوفاً لدى الناس في عصر شكسبير ، وحتى الشعراء مثل سبنسر احتقوا بالجنيات في أشعارهم .

أما انتقاد ثريانتس لنفسه كقوله ان البعض يتهمة بفقدان الذاكرة (بخصوص حمار سانتشو الذي سرق) فتدلنا على أنه لا يعيد قراءة ما سبق أن كتبه .

وعلى أية حال اننا لم نسق تلك المآخذ لنشوه صفاء السماء ، ولكن لأننا أحسبنا رغم ذلك أن فن ثريانتس شيء يفوق الواقع يذكرنا بذلك التشكيل المجسم الذي يمثل الماريشال ناي للمثال فرانسوا ريد ٠٠ فقد استخرج المثال العالمي رودان ما لا يقل عن عشرة أخطاء في هذا التمثال ، ولكنه مع ذلك يمتاز بصدقه الفني المستمد من تلك الأخطاء نفسها ، بل ويبدو لنا طبيعياً أكثر من تلك الصورة الفوتوغرافية التي تلتقطها آلة تصوير شديدة الدقة والسرعة لضابط يقفز على قدم واحدة في وضعية سخيف يبدو خاطئاً مبتوراً رغم أنه وضعية حقيقي . وهذا يؤيد قول أرسطو : « ان الشعر أصدق من التاريخ » ، وبالتالي النحت أصدق من الصب القلبي ، والرسم أصدق من التصوير الفوتوغرافي .

وإذا انتقلنا الى ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي في ترجمته لرواية « دون كيخوتي » من أن الاضطرابات في التواريخ كثيرة ، فإننا نرى أن ثريانتس لا تثريب عليه فهو فنان وليس مؤرخاً ملتزماً بوقائع التاريخ بأدق تفاصيلها .

٩ - تأثر كثير من الكتاب برواية « دون كيخوتي » مثل هنري فيلدنج ، وتوبياس جورج سموليت ، ووالتر سكوت ، وتشارلز ديكنز فقد خرجوا من معطف ثريانتس .

١٠ - لم تؤثر رواية « دون كيخوتي » على الأدب فحسب ، ولكنها أثرت أيضاً في الفنون التشكيلية ، بل وأغرت كثيراً من المؤلفين الموسيقيين من مختلف القرون فوضّعوا موسيقى موضوعات مستوحاة من تلك الرواية في مختلف الأشكال الموسيقية من القصيد السيمفوني (ريتشارد شتراوس) الى موسيقى الباليه (مانويل فايلا ، وبوامورتيير ، ولودفيج مينكوس وغيرهم) ، كما توالى العروض الأوبرالية التي شهدتها مختلف العواصم العالمية .

١١ - لفت أنظارنا ما قاله ثريانتس على لسان دون كيخوتى فى الفصل السادس عشر من الجزء الثانى للرواية : « ان الشاعر المطبوع ، الذى يستعين بالصنعة يفوق كثيرا من لا يعرف الا الصنعة ، لان الصنعة لا تفوق الطبيعة ، وهكذا بمنزج الطبيعة بالصنعة ، والصنعة بالطبيعة يخرج الشاعر كاملا » . وكأنى هنا أسمع ما قاله الشاعر اللاتينى الكبير هوراس فى كتابه « فن الشعر » عن الصناعة والالهام : « لست أتبين ما يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل » . ان أحدهما ليلح فى طلب الآخر ويعاهده على صداقة باقية . فمن كان مطعمه بلوغ الهدف المنشود فقد عانى الكثير فى صباه ، وارتعد وتصيب عرقه ، وحرم نفسه الحب والخمر » .

وهذا ينطبق على ميجال دى ثريانتس الذى لم يكتف بموهبته الشخصية فقبع ساكنا منتظرا الالهام يسقط عليه من ربوات الشعر ! ، بل لقد عانى الكثير فى صباه وتصيب عرقه كى يصقل مواهبه وهو الذى حدثنا أنه منذ صغره لم يكن يعثر على قصاصة ورق الا ويقرأ ما فيها ، وقد بذل ثريانتس جهدا شخصيا متصلا فى تثقيف نفسه ، وفى الاطلاع على مختلف الآثار الأدبية واغترف من الحضارتين الاغريقية والرومانية الكثير ، وحصل على ثقافة عريضة تطل علينا بوضوح من روايته « دون كيخوتى » فقد أشار على سبيل المثال ، الى هوميروس ، وفرجيليوس ، وبلوتارخس ، وسيزيف ، وبروميثيوس ، وميديا ، وثيبتون ، وهكتور ، وأخيليس ، وطروادة التى يرجع فضل شهرتها الى هيلانة الجميلة التى اختطفها الضيف الجسور من منيلاوس ، وأفلاطون ورأيه فى الشعراء . ولم يقصر اطلاعه على الآثار الأدبية فحسب ، بل تجاوزها الى شتى أنواع المعارف كما نتبين ذلك من ذكره لكتاب « الحشائش » الذى ترجمه الدكتور لاجونا من اليونانية الى الاسبانية . كما اطلع على مؤلفات توماس الأكوينى فى الفلسفة والأخلاق والدين وماوراء الطبيعة ، وهو راهب زاهد متقشف ، كان يجوب ايطاليا على صهوة بغله ، ذاثدا عن الدين بقوة براهينه الفلسفية ، مدافعا عن القيم والمثل السوامق ، وربما كانت لهذه الشخصية أثرها كأحد المنابع التى أسهمت فى الهمام ثريانتس عندما أبدع شخصية دون كيخوتى .



المراجع

أولا : النص

(أ) النص باللغة الاسبانية

- * Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha; Edición y Notas De Francisco Rodríguez, Marin, Madrid, 1950.
- * Saavedra, Miguel de Cervantes : El ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha, con la Vida de Cervantes por D.M.F. Navarrete. Paris, 1845 (Colección de los mejores autores españoles vol. I).

(ب) النص باللغة الانجليزية

- * Cervantes, Miguel de ; Don Quixote, translation by Peter Motteux, introduction by Herschel Brickell, New York, 1930.
- * Cervantes, Miguel de : The History of Don Quixote de la Mancha, translated by John Ormsby, Chicago, London, Toronto, 1952.

(ج) النص باللغة الفرنسية

- * Cervantes, Michel de : Histoire de Don Quichotte De La Manche, Traduite de l'espagnol par Filleau de Saint-Martin, Paris, 1947.

- * Saavedra, Miguel de Cervantes : L'ingenieux Hidalgo Don Quichotte de la Manche, traduite et annotée par Louis Viardot, Paris.

(د) النص مترجم

- * ميجل دي ثريانتس : دون كيخوتي • أجزاء • ترجمة : د • عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٥ •
- * ميجل دي ثريانتس سافدرا : السيد العبقري دون كيخوته دي لامانتشا — ترجمة : د • عبد العزيز الأهواني ، القاهرة ١٩٥٧ •

ثانيا : الدراسات

(١) دراسات باللغة الإسبانية

- * Cervantes, M. De : El Licenciado Vidriera y El Coloquio de Los Perros, Edición, estudio y notas por Francisco Esteve Barba, Zaragoza, 1964.
- * Cervantes, M. De : Los Trabajos de Persiles y Sigismunda, Selección, estudio y notas por Nicolas Gonzales Ruiz, Zaragoza, 1962.
- * López, Jose García : Literaturas Hispánicas, Barcelona, 1965.
- * Prat, Angel Valbuena : Historia De La Literatura Española, Tomo 3, Barcelona, 1963.
- * Rueda, Lope de y Cervantes, M. De : Pasos y Entremeses. Edición, estudio y notas por Jose Manuel Blacua, Zaragoza, 1963.
- * Vega, Garcilaso De la : Poesías, Madrid — Barcelona.
- * ESPANA 81, Año IX, Marzo 1981.

(ب) دراسات باللغة الانجليزية

- * Altamira, Rafael : A history of Spain, translated by Muna Lee, New York, 1949.
- * Busoni, Rafaello : The Man who was Don Quixote, U.S.A , 1958.
- * Castiglioni, Arturo : A History of Medicine, translated from the Italian by E.B. Krumbhaar, New York, 1947.
- * Clark, H. Barrett : World Drama, Vol. 2 (20 Unabridged Plays) New York, 1933.
- * Creasy, Edward S. : History of the Ottoman Turks. Beirut, 1961.
- * Davies, R. Trevor : The Golden century of Spain 1501 — 1621.
- * Doren, Mark van :Don Quixote's profession, New York, 1958.
- * Eagle, Dorothy : The concise Oxford Dictionary of English Literature, Oxford, 1977.
- * Encyclopedia Americana.
- * Encyclopedia Britannica.
- * Ewen, David : Encyclopedia of the Opera, New York, 1955.
- * Garland, Joseph : The Story of Medicine, Boston, 1949.
- * Harvey, Sir Paul : The Oxford Companion to English Literature, London, 1953.
- * Heiney, Donald and Downs, H. Lenthiel : Continental European Literature, New York, 1974.

- * Josephson, Leonard and others : Encyclopedia of World Drama, New York 1972, Vol. 1.
- * Kirkpatrick, F.A. : The Spanish conquistadors, London, 1946.
- * Magill, Frank N. : Cyclopedia of Literary Characters, New York, 1963.
- * Montross, Lynn : War through the Ages, New York, 1960.
- * Nelson, Lowry : Cervantes, A Collection of Critical Essays, New Jersey, 1969.
- * Scotte, George Ryley : The History of Torture throughout the ages, London, 1949.
- * Smith, Horatio : A Dictionary of Modern European Literature, New York, 1947.
- * Steinberg, S.H. : Cassell's Encyclopedia of Literature, London, 1953.
- * Thomas, Henry and Thomas, Dana Lee : Living Biographies of Famous Novelists, New York, 1946.
- * World Book Encyclopedia.

(ج) دراسات باللغة الفرنسية

- * Grand Larousse encyclopédique.
- * Rochel, Clément : Cervantes inédit, Paris, 1903.

(د) دراسات باللغة الألمانية

- * Krywalski, Diether : Knaurs Lexikon der Welt-Literatur, München/Zürich, 1979.

(ه) دراسات أجنبية مترجمة

- * برتون راسكو : عمالقة الأدب ٣ أجزاء - ترجمة : دريني خشبة ، القاهرة ١٩٦١ .
- * جورج كروتز : حول مائدة المعرفة ، النساء في الأدب ، ترجمة : جلال مظهر ، القاهرة - نيويورك ١٩٦١ .
- * خوليو كورتيس : دون كيخوتى في القرن العشرين - مختارات من مقالات أسبانية - ترجمة : د . خوليو كورتيس ود . محمد صبح ، مدريد ١٩٦٨ .
- * روبرت بروسناين : المسرح الثورى - ترجمة عبد الحلیم البشلاوى (بلا تاريخ) .
- * ل . ج . بوتس : الملهاة في المسرحية والقصة - ترجمة : ادوار حلیم ، القاهرة ١٩٦٥ .
- * هوارس : فن الشعر - ترجمة : د . لويس عوض ، القاهرة ١٩٧٠ .

(و) دراسات باللغة العربية

- * د . حسين مؤنس : كتب وكتاب - الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٩ .
- * د . عبد العزيز الأهوانى : دون كيخوته (لسرفنتيس) العدد ٢ من المجلد الثالث من سلسلة تراث الانسانية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- * د . محمد مندور : نماذج بشرية ، القاهرة ١٩٦١ .
- * الموسوعة العربية الميسرة .

للمؤلف

- ١ - الكيمياء في خدمة المجتمع
لجنة البيان العربى ١٩٥٦ •
- ٢ - الطاقة الذرية
لجنة البيان العربى ١٩٥٦
- ٣ - طرائف ومداعبات علمية
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧
- ٤ - دنيا الدم
لجنة البيان العربى ١٩٥٨ •
- ٥ - الأصبع أو الزمن يتصرم
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ •
- ٦ - أيها الخادم الطيب المخلص
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ •
- ٧ - ستأخذ بثأرى
من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٩
- ٨ - الدوامة
الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ •
وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب •
- ٩ - العاصفة
العدد ٢٩٩ من روايات الهلال نوفمبر ١٩٧٣ •

- ١٠ - ليال لا تنسى
العدد ٣١٧ من روايات الهلال مايو ١٩٧٥
- ١١ - المسحوق السحري ومسرحيات أخرى
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .
- ١٢ - جسر بنات يعقوب
من سلسلة الابداع العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .
- ١٣ - دانتي والكوميديا الالهية
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧
- ١٤ - اثر الكوميديا الالهية لدانتي فى الفن التشكيلى
من الألف كتاب (الثانى) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٥ - الزوجة الأولى
من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٦ - الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء
مسرحيتان علميتان - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- ١٧ - دون كيشوت بين الوهم والحقيقة
من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩ .

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الأول شخصية دون كيخوتى من خلال حياة مؤلفها

تمهيد ١١

الفصل الأول :

- ظروف عصر المؤلف السياسية والتاريخية والاقتصادية
والدينية ١٢
- ١ - أسبانيا فى القرن الذهبى ١٢
- ٢ - فيض من النبلاء وسيل من البذخ ١٣
- ٣ - ايمان رهيب ١٤
- ٤ - الملك حاكما مطلقا ١٤
- ٥ - الحضارة الاسبانية ١٧
- ٦ - أحداث قرن ثريانتس ١٨

الفصل الثانى :

- حياة ميغل دى ثريانتس المغامر كإنموذج لبطل روايته دون
كيخوتى ٢٢
- ١ - حياة التشرد والتجوال فى سلالة دون كيخوتى أو دون
كيخوتى أبنا عن أب ٢٢
- ٢ - ميغل فى روما ٣٢٠٠
- ٣ - ميغل فى معركة ليبانتو ٣٧
- ٤ - ميغل فى قلعة نابولى ٤١
- ٥ - ميغل أسيرا فى الجزائر ٤٤

- ٥٣ ٦ - ميكل يجرب حظه مع المرأة والقلم
- ٦٢ ٧ - السكارثة
- ٦٧ ٨ - ميكل فى السجن
- ٧٠ ٩ - ميكل يفلت من طوفان الزمن

الفصل الثالث :

- ٧٥ سجل مسلسل بأعوام لها تاريخ فى حياة ثربانتش

الباب الثانى

دراسة تحليلية لنص الرواية

- ٨١ تمهيد
- ٨٣ الفصل الأول : العناصر الرئيسية للرواية
- ٨٣ ١ - هذه الرواية
- ٨٥ ٢ - مولد فارس
- ٨٩ ٣ - عالم الطواحين الهوائية
- ٩٣ ٤ - فى الطريق الى الفندق المسحور
- ٩٨ ٥ - الاميرة المزيفة
- ١٠١ ٦ - فدية دوالثينيا
- ١٠٥ ٧ - هزيمة دون كيخوتى على يد فارس القمر الأبيض
- ١١١ ٨ - يستقر ليموت
- ١١٣ الفصل الثانى : شخصيات الرواية
- ١١٣ ١ - الفارس النبيل
- ١١٥ ٢ - سافتشو بانثا الذى ولد لينام
- ١١٦ ٣ - الدوافع الطبية للجامعى كاراسكو
- ١١٨ ٤ - اللص ٠٠ روك جينار
- ١١٩ ٥ - دولثينيا ٠٠ الفاتنة التى لا وجود لها

- ٦ - تيريسا ٠٠ الحكيمه التي تتكلم بالامثال ٠ ٠ ٠ ١٢٠
- ٧ - ماريتورنس المسكينه ذات القلب الكبير ٠ ٠ ٠ ١٢٠
- ٨ - انطونيا الرقيقه الشعور اكثر منها قاسية ٠ ٠ ٠ ١٢١
- الفصل الثالث : عرض لآراء الكتاب والنقاد فى العمل ٠ ٠ ٠ ١٢٤
- (أ) تفوق ثريانتس فى الميدان القصصى ٠ ٠ ٠ ١٢٤
- (ب) فيض حماسى من التفسيرات ٠ ٠ ٠ ١٢٧
- ١ - ملهه للمكتتبين ٠ ٠ ٠ ١٢٨
- ٢ - الثار من شارل الخامس ٠ ٠ ٠ ١٢٩
- ٣ - كهل وجندى ونبيل وفقير ٠ ٠ ٠ ١٣٠
- ٤ - الفرنسيون يبههم أسلوب الرواية ٠ ٠ ٠ ١٣١
- ٥ - الانجلز والرواية ٠ ٠ ٠ ١٣٢
- ٦ - المركض وراء النوايا الخفيه والمقاصد السرية ٠ ٠ ١٣٣
- ٧ - هوميروس الجديد كما يراه الرومانتيكيون ٠ ٠ ٠ ١٣٤
- ٨ - ادخال الشعب فى الرواية ٠ ٠ ٠ ١٣٥
- ٩ - دون كيخوتى فى ملابس نسائية وملامح الاسطورة فى اشكال اخرى ٠ ٠ ٠ ١٣٦
- ١٠ - قلق باروكى تحت ستار المرح ٠ ٠ ٠ ١٣٩
- ١١ - دون كيخوتى كما نراه اليوم ٠ ٠ ٠ ١٤٢
- خاتمة ٠ ٠ ٠ ١٤٧
- المراجع ٠ ٠ ٠ ١٥٧

رقم الايداع ٨٩/٧٠٣٨

الترقيم الدوالى ٧ - ٢٢٢٩ - ٠١ - ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

● ● لم تحظ شخصية روائية بالخلود مثلما حظيت شخصية دون كيخوتي التي أبدعها ميغل دي ثربانتس ، نابغة أسبانيا وبديعها .
ويقدم هذا الكتاب دراسة تحليلية نقدية لنص الرواية متناولاً العناصر الرئيسية لها ، وشخصياتها حتى يعيد تنظيم الجو النفسي والروحي الذي صيغ فيه هذا العمل ليكتسب أبعاداً واضحة ، ويصبح في الإمكان تقدير الأوجه التي لا يحصرها العد ، والمتلونة لهذه الرواية .

كما يتناول البحث مؤلف هذا العمل الفريد وعصره وظروفه إن لم يكتب في مصر عن حياة ميغل دي ثربانتس إلا النزر اليسير .. بضع صفحات هنا وهناك مع أننا ندين له بامتع روايتين اتحفنا بهما في تاريخ الأدب .

أولاًها .. حياة دون كيخوتي الغريبة العجيبة ، وثانيتهما .. حياة مؤلفها التي تضارع حياة بطله دون كيخوتي إن لم تكن قد فاقتة في غرابتها . ولكن لماذا طغت عليه شخصية بطله ؟ وهل ثمة علاقة بينهما ؟ ويستمر البحث لاكتشاف سر دون كيخوتي المحير ! هل هو شخصية لا وجود لها إلا في خيال مؤلفه ؟ أم تراه قد صادف دون كيخوتي وعرفه في الحياة الواقعية في مكان ما ؟ هذا ما سيمضي فيه البحث قدماً لإمطة اللثام عنه .